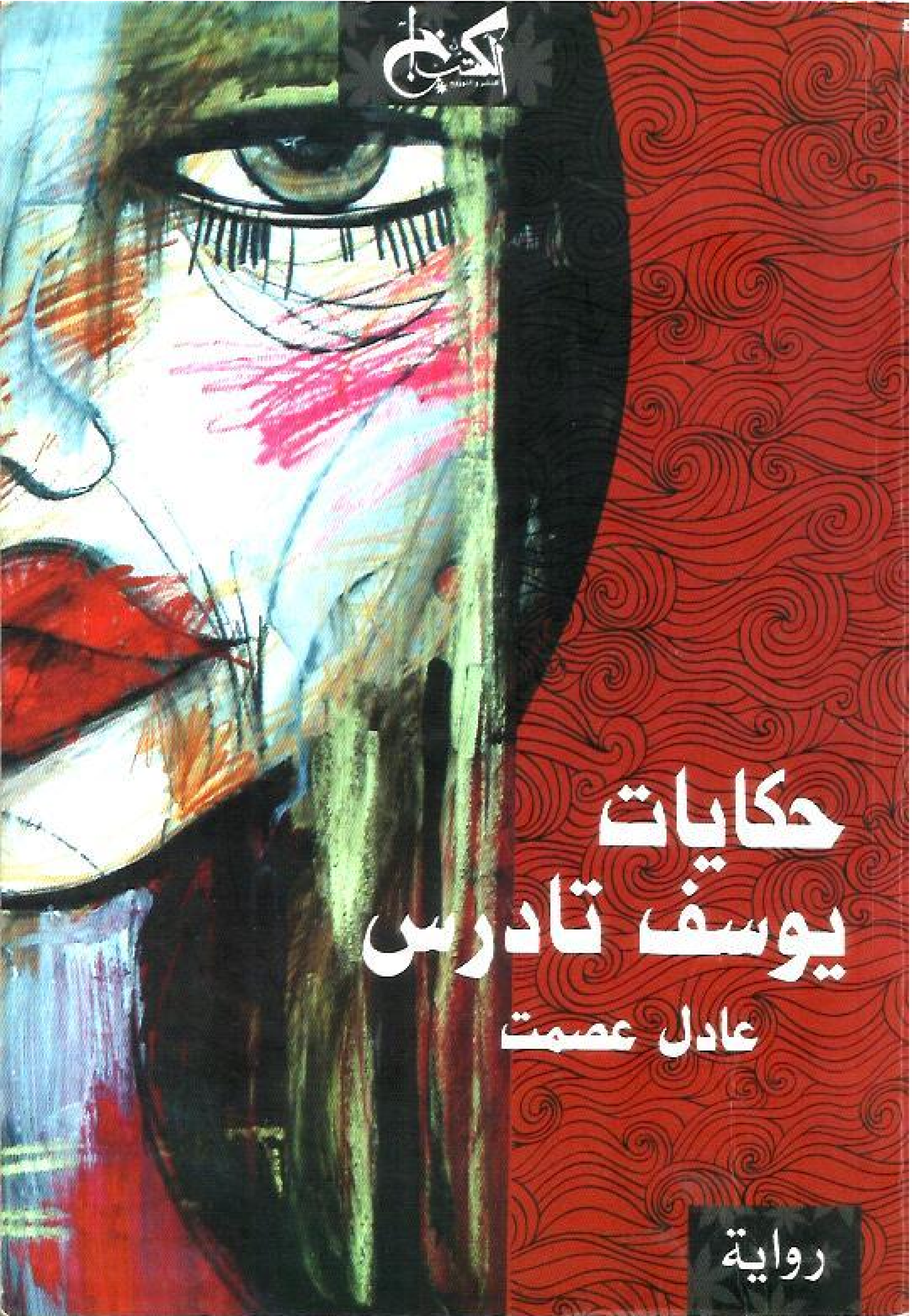
حكايات
يوسف تادرس
عادل عصمت
رواية

حكايات

يوسف تادرس

*

حكايات يوسف تادرس
روايـــة
الطـبعة الأولي ٢٠١٥
رقـم الإيداع ٨٢٥٤ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي ٠ - ٤٥ -٦٣٠٦-٩٧٧-٩٧٨
العـــــــلاف حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادى - القاهرة
تليفـــون ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد اليكتروني info@kotobkhan com
موقع اليكتروني www.kotobkhan com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2015 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the author has been asserted All rights reserved

حكايات

يوسف تادرس

رواية

عادل عصمت

الكتب للنشر والتوزيع

فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

عصمت، عادل

حكايات يوسف تادروس : رواية / عادل عصمت. – القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٤

٢٥٦ ص ، ٢٠ سم

تدمك : ٠ – ٤٥ – ٦٣٠٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٨٢٥٤

الطبعة الأولى ٢٠١٥

إلــى

إبراهيم فلبس

وأشرف ميشيل

" قلت لشجرة اللوز :

حدثيني عن الله ، فأزهرت شجرة اللوز " .

من مذكرات كزانتزاكي

يقول يوسف تادرس:

حلمت أمس بطقس البعث.

كان الضوء شحيحًا، يأتي من شموع في فجوات بامتداد الحائط. الصمت كثيف، عدا أصوات تراتيل خافتة. كنا خمسة تقريبًا، نسير في صف طويل. نرتدي جلابيب فضفاضة، كجلابيب الفلاحين، خفيفة من الدمور، وكنت أشعر برهبة، ويشغل تفكيري: "كيف جئت إلى هنا؟"، "من جاء بي؟"، "لا بد أن هناك خطأ ما". دخلنا غرفة واسعة مربعة، لم يكن فيها أي أثاث غير كليم من الكتان مفروش على الأرض. يقف رئيس الدير بجوار منبر صغير. وقفنا أمامه في صف كأننا في طابور الصباح. أشار إلينا أن نتمدد على الكليم. أطعنا إشارته كأننا منومون.

كنت ما أزال مشغول الفكر بوجودي هنا، مندهشًا، وأعرف أن الأوان قد فات ولم أعد قادرًا على التراجع. ارتفع صوت التراتيل، ورحلت أفكاري. لم يتبق غير الخوف. فات أوان التراجع، وعليّ أن أستسلم لمصيري، لعل حياتي هنا تكون أفضل.

رقدنا، ظهورنا إلى الأرض، وجوهنا إلى السقف، لا أرى غير ظلمات. شعرت بحرام ينطرح علينا، يغطينا من رؤوسنا إلى أقدامنا. شممت رائحة الكتان ولمست خشونته وجهي. ارتفعت التراتيل. أقيمت مراسم جنازة، بكل خطواتها. كنت أتابعها مستسلمًا، ثم تباعدت الأصوات بالتدريج، وحل صمت كثيف حتى أنك تخاف أن تتنفس. ثم ضاع النفس، ولم أعد أشعر بشيء.

لا أعرف كم لبثت في ظلمات "السّتر". لا زمن هناك. صمت وظلام. رُفع "الستر" في لحظة غائمة. النور يشع من شمعتين فوق منضدة عالية. جاهدت كي أحدد موضعي، ثم سمعت تراتيل صلاة، كأن الشمس تشرق. الشمعتان ثابتتا الشعلة، كأنه لا هواء هنا.

وقفنا في طابور من جديد. نزل رئيس الدير درجتين وفي يده مقص، وترك على رؤوسنا علامة بالمقص. بعد أن ينتهي ينطق اسم الشخص. عندما اقترب مني كان وجهه جامداً لا حياة فيه غير شعاع ساحق في عينيه. طبع على رأسي نفس العلامة ونطق باسمي: "جرجس". عدنا لنسير في نفس الطابور، إلى الممر المعتم، تقابلنا فجوات يشع منها ضوء الشموع على مسافات بعيدة. لم أستطع أن أنظر خلفي، وعندما حاولت أن أتذكر اسمي الأول لم أستطع، حاولت أن أتذكر أي شيء عن حياتي السابقة لم أجد غير الفراغ، كأن ما عشته قبل ذلك قد مسح بالكامل.

***

يقول يوسف تادرس:

كانت أمي عضواً في جمعية الكتاب المقدس. كل شهر يتم تكليفها بتوصيل وصولات التبرعات في أنحاء المدينة. كان ذلك في أواسط الستينات. المدينة لم تكن كما هي الآن. بعقل الطفل ما زلت أذكر شارع النادي. الخلاء المفروش بضوء الشمس ينير الأسفلت، ويزيد لون البيوت بريقًا، ويغمر أشجار البونسيانا الناشفة وسور النادي الأبيض والطرقات التي كنت أراها من بين قضبان حديد السور. الصمت كثيف، كأن تلك المنطقة من زجاج. نصعد سلمًا في بيت حديث البناء، رطب. الشقق مغلقة، أبوابها لامعة وتشير إلى جو من القطيفة مختلف عن الجو الطيني في الزقاق الذي نسكنه. تطرق أمي الباب، ويستقبلنا رجل نحيل يرحب بها، يحمل وصله ويعطيها التبرع. نمر على عيادات أطباء ومكاتب محامين، وأصحاب محلات، وتجار. كل شهر كنا نطوف في أرجاء المدينة.

اكتشفت حبي للضوء أثناء تلك الرحلات، وفي نفس الوقت تشبعت بقصة ميلادي. كل شهر أنصت إلى سيرة حياة حكتها أمي عشرات المرات؛ كيف نذرت نفسها للرب، ولكن أباها أصرّ على أن يزوجها وقد بلغت الثلاثين. عانت كثيراً في الحمل، الذي لم يكن يثبت في أحشائها ورحلت إلى

الأديرة والكنائس، وعندما اكتمل الحمل وأصبحت على وشك الولادة، عرفت أن الألم هو الرب، وأحبت حياتها وألمها وولدتني.

تركت هذه القصة أرقًا غامضًا، حسًا غير مريح بأن وجودي على الأرض كان حدثًا كبيراً. كأن تلك الأحداث والأقدار التي سبقت وجودي، أُعدت بغرض ما، لكي تحدث هذه الولادة. في تلك القصة عبء لم يكن الطفل اللاهي براغب في تحمله، فيها شيء ثقيل على الروح، حاولت التملص منه طول الوقت، لكنه ظل يطاردني. شبح سكن وجداني واستقر هناك. عقّدت هذه القصة إحساسي بنفسي وتركت لي حسًا باطنيًا كأنني منذور لشيء على الوفاء به، كأنما عليّ التضحية بشكل ما، كأنما وجودي ليس من حقي. كانت حكاية أمي كئيبة لم أحبها، وكنت أتلهى بمراقبة الضوء والظلال، ونما حبي للضوء هربًا من القصة المرهقة لميلادي.

كانت أمي ضخمة الجسد، وعند طلوع السلالم تعاني من وجع في المفاصل، لكنها اعتبرت ذلك ضريبة عليها دفعها. المعاناة تطهر، تخلص المرء من الخطايا التي ارتكبت من قديم الأزل. تمشي ببطء مستعرضة بصوت خفيض سيرة الإنسان منذ الخطيئة الأولى، ويتيح لي هذا البطء والصوت الخفيض، أن أتأمل الأشكال. طُبعت تلك الصور في ذهني بوضوح كأنها جزء من رواية قرأتها ذات يوم. كان شقاؤها ومثابرتها وهي تصعد السلالم، فيه تقبل للألم ورغبة في التضحية. ضريبتها من المعاناة تبهج روحها. لقد شقت في حياتها ولم تنجب إلا بعد خمس سنوات، ولداً وبنتًا، وكانت

"الجمعية" مكانًا للتضحية، التي لا بد أن تؤديها تكفيرًا عن ذنب قديم. خلاص البشر مرهون بأن يقدم كل فرد نصيبه من المعاناة.

في نهاية اليوم نعود إلى الجمعية لنسدد النقود التي جمعناها. أترك أمي وأنطلق إلى الورش الملحقة بمقر الجمعية. كان المكان ملجأ أيتام، وتلك التبرعات تُجمع من أجل الورش. البنات للأشغال اليدوية، والصبيان لأعمال النسيج. بدأت فتنتي في هذا المكان. لكل إنسان سره الخاص، قد لا يكون سرًا، لكنه يحمله في وجدانه، جوهرة خاصة، حنينًا، صناديق؛ أسميها صناديق داخلية. يشعر المرء طول الوقت بأن هذا السر هو ما يهب حياته معنى، إن باح به فقد كشف عن داخله، لن تصدق هذا. أعرف أن ذلك هو السبب الذي يجعلك تتوقف أمام العاطفة الغريبة في لوحاتي.

كانت ورشة النسيج هي سري. النول الخشبي، والمعلم يجهز الخيوط: "اللحمة" و"السداة"، والصور التي تشكلها ـ بعد ذلك ـ تلك الخيوط. الصور التي كنت أتركها أحيانًا في منتصفها وأعود في اليوم التالي لأجدها سجادة كاملة، كأن ساحرًا أكملها. كان الفارق كبيرًا بين الخيوط الطولية والعرضية والجو المعتم لورشة النسيج، والأيدي الخشنة التي ترص الخيوط، وبين الصورة الجميلة على السجادة. لم أكن أصدق أن تلك الصور المبهجة قد نتجت عن تلك العملية المرهقة طول اليوم. لن أصدق ذلك حتى أشاهد الصورة تتشكل. لم تتح لي أمي أن أبقي، ولو مرة واحدة، حتى أرى

الصورة تكتمل. ظلت الصور الناقصة تؤرقني، وتجعلني أتعجل مشاوير جمع التبرعات حتى أعود إلى ورشة النسيج.

لذلك خلقت أسطورتي. ظننت أن كائنات شفافة تسكن الورشة. في الليل بعد أن يغلقوا الأبواب، تصحو وتبدأ في الرسم والتلوين، في وضع اللمسات السحرية على المفارش والسجاجيد. تعطي للون الأحمر دفأه، وللطيور حركاتها المباغتة أثناء الطيران فتبدو أجمل من الطيور التي تطير فجأة من فوق قبة محطة السكة الحديد. كان ذلك سري، وقد عشته، وهو ما يحيرك، ربما، وأصبحت المشكلة هي كيف أبقى وقتًا أطول، كيف أختبئ في الورشة لأرى الكائنات تستيقظ وتمارس عملها.

ذات يوم اختبأت وراء أحد الأبواب. أغلقوا الورشة والجمعية، وعم الظلام. ودق قلبي بعنف. الصمت له طاقة لمست روحي وأيقظت أخيلتي. رأيت كائنات شفافة مثل الضباب تخرج من مخابئها وتتحرك على أطراف أصابعها. كانت النوافذ عالية ينفذ منها ضوء شحيح وشعرت بالخيوط تتحرك. خفت وصرخت، وظللت أصرخ، أصرخ، حتى جاء عامل الملجأ وأخرجني وأنا في شبه غيبوبة. بعد ذلك رأيت أمي تبكي؛ عيونها محمرة وعرفت أنها بحثت عني في كل مكان.

مرضت مرضًا طويلاً. الخوف مرض لم أشفَ منه حتى الآن. كنت أسمع أثناء الحمى، ترانيم الرقوة وأصوات القسس وأشعر بضباب ساحات

الكنائس، وأمي تحملني على كتفها، وأسمع أحاديث متناثرة عن أن "يوسف" سكنه كائن من الجان. "يوسف" أصبح مسكونًا، تخيل! كلامهم صحيح، منذ ذلك الوقت أصبحت مسكونًا.

لم أشفَ بالكامل، فبعد أن استعدت وعيي، رحت أفكر في إنشاء نول للنسيج في البيت، وبعد محاولات كثيرة تأكدت أن الموضوع صعب. لم أتحمل الفشل، وبكيت ليلة كاملة. لم تفارقني فتنتي بصور السجاد والأكلمة التي تنتجها ورشة الجمعية. لم تكن صور قديسين أو رهبان، كانت صوراً لطيور وحيوانات وأجمات صغيرة، لكن الحس الذي يغلفها لا يمكن الإحاطة به. سحر الألوان هو الذي جعل البهجة تطل من الصور، والبهجة هي التي صانت السر.

لا أعرف متى تشكّلت تلك الصور كسر؟ متى أصبحت رحلات توزيع الوصلات وصور ورشة النسيج مثل النور الداخلي؟ لن تصدق إذا قلت لك إن ضوء الشمس الذي أراه بالوضوح القديم يمنحني القوة. ينير بقعة في كياني. ما الذي جعلني أحبسه كأنه سراج، لو بحت بوجوده سينطفئ؟ وها أنا أبوح به حتى ينطفئ. لقد تعبت من ضوئه الداخلي. تعبت من حصره داخلي. عليّ أن أتركه يضيء مكانًا أوسع من تلك العتمة، ربما كان ضوؤه في الفضاء أكثر بريقًا.

عندما أصبحت في الرابعة عشرة من عمري، بدأت أنوب عن أمي في توزيع وصولات التبرع. كان الناس قد عرفوني، وانطبع تقديرهم لها في

معاملتي. كل مرة يسألون عنها بمودة، ويقولون إنهم سيمرون لزيارتها. تركت وراءها حسًا حلوًا، ومحبة. أذكر همسها، كأنما تحدث نفسها، عندما نقترب من عيادة أو بيت. هذا هو الدكتور منير جرجس، والده كان يعمل في الصاغة وهو رجل طيب، تبرع ذات يوم بأتواب قماش تلف عمارة عالية. هذا محل الريس فريد قضى شبابه في الإسكندرية وعاد من هناك بثروة كبيرة. حكايات صغيرة تبحث عن الجانب المضيء في الناس.

***

يقول يوسف تادرس:

"ماري لبيب" مدرسة الرسم أول حب لي. أرجوك لا تندهش من قصص الحب. أخوك "يوسف" كان يُحب ويُحَب في كل مكان ينزل فيه. هذا قدري. "ماري" تشبه "مريم فخر الدين". شعرها ينزل على كتفها ويلتف لفة صغيرة إلى أعلى. كنت صغيراً، ورغم ذلك أعلنت حبي لها وطلبت أن أتزوجها. ضحكوا جميعًا في شقة خالي "صحي" في البيت القديم. كنت أتكلم بجد وأبكي قالت أمي مندهشة. "يوسف بيحب فعلاً، عيناه حمراوان". لفظ "حمراوان" جذبني. قمت متجهًا إلى مرآة الحمام. نظرت إلى وجهي. عيناي ليستا حمراوين، لكنهما عكرتان. نظر إليّ ذلك الشخص في المرآة المائلة قليلاً باتجاهي، نظرة غاضبة وقال لي شيئًا غامضًا. فهمت على الفور أنني يجب أن أصون أسراري. عرفت أن أمور الحب والعاطفة يجب صيانتها مثل الجواهر. لحظة بسيطة أمام المرآة، لكنها لمحة من الأصوات السائلة التي أسمعها أحيانًا حتى الآن.

ذات يوم أعطتني "ماري"، كراسة رسم، وعلبة ألوان. "ماري لبيب دميان". لن أنسى اسمها أبدًا. سوف أظل أذكر ذلك الاسم الثلاثي، وتطلع من حوافه رائحة شفافة وشرفة المدرسة الابتدائية والشمس تنير أرض

الفناء المفروشة بالرمل. "ماري" تخرج من غرفة الرسم حولها رائحة لن أستطيع أبدًا أن أحددها. ستظل صورة حية، بسمة شفافة، وفستان به خطوط طويلة محبوك على الخصر، وحذاء سمني بكعب رفيع جدًا، ونقر على البلاط لم أخطئ نغمته ولا مرة واحدة. ستظل حية في كياني، وهي تقول: "ارسم ما تشاء، لا تخف، ارسم".

ربما ربطتُ منذ ذلك الوقت بين الرسم وعدم الخوف، وتُرجمت العبارة على مر السنين حتى أصبحت: "الرسم يخلصك من الخوف" سأظل أرسم كلما خفت. سأظل أرسم ما حييت حتى أتخلص من الخوف، الذي كلما تقدمت في العمر، يزيد كثافة وقتامة، وحتى عندما بدأت الهموم تنزاح وسافر "ميشيل" إلى أمريكا، وعمل "فادي" في الصاغة، ولم يعد غيري و"جانيت" وجهًا لوجه، بعد رحلة عاصفة، ظل الخوف يومض هناك خلف الأحداث، كأنه لا يمكن التخلص منه، كأن الخوف هو البطانة الداخلية لقلب الإنسان.

الرسم لا يخلص الإنسان من الخوف، بل يجعل المخاوف هينة، محتملة. من لحظة أن قالت "ماري": "ارسم ما تشاء، لا تخف"، والرسم هو الشيء الطيب في حياتي، ورغم أنني تركته فترات طويلة، فإنني لم أكف لحظة عن الانشغال به، كأن كلمة "ماري" تقودني سرًا. كيف يظل حب طفل لمدرستة كل تلك السنوات حيًا؟ الإنسان عجيب مثل الحياة. لن أكف عن التأمل في صورتها. طبعًا لن أرسمها، إن رسمتها ماتت. إنني أرسم

المخاوف فقط حتى تموت، أما "ماري" فلن أرسمها، إن رسمتها تلاشت وأصبحت صورة. سوف أتركها هناك حية في الوجدان كأنها شمعة على شباك ستنا العذراء، سوف أدعها تحيا ما حييت.

كنت أجلس على كرسي بجوار النافذة أرسم. جاءت مدرسة اسمها "تلة فرج" ونظرت إلى الورقة وقالت: "إيه ده يا ميري.. كل ده شخص". وأشارت إلى الشكل الذي رسمته. قالت ماري: "ششش، اسكتي". وابتسمت لي قائلة: "كمل.. كمل". وجهها يتحرك من أعلى إلى أسفل بود وبسمة متفهمة. بحثت عن هذا الحس في كل مكان. بسمة ودودة تشير لك أن تستمر مهما حدث أكمل ما في يدك. لا معايير هناك. ليس هناك غير أن تكمل. أكمل ما في يدك وسوف تصل. كانت "ماري" تعرف. تلك العيون السوداء الفاحمة المتبصرة المشجعة تطل عليّ كلما جلست لأرسم، تشجعني من ورائي: أكمل لا تخف. لن أطاوع نفسي وأرسم صورتها أبدًا، مهما كان شوقي إليها. لن أرسمها أبدًا.

في المرحلة الإعدادية كرهت الرسم، بسبب مدرس متغطرس كان يسب أهلنا، ويجلعنا ننظف غرفة الرسم، ونرص الألوان كل شيء لا بد أن يخضع للنظام، وغرفة الرسم في نهاية المدرسة لا بد أن تكون مرتبة، حتى تكون جاهزة عندما تحين زيارة المفتش. لكن رغبتي في تشكيل المخاوف صورًا لم تكف عن التحول وسلكت طرقًا أخرى. بعد أن أعود من رحلة توزيع الكوبونات، أشغل نفسي برسم السجاجيد، وصناعة صناديق من الخشب، ومن الجص أصنع مسدسات، وغيرها من الأشياء التي كانت

تستهلك رغبتي في إنتاج الصور. تلك الفترة من التوقف عن الرسم صعبة، أذكرها على شكل صيف متصل، زهق وزعيق وحس بأنه لا يمكن للمرء أن يعمل أي شيء غير أن ينغمر في حياة الزقاق.

***

يقول يوسف تادرس:

كانت أمي تقوم من النوم في السادسة صباحًا، قبلنا جميعًا. أبي نائم فى الغرفة الداخلية، وأختي "نادية" تتململ على فراشها، كأنما شعرت بأن أمها غادرت البيت. أشعر بها تفتح الباب وتخرج. صوت الباب في ذلك النعاس الطيب في شهور الشتاء، له أثر مهدئ، ومنبه في نفس الوقت؛ إنها مستيقظة، نفَسها في الحياة، وذاهبة لتأتي بالفول والبليلة وجرنال الأخبار ومجلة "صباح الخير".

تعلقت بمجلة "صباح الخير". أحببت الرسوم الرشيقة المرحة للباد والبهجوري وبهجب، والليثي، وغيرهم من الرسامين. من بينهم تعلقت بجورج البهجوري. كنت أنتظر رسومه وأظل وقتًا طويلاً أفحصها. كنت أريد أن أرسم مثلهم، وذات يوم قرأت جملة أمدتني بطاقة هائلة: "جورج البهجوري يرسم من باريس". انظر. هذه الجملة فعلت فعل السحر: "يرسم من باريس". حس دافىء ومشرق، يغمر الحياة هناك في الجانب الآخر. ما هذا؟ لوحة مرسومة في باريس، مليئة بالدفء والشمس والتسكع. تفتح الأمل من هذه الجملة. متى يقال "يوسف تادرس يرسم من

باريس" . هل سيأتي هذا اليوم؟ كان ثقتي في نفسي كبيرة، وحسي بأن الحياة سوف تعطيني ينمو معي، خاصة عندما ألاحظ ميل البنات إليّ.

بدأت الرسم مرة أخرى متخيلاً مقاهي باريس التي يرسمها جورج. رسمت الرسوم التي رسمها كأنني هو، كأنني أعيش في باريس. درس في التماهي سوف يساعد، بعد ذلك، في فهم الأشياء، في فهم روح الكراسي والمناضد والأحجار والنوافذ. وسوف تكون لي روابط سرية بالأشياء منذ تلك اللحظة. سوف أصاحب المصابيح والأكواب والزجاجات الفارغة والفازات الصغيرة، وما يطلقون عليه في الرسم "الطبيعة الصامتة". لماذا يقولون إنها صامتة؟ لو تعرف كيف أثار تعجبي هذا التعبير عندما سمعته أول مرة. طبيعة غير متكلمة وطبيعة متكلمة. أحببت من بينهما الطبيعة الصامتة، وأنت ترى أنني أرسم أحلامي حتى بعد تلك السنوات. رسومي هي أحلام تغمرني أثناء يقظتي.

بعد قليل من رسم الناس على مقاهي باريس، رسمت صورة "جورج البهجوري" نفسه، وأرسلتها بالبريد إلى مجلة "صباح الخير". بعد أسبوعين وجدت رسمي منشوراً في ركن الرسام الصغير وتحته اسمي. غمرني السحر والتعجب، لم أكن أتوقع هذه اللفتة. ناديت أمي: "شوفي لوحتي!!" تهلل وجهها الأبيض وقبّلتني، والدموع تطفر من عينيها. هذه اللفتة منحتني ثقة أكثر، ورسخت حسي بالتميز. الدموع اللامعة في عيني أمي وجهت تفكيري دون أن أشعر تجاه مسئوليتي. رحت أبحث عن موضوعي الخاص،

وأنشأت كراستي وكتبت على صفحتها الأولى: "يوسف تاردس يرسم من شارع غياث الدين". رحت أرسم المنجد، وسمكري البوابير وعم عدس بائع الفول، وكل من أقابله. ربما في يوم الأيام أرسم من باريس. كانت الصورة محفزة ورغبتي في الرسم تجتاحني كأنني سوف أصل باريس غداً. حس طازج بالحياة يدب في أصابعي لم تكن الصور مشابهة لأصحابها تمامًا، لكنها تحمل حسًا طيبًا، فيها مرح وحس طفولي جاء من تعاطفي مع من أرسمه.

في شارع "غياث" كانت أطر النوافذ والأبواب من الجبس، وعندما تسقط بعض القطع تكون خامة لصناعة تماثيل صغيرة؛ فتيات وخيول وفرسان؛ كائنات لها طابع عرائس المولد. ألتقط قطع الجبس كأنها كنز، وأنحت منها صوري بسكين قديم ومسمار؛ أدوات النحت البدائية. رحت أخلق عالمي، من المخلوقات، صنعت ذات يوم مسدسًا صغيراً، أعجب أصحابي وراحوا يساوموني عليه، صنعت غيره وغدا لعبتنا المفضلة.

بسبب النحت والرسم أصبحت لي مكانة بين رفاق الطفولة في الحارة والشوراع القريبة، لا يلعبون إلا بعد أن يمروا عليّ، وعندما أصبحنا في سنة ثالثة إعدادي كانوا يقفون على باب الزقاق في المساء ويناديونني لأذاكر معهم في بيت "السيد البهي" على الناصية. ندخل من الباب الخلفي في الحارة وليس من الباب الرئيسي في شارع "غياث الدين"، ونعبر الجنينة الواسعة التي نشفت نباتاتها، ونذاكر في الغرفة الصغيرة في الجنينة. نسهر حتى تنتهي

آخر حفلات السينما، ونسمع صخب الخارجين ينتشرون في الشوارع. نزهق من الغرفة، ونخرج لنجلس تحت عمود النور في الشارع، نذاكر ونتحدث. وعندما يبدأ الليل في الرحيل والسماء تصبح بعيدة وتظهر فيها أطياف زرقة خفيفة، يقترح أحدهم أن يصلوا الفجر في السيد البدوي.

الشوارع ساكنة. الأصوات ترن. نور الفجر يتأكد على شكل ضباب شفاف. عندما نصل ميدان الساعة، غالبًا ما أقترح أن نمشي في سكون شارع البورصة ثم ننحرف يمينًا في درب الأثر. أضواء باهتة تأتي من بيت مفتوح تُرك مصباح مدخله مضاء. عربات كارو مركونة على جوانب الطريق تميل بأذرعها الأمامية تجاه الأرض كأنها كائنات متعبة نائمة. أبواب المحلات الخشبية مغلقة بحديدة مائلة يلمع وسطها قفل من النحاس الأصفر. في الغالب هناك قطط تقطع الطريق من جانب إلى جانب. الشارع له حضور مغاير لصخبة أثناء النهار، برائحة التوابل ومحلات العطارة والحبوب. نصل إلى ساحة المسجد الأحمدي يكون الضوء قد انتشر فيه لون فضى لامع، يقول "السيد البهي" مازحًا:

"تعالَ صلِّ معنا".

أقول له:

"سلِّم لي على التمساح".

وانتظرهم على الدرج الرخامي حتى يخروجوا من الصلاة.

في ذلك الوقت لم أكن أميز اختلاف الدين إلا على أنه اختلاف الملامح والعائلات والأسماء، لا يمكن أن يكون للناس نفس الاسم أو الملامح، وهكذا الدين. في يوم الجمعة عندما كنا نتسلق سور بيت الدكتور مرقص لنأتي بالتوت، ونستغرق في اللعب حتى وقت الصلاة، كنت أريد أن أذهب إلى جامع عزيز فهمي لأصلى الجمعة معهم، أيامها اخترع "السيد البهي" قصة ملحضها أن هناك فسقية كبيرة داخل الجامع، فيها تسماح كبير يعرف المسيحيين من رائحتهم ويلتهمهم. في كل مرة كانوا يدخلون للصلاة كنت أنتظرهم، متمنيًا أن تتاح لي فرصة أن أرى الفسقية والتمساح مثلما كنت أريد أن أرى الكائنات التي تكمل رسوم السجاد في ورشة النسيج.

***

يقول يوسف تادرس:

أبي حكاية كبيرة، كان معتزاً بنفسه ينطق اسمه بفخر: "الخواجة تادرس بشرى"، ولأنه لم يكن يحسن القراءة والكتابة فقد كان يشعر بالخجل، واجتهد حتى تمكن من كتابة اسمه بدقة وعناية. يسحب نهاية حرف الياء لكي تحيط بالاسم على شكل دائرة؛ ربما لأن العقود أمر مهم، واسم المرء الموقع في نهاية الوثائق خطر، لذا انصب اهتمامه من اللغة المكتوبة على كتابة الاسم. الاسم صورة المرء على ورق رسمي. لا بد أن يكون المرء واعيا لتلك النقطة، يجب أن ينتبه، صحيح أنه كان يقرأ قليلاً في الصحف إلا أن المهم أنه كان قادراً على كتابة الاسم بالدقة المناسبة للتوقيع.

كان يخجل من فكرة الختم، أو البصمة، ويقول بنوع من التردد: "صحيح أنا تعليمي بسيط، لكني مش بصمجي". وعندما يسخن النقاش بينه وبين زملائه من تجار الحبوب، يقوم مستنداً بذراعيه على المكتب، ويقول بفخر: "الخواجة تادرس لا يعمل العيب". يقول ذلك وهو يشعر بأن اسمه وحده كفيل بعصمه عن فعل النواقص، ينطقه في تلك اللحظات بنبرة رخيمة كأنه يوقع ويلف حرف الياء حوله.

في الوقت الطويل الذي يقضيه في المحل، يحافظ على أن تظل الجريدة مفرودة، أمامه على المكتب، ينظر فيها، تلتقط عيناه كلمة من هنا، وكلمة من هناك، ويشعر بالزهو عندما يدخل أحد التجار ويجده فارداً الجريدة. يقوم من فوق الكرسي، ويعدل طوق جلبابه الصعيدي وغطاء الرأس المكون من طاقية من الصوف ملفوفة بشال أبيض، ويمد يده مرحبًا بالضيف.

في طفولتي كنت أذهب إلى المحل، الذي كان يسميه "الوكالة"، يوم الجمعة، أساعد في العمل أثناء التزاحم بعد الصلاة على شراء العدس والفول والحمص. أعاين زواره من أعيان الريف. أيام المولد والأعياد صاخبة، لا بد أن أقضي الوقت هناك. الشخطة من الخواجة تادرس تلزمك مكانك، وتسيب مفاصلك. أقف مع العمال على الفرشة وأبقى حتى يأذن لي بالانصراف. كان فخره في محله، لأن أعيان الريف كانوا يثقون به، ويتركون عنده أماناتهم دون تردد، لكن بصره راح يضعف وبدأ يسلم نفسه لفُتنة أختي الكبيرة.

تحت سطح زجاج المكتب بعض قصاصات الجرائد. نعي الأسرة في الصعيد، والأقارب في الإسكندرية. لم يقطع صلته بأهله. كل عام لا بد أن يذهب إلى الصعيد لكي يتفق على التمر والحبوب، ويحيي الرابطة التي لا يجب أن تموت مع الزمن. أطلعني ذات يوم على صورة قديمة تحت زجاج المكتب وسألني: تعرف مين ده؟ في الصورة عسكري أجنبي بلباس الجيش ورجل قصير نحيل عاري الرأس يلبس جلبابًا بلديًا يقف بجواره. قال عندما

وجدني صامتًا: "أبوك تادرس بشرى"، وأخبرني بأنه عندما ترك الناس الإسكندرية في الحرب العظمى، لما كان الألمان في العلمين على أبواب الإسكندرية، راح هو هناك وكوّن الثروة التي افتتح بها الوكالة.

في كل مرة يراني أرسم، يغضب ويشير إلى أنني لا بد أن أتعلم القراءة والكتابة، وأذاكر حتى لا أخيب مثل أولاد أختي فُتنة. كان يظن أن الكتابة والقراءة هي نور الحياة، وليس الرسم. الرسم لعب عيال. كانت خبرته تقوده، ففي الإسكندرية أثناء الحرب العظمى انتبه إلى أن الكتابة أمر مهم، عندما ذهب ليعمل في الكامب الإنجليزي، قال له العسكري: لن تصلح للعمل معنا حتى تعرف القراءة والكتابة. يومها ذهب إلى ابن خالته في محرم بك، وقضى ثلاثة أيام بلياليها، لا ينام، يحاول تعلم الكتابة. فشل، ورجع إلى المعسكر مرهقًا وحكى للعسكري الإنجليزي ما فعله، فضحك من سذاجته وشغّله في المعسكر على ألا يتوقف عن تعلم القراءة والكتابة. لم يكن يعرف أن تعلم القراءة والكتابة صعب إلى هذه الدرجة. منذ ذلك الوقت يشعر بتوقير لكل من يقرأ ويكتب وبخاصة العلماء الذين يقرأون الكتب المعقدة. سهّل له العسكري العمل في بيع مخلفات الكامب. بعض العمليات الصغيرة سمحت بتكوين مبالغ، في ذلك الوقت كانت ثروة. انتهت الحرب. عاد إلى طنطا وهو يشعر بأنه الآن أصبح الخواجة "تادرس بشرى"، على سن ورمح.

أحيانًا يثبت نظره على تلك الصورة ويمصمص: "أيام الشباب". يظن أنه أنجز ما لم ينجزه أحد. في الحقيقة لم يكن قد سافر إلى الإسكندرية مختارًا، كما عرفت بعد ذلك من "فُتنة". كان رحيلة هربًا من حزنه على غرق ابنه "ميشيل" في النيل أثناء مولد السيدة العذراء في المنيا، ثم موت زوجته الأولى إثره. بعد ذلك بعام جاء إلى طنطا ليقيم عند خاله وبصحبته "فُتنة" التي كانت في السابعة من عمرها. رفض أن يصحبها معه إلى الإسكندرية. الدنيا خطر، يجب أن تبقى في بيت خاله حتى تهدأ الأحوال. عاد بعد عدة سنوات. فتح المحل واشترى بيتًا بملحقاته في الزقاق الذي نسكنه بالقرب من شارع غياث الدين. كانت "فُتنة" قد كبرت، وأصبحت رفيقته ومدبرة أحواله، وعندما جاء أوان زواجها بكي، مثل الأطفال؛ فلم يكن يتخيل أن يعيش وحده بين أربعة جدران.

انشغل في تجارته، وسفره إلى البلاد لشراء المحاصيل، كأنه يهرب من وحدته في البيت. فكرت "فُتنة" في ذلك الوقت أن تزوجه. كانت تعرف عناده، لكنها تعرف نقطة ضعفه. قالت له وهي تحاول إقناعه بالزواج: "أولا ست بيضاء، ثانيًا تقية، ثالثًا تعرف القراءة والكتابة." قال بصوت خافت وهو يرفع وجهه: "صحيح تعرف القراءة والكتابة؟" ثم صمت وطوح رأسه وعرفت "فُتنه" أنه وافق.

تزوج الخواجة تادرس مرة أخرى، وهو في الخامسة والأربعين، وعندما وُلدت كانت مشاعره مختلفة عن مشاعر أمي. لم يكن يقترب مني أو يتحدث

معي. كان تعامله معي غريبًا، لكنني أعرف الآن أن مشاعره نحوي سيطر عليها الخوف من الموت. قالت لي فُتنة إنه عندما سمع بكاءك لحظة الولادة غام وجهه كأنه سوف يواجه نفس الألم مرة أخرى، لم يكن يريد أن يجرب الوهن في العظم والضعف في العزم الذي تسببه الأحزان. لم يكن يقترب مني ولم ينادني باسمي، كان يقول "الولد"، وتركني بالكامل لتربية الست "أم يوسف" كما كان يناديها.

تصرف معي عكس ما توقع الجميع، وكانت "فتنة" تمازحه: قلت لك الرب لن ينساك. لقد عوضك وزد إليك عطيته، فيرد عليها بغضب: "بطّلي كلام النسوان الخايب". تضحك مدركة غضبه المفتعل. هي الوحيدة التي يمكن أن تدعي أنها ترى ما في قلبه، لكنها بسبب صلابته وطرقه المتقنة في إخفاء مشاعره، بدأت تصدق أنه لا يشعر بأخيها الصغير. أثار ذلك فخرها بنفسها، فرغم أنه رزق الولد الذي تمناه، غير أنها ستظل الحبيبة بنت الحبيبة.

كان يحمي نفسه من حنان القلب الذي يجب تركه للنسوان، لكن القلق لم يفارقه، كأنه يعرف مقالب الدنيا ولا يصدق زهوتها، حتى جاء اليوم الذي أخبروه، وهو واقف على باب الوكالة بأن يوسف دهسته "عربية نقل" في شارع النحاس يومها حط الضباب على عينيه. جاءت اللحظة التي خاف منها طويلاً. سمع صوت "صادق" عامل المحل يقول: "تعالَ يا سيدي نوصل لحد المستشفى". لكنه لم يكن قادراً على المشي. جلس على الكنبة الخشبية الملاصقة للباب وقال بصوت استغربه العامل واستغربه هو نفسه:

" طمني على أم يوسف " .

تحول ضحى تلك الجمعة إلى مغرب، وبعد ذلك عندما كانوا يناكفونه، ويسألون عن حادثة "يوسف" وهو صغير، هل كانت في الظهيرة أم في المغرب. يصر على أنها كانت في المغرب. يضحكون، فيسبهم ويقول إنهم بقر لا يعرفون الضحى من المغرب. لم يكن يمزح ولا يشك مطلقًا بأن الحادثة كانت في المغرب رغم أنها حدثت ظهر الجمعة. يسبهم ويقول إنه يرى أحسن منهم، إنهم هم العميان.

ذلك الضباب الذي نزل على عين أبي، كان من وجهة نظره مجرد أمر عارض، وعكة قصيرة وسوف تنتهي، وانتظر طويلاً أن ينزاح الضباب وتنكشف الأشكال ويعود إليها بعض وضوحها. لكن ذلك لم يحدث، ولكي يؤكد لنفسه ولمن حوله بأن بصره سليم، كان يخرج كل صباح من البيت متجهًا إلى الوكالة، ماشيًا في الضباب مصرًّا ألا يعتمد على أحد، مقتنعًا بأن الضباب سوف ينقشع، لكنه ذات يوم شعر باضطراب، وبدت الشوارع مهتزة وأدرك أنه لن يتمكن من الوصول وحده فقال بتمثيل غير متقن:

" وقّفي لي حنطور يا أم يوسف يوصلني للوكالة " .

منذ ذلك اليوم راحت فُتنة تترك فرشة الحمص بجوار السيد البدوي، وتأتي من هناك لكي تصحب أباها إلى الوكالة، تحمل له الغذاء في المساء

وتتحدث معه عن تعبه، وتشير عليه أن يصفي التجارة ويستريح، ولأنه كان مناكفًا فقد كان يصمت ويقول بجدية تخرسها:

" أنتِ طمعانة في يا فاتن؟ " .

وعندما ينطق اسمها الأصلي تعرف مزاجه فتكف عن الحديث.

***

يقول يوسف تادرس:

هذا يوم صعب لا يمكن أن يمر هكذا. لن تفهم حكايتي دون أن أصف لك يوم الحادثة. اسمع. الإنسان شبكة من الخيوط. كثيراً ما أتأمل حياتي، لقد جئت مرتبطًا بطفل غرق في النيل قبل مولدي بسنوات، وبأب يشعر بنقص تجاه من يكتبون ويقرأون ويفخر بنفسه ويحبس مشاعره في قلبه، وأم أرادت أن تهب نفسها للرب. كل هذه الخيوط السرية تتجمع وتشكل أخاك يوسف تادرس. هذه الخيوط غير المرئية هي أنا، تقودني سراً، مثلما قاد حياتي الخوف غير المرئي الذي ولد يوم الحادثة وظهر بعد ذلك بسنوات في رسومي.

تمنيت أن أرسم رعب يوم الحادث حتى أتخلص منه. لكن هذا أمر مفتعل الرعب أصبح صديقي، يلاعبني. يختفي ويظهر، وفي بعض الأحيان يبدو لي أنني تخلصت منه، لكنه هناك لا يموت، حتى اكتشفت أنه يظهر في عيون القطط التي أرسمها. مواجهة الموت أمر مهم، لا بد أن يتعرض له المرء ولو مرة واحدة، حتى يفهم معنى الحياة. مواجهة الموت مثلها مثل حلم البعث، تقربك من الحافة، وتدعك تنظر في الهوة.

أنت تعرف دراجات الأطفال ثلاثية العجلات. على ناصية شارع "غياث" كان "عم رزق" يؤجر تلك الدراجات ويأخذ رهنا، حتى نعيدها سليمة. يومها أجرت واحدة ورحت أتسابق مع العيال. كانت الشوارع وقتها خالية. حدث هذا في الستينيات. خرجنا إلى شارع النحاس. الهواء البارد يطس وجهي. كنت مغرما بعمل حركات، مثل أن أترك الجادون وأرفع يدي عاليًا، أو أضع أصابعي في فمي وأطلق الصفير المعتاد لنا. رفعت عيني إلى الطريق. رأيت وحشًا قادمًا. لا تنظر إلى هكذا. فعلا رأيت وحشًا قريبًا جدًا مني. أنت تعرف عربات النقل القديمة. كان لها "بوز" وشكلها مثل "البعو". رأيت الشيطان في تلك اللحظة. أخيرًا بدأ الهواء يخف. كنت أريد أن أقاوم الوحش، لكنه هجم عليّ قبل أن أتمكن. انتهيت، مت. أنت ترى آثار الجراحة. هذا الخط الطويل على جانب الوجه. يبدأ هناك من منبت الشعر فوق الجبهة. كان عمري سبع سنوات، الكسور التأمت وهذا الخط الطويل في الوجه لم يعد ظاهرًا بشكل لافت، أصبح كما ترى، كأنه تجعيدة من تجاعيد الجبهة، ولكنّ هناك شيئًا في الروح احترق، لسع، كما يقول الشباب الآن.

سأقول لك ما أعتقده بعد كل تلك السنين. أظن أن الحادثة أحرقت مركزًا من مراكز المواجهة. هناك نوع من الخوف سكن الداخل، كأنه جزء من اللحم، يكسو الروح مثل طبقة زيت لامعه. أشمها، صدقني، أشمها كلما حدث شيء مباغت؛ شممتها كثيرًا، عندما كنت أركب القطار ذاهبًا

إلى التدريس في مدرسة كفر الزيات. الرسم أنقذني من تلك المخاوف. تأمل القطط في رسومي ستعرف مقدار الرعب الذي أحكي لك عنه.

أشم رائحة الخوف هذه الأيام كثيراً، كلما صعدت الأتوبيس ووجدت عدد المنقبات يزيد، كلما سمعت نباح كلب، يحيط بي الخوف كمناخ لا ينفصل عن الملامح وحركة اليد ونبرة الصوت. أتعرف النبرة التي أقول لك بها "مع السلامة ياحبيبي"؟ إنها من الخوف، (محاولة بائسة للتقرب من الناس، وأيضًا زائفة، لأنها رجاء وليست رغبة حقيقية في القرب) سأقول لك ما هو أعجب من ذلك. عيناي كانتا خضراوين مثل عيني أمي، لكن الآن انظر، لم يعد لهما لون محدد. تحار في لونهما هل هو أخضر أم رمادي. الطيف الرمادي جاء مع الحادثة. أنت تقول إنني ظننت أنني قد مت. لا، لقد مت فعلاً، وبعثت مرة أخرى حلمت كثيراً بتلك اللحظة وكل مرة أحلم بها، أقوم من النوم راغبًا أن أرسم الحلم، لكني لا أتمكن، إنه يتسلل ويسكن الرسوم جميعها. ابتلعني الوحش في جوفه، وعندما عدت إلى الحياة بعثت من جوف الخوف. إنني ابن خوف، وربما سأظل خائفًا على الداوم. لا تقلق، لقد اعتدت مخاوفي وصاحبتها مثل حيوانات صغيرة مسلية أجدها تداعبني وتنظر إليّ من داخل صوري.

حكوا لي بعد ذلك أن أمي كانت تأخذ حمامًا، خبطوا على الباب وقالوا لها: "ابنك يوسف خبطته عربية". في تلك اللحظة طقطق شعرها جذور شعرها جفت. لبست هدومها على العري وجرت. بعد أن عادت من

المستشفى رأت بالصدفة وجهها في المرآة. شعرها تحول إلى اللون الأبيض، أما عمنا الخواجة تادرس، فقد حط الضباب على عينيه، ولكنه بسبب الكبرياء لم يعترف أبدًا بأن تلك الحادثة هي التي جعلته بعد ذلك غير قادر علي إدارة تجارته، حتى جاء محضر ذات يوم يطلب الحجز على المحل.

تبدلت الدنيا بسبب صدفة. يومها جاءت "فُتنة" من ميدان السيد البدوي، جريًا، وفي يدها طرحتها. أعطت المُحضر خمسة جنيهات وأوقفت الحجز. بعد يومين اصطحبت أبي، وأجلسته مكانه على المكتب، وأمسكت الولد "صادق" عامل الوكالة من طوق القميص، ومن غير كلام، ضربته بالروسية فتحت له دماغه. راح الدم يشر من رأسه على يدها التي تقبض على طوق قميصه. جرّته إلى وسط الطريق وهو تقول بصوت عال: "يا خاين يابن الخونة تعضّ اليد التي أطعمتك. لا انت ولا التعبان اللي وزّك ستتمكن من الوكالة".

المديونية المطلوب سدادها ألف جنيه. في هذا الوقت كان مبلغًا كبيراً جدًا. هل تعرف أن كيلو اللحمة في وقتها كان بخمسين قرشًا؟ عند المحامي عرفت المؤامرة التي كان ينسجها "صادق" مع تاجر آخر لأخذ المحل، وكان توقيع أبي الذي يشبه الدائرة موجودًا على وصل أمانة. في اليوم التالي جلست على المقعد أمام المكتب، وقالت لأبيها: "أنت وقّعت على وصل أمانة؟"، رفع وجهه وقال: "أنا وقّعت على وصل أمانة؟ أبدًا". قالت: "لكنه توقيعك بالضبط وخطّك، رأيت الوصل بنفسي. الخالق الناطق

خطك" . صمت منصرفًا بوجهه عنها. كان يعرف أنه لم يوقّع على وصل أمانة، وظل هذا الأمر يتعب قلبه. ارتبكت حياته ولم يعد قادرًا على التفكير. المشكلة بالنسبة لأبي لم تكن الألف جنيه، لكن من يستطيع أن يقلد هذا التوقيع الذي ظل يفخر به طول عمره؟ لأول مرة تنحدر ثقته في نفسه إلى هذه الدرجة. سلم نفسه لكف فاتن في ذلك اليوم وتركها تغلق المحل، وتصحبه إلى فرشة الحمص في الجهة الأخرى من الميدان.

أرسلت "فُتنة" مرسالا، تطلبني، لأصحب أبي إلى البيت. رفض في البداية، أن يتعلق بذراعي، لكن عندما مشيت بجواره استند على كتفي. لأول مرة نتقارب بهذا الشكل. قطعنا الطريق من درب الأثر حتى ميدان الساعة. كان قد أصبح نحيلاً وقصير القامة، بدرجة جعلتني أشعر بأن تقلص في تلك السنوات التي تفصل نزول الضاب على عينيه وظهور وصل الأمانة. سنوات قليلة جعلته مرهقًا. في الميدان الخالي، في تلك الليلة الصيفية، سمعنا صخب رواد السينما خارجين من الحفلة الأخيرة. أصواتهم عالية ونحن ندخل شارع عزيز فهمي. لاحظت أنه يتمتم بشيء. كان يحدث نفسه ناسيًا الصبي الصغير الذي يقوده: "اجمد يا تادرس، ليس أنت من يكسره مديونية بألف جنيه" . كان هو الذي يقودني الآن، عندما حاولت أن أمشي من شارع طه الحكيم، قبض على كتفي وقادني إلى الأمام، وواصل تمتمته. عندما وصلنا إلى الزقاق لم يستطع أن يدخل البيت قال: هات لي

كرسي يا يوسف يا ابني. أول مرة أسمعه ينطق اسمي: "يا يوسف يا ابني".

جلس على الكرسي أمام البيت، وواصل همسه لنفسه، كانت ذروة أزمته؛ لن يوافق مهما حاولوا إقناعه أن يعود مرة أخرى يحمل خاتمًا ويربطه بدوبارة في جيب الصديري. لكن لا تجارة، بالنسبة له، من دون توقيعه. بدأ يشك في إمكانية الاستمرار في التجارة. انتهى أبي عندما انهارت ثقته في توقيعه.

ظل يخرج من البيت كل صباح، متعاليًا، راغبًا في أن يعتمد على نفسه. يساعده ضوء النهار على تبصر طريقه، في الشوارع والأزقة التي يعرفها شبرًا شبرًا، يساعده عمال الوكالات القريبة في فتح محله، والجلوس هناك، وتأتي فاتن جريًا من الميدان: "وبعدها لك يا خواجة، اسمع، صفي التجارة وتعالَ اشتغل معنا، أنا وجوزي". ويرد عليها نفس الرد الذي ظل يكرره كثيرًا: "جوزك طماع يأكل فلوسي ويغمس بي". كان عليه أن يقرر في النهاية أن يتوقف عن تجارته وينفذ ما تلح عليه فاتن. أخيرًا استسلم لقدره وقال بصوت خفيض:

"فُتنة عندها حق".

***

يقول يوسف تادرس:

الزقاق الذي تربّيت فيه يشبه الحوش. مقفول على نفسه، اشتراه أبي في نهاية الأربعينيات. بيت بملحقاته، استعمله في تخزين البضائع، ثم بدأ يؤجر الغرف لأسر صغيرة. أصبحت كل غرفة بيتًا مستقلاً، لكنه احتفظ بسمت البيت الواحد؛ أهل الزقاق أسرة واحدة مركزها بيت الخواجة تادرس. ولدت في هذا المناخ. تقول أمي إن النساء كن يخطفنني وأنا طفل وفي آخر النهار لم تكن تعرف من أي بيت تجيء بي. هذا ما لا أعرفه من سيرتي. وما لا أعرفه قد يكون أبعد أثرًا في تكويني مما أعرفه وأحكيه لك. في كياني صهد وحنين غامض، لكن على العموم، لكل واحد منا جنته المفقودة.

كانت تسكن الغرف الملحقة بالبيت عدة أسر: صالح النجار، كان متطوعًا في الجيش، وامرأته من العجيزي، محبًا للنساء، وعنده مكتبة، كلها كتب دينية ويعلق صورة تجمعه مع الشيخ الشعرواي في مواجهة الباب. أرسل خطابات كثيرة إلى الإذاعة، يطلب أن تزوره المذيعة "نادية صالح" وتسجل معه حلقة من برنامج "من مكتبة فلان". مقابل غرفته تسكن "زينات" زوجة حسنين السمكري، امرأة جميلة، جسدها مفصل، تقضى الوقت بالقميص الداخلي غير عابئة بأن يراها الناس من نافذة الغرفة.

يعاكسها صالح، ترد عليه: "لو كنت آخر الرجالة". أو "أنت مقشف يا واد". كان يسكن أيضًا في الزقاق الحاج ابراهيم وزوجته وبناته، "أم سمرة" وأولادها الأربعة، و"أم بيسة" وزوجها سائق العربية النقل.

كانوا يعيشون في الزقاق كأسرة واحدة. عندما يدخل بائع الكابوريا بمشنته على كتفه، فإنه لا يخرج بشيء منها. تتجمع النساء تأخذ البيعة كلها، وفي العصر تخيم على الزقاق رائحة سلق الكابويا المشبع برائحة الكمون. ذات يوم في العصر، أثناء الصيف، فكّرت "زينات" في استعمال حبل الغسيل الموجود وسط الزقاق مثل شبكة الكرة الطائرة. تجمعت ثلاث نساء وأخذن كرة بلاستيك من ولد صغير، وبدأ ماتش كرة طائرة. انتشرت بهجة شفافة في المكان، عبت ومزاح وضحك من القلب. عندما أستعيد المشهد يطن قلبي. كنت أجلس على حافة نافذة أم بيسة أشاهد الماتش، والنساء أمام الأبواب تتمايلن من الضحك.

جو الزقاق ساعدنا، عندما وصلنا مرحلة البلوغ، على معرفة أسرار العلاقة بين الرجال والنساء دون مخاوف أو عقد. الحياة المفتوحة سمحت لنا بتجريب بعض الأمور البسيطة غير المؤذية. بصراحة أشعر أن جو الزقاق كان مبطنًا بحس جسدي ثخين. كنا نعاين التوترات الجنسية منذ بدايتها، ونطلب بوسة أو حضن علنا، ويتسلل بعضنا لكي يراقب امرأة وهي تخلع ملابسها، وفي الليل يصلنا الهمس من الغرف القريبة: التمنع والمفاوضات والشهقات الصغيرة وكلمات المواساة بعد الخيبة.

ذات يوم كنت أذاكر مع العيال فوق السطوح، وطلعت "زينات" لكي تحطّ طعامًا للبط. كانت تلبس الكمبليزون على اللحم. هاج الولد سيد عثمان. وراح يهمس ويعضّ على شفته السفلى، ويشير لها. أنا متأكد من أنها شعرت بنا، لكنها لم تنظر إلينا. ثم كانت المصيبة. قرفصت لكي تضع الأكل للبط، فبان كل شيء. كانت من غير "كلت". يا خبر!! إنها متعمدة أن تثيرنا، همس الولد، وراح ينطق باسمها ويطلق تنهيدات مسموعة، ونحن نضحك، لكن زينات لم تعبأ بنا. راحت تحدث البط دون أن تنظر إلينا. لم يتحمل سيد عثمان المنظر، فوقف بجانب عشة الفراخ، وأخرج ذكره وراح يمارس العادة السرية. ضحكنا من خفته، خاصة عندما قامت زينات لتنزل ونظرت الينا وابتسمت.

هذا المناخ أتاح لنا أن نتشارك الحياة تقريبًا. الأبواب مفتوحة يمكن أن تدخل من أي باب وتأكل في أي مكان، وفي المساء تمتلئ صالة بيتنا بالنساء والبنات والأولاد لمشاهدة المسلسل أو برنامج "من أغاني الأفلام"؛ فلايوجد تليفزيون في الزقاق غير تليفزيون بيت الخواجة تادرس. ينام الأطفال وتمضي بعض النسوة إلى بيوتهن، تبقى أحداهن تسر إلى الست أم يوسف بحزنها أو مخاوفها أو تطلب المشورة. كانت أمي تواسي وتطيب الخواطر وتضرب الأمثلة من الأفلام والمسلسلات. لقد عضد التليفزيون مكانة بيتنا في الزقاق.

يوم التنحي في يونيه ١٩٦٧، كنت صغيراً، وكان الزقاق كله موجوداً في الصالة، من أول العيال حتى الرجال الكبار الذين لم نكن نراهم تقريبًا إلا

أيام الأجازات؛ فهم يخروجون في الصباح الباكر ولا يعودون إلا آخر الليل كان التليفزيون في الصالة، ولم تكن الشاشة واضحة بسبب ضوء النهار، الذي يأتي من بير السلم. قام أبي ووضع بطانية على الباب، حتى لا تنعكس الأشعة على الشاشة، وجلس يومها غاضبًا، وعندما قال الرئيس بأن يتحمل المسئولية وأنه يسلم البلاد إلى "زكريا محيي الدين"، صوتت النساء. قام من فوق الكنبة وشخط فيهن، وقال للحاج ابراهيم: "وده اسمه كلام؟ يمشي ويروح فين ويسيب العالم دي؟" لم أعرف هول الأمر على الناس إلا من حكاية أمي عن أبي الذي خرج في هذا اليوم غاضبًا، وذهب إلى محل شمحوط وشرب ربع جن، وعاد آخر الليل يتطوح. لم يفعلها في حياته إلا في ذلك اليوم.

كان أبي يشعر طول الوقت بأن الزقاق ملكه وأنه سيد الحتة، لكنه لم يكن يتواجد في البيت إلا فترات قصيرة، فأغلب الوقت يقضيه في الوكالة، لكن عندما هبط الضباب على عينيه، بدأ يقضي وقتًا طويلاً، جالسًا على كرسي خشبي، راكنًا ذقنه على عصاه، بعد أن صفى تجارته واشترك مع فاتن وزوجها في تجارة الحمص.

في الصباح يجلس منتظرًا أن ترسل "فاتن"، واحدًا من العمال، أو أحد أبنائها يصحبه إلى الفرشة. كان قلق "فاتن" على أبيها قد زاد؛ فلم تعد الطرق آمنة، وكثرت السيارات، وأصبحت تقطع الشوارع بسرعة شديدة، وانتشرت الحوادث، ونبهت علينا جميعًا أن نحرص على ألا يمشي وحده،

لكن كبرياء الرجل العجوز لم يمت؛ فهو ينتظر صامتًا فترة طويلة حتى تأتي لحظة معينة، ينظر أهل الزقاق فيجدون الكرسي خاليًا، فقد قام ومشى وحده، مستعينًا بالرب وأخذ يقطع الطرق بتمهل ويقظة حتى تراه "فاتن" صاعداً من شارع "عمر سعفان"، فتجري تقابله وتلومه لأنه لم ينتظر أن تأتي لتصحبه.

وجود أبي في الزقاق كبح إلى حد ما الحياة المفتوحة، ورغم أن الرجل لم يكن يرى جيداً غير أن جلوسه على مقعده فترات طويلة، جعل النساء يحتجبن قليلاً. من كان يراه هكذا محدقًا في الفضاء لا يصدق أنه يرى الدنيا ظلالاً. يبقى في مكانه صامتًا، ويحرك الكرسي مع حركة الشمس. يتعرف على الناس من الصوت والرائحة. انتباهه الشديد جعل الناس تشك في موضوع العمى، وقال الشباب سراً إنه يبصر ولكنه يستعبط، فقد كان يثبت عينيه على القادم كأنه يراه.

بدأ أبي يعايش، في الزقاق، تفاصيل لم يكن يعبأ بها في السابق؛ فقد أظهر دهشة شديدة عندما عرف أن "أم بيسة" تخاوي الجان، وأن الولد توفيق الذي يسكن على الناصية مجنون ويضرب إخوته البنات، وابتسم بتفهم عندما أدرك الشهوات الذي تثيرها "زينات" في المكان. راح يتابع ما يحدث حوله، كأنه يعيش بيننا لأول مرة. بدأ "صالح النجار" يجلس بجانبه ويمازخه، ويستمر مزاحهما فترة طويلة، ثم تطور الحديث تدريجيًا حتى دخل

في منطقة الدين. تخيل "صالح" أنه يمكن أن يؤثر في تدين الخواجة تادرس، حتى أسكته ذات يوم بقوله المباغت:

"صالح يا ابن النجار، انت دجّال".

كان الشباب في الليل يقفون على الناصية، يتحدثون ويبتكرون أشكالاً مختلفة للمزاح؛ من يمكنه أن يشرب زجاجة كولا في نفس واحد، من يصيب عمود النور بطوبة من بعد معين، ودخل الرهان في تلك الفترة في اصطياد الفئران التي انتشرت في الزقاق إثر موت إحدى بطات "زينات". منذ تلك اللحظة تعكر مزاج أبي. كان يرغب في مغادرة البيت بأي وسيلة، فلم يكن يخاف من شيء قدر خوفه من الفئران.

في المساء كان يسمع صالح وشباب الحتة يصطادون الفئران ببندقية الرش. مع كل طلقة يرتجف جسده، فقد كان يخاف من أصواتهم الصارخة. كان مستريحًا لهذه الطلقات الصغيرة، آملاً أن تقضي عليهم، لكنه يداري مشاعره ويسب الشباب، وعندما يرى أحدهم يلعنه ويلعن أباه لأنه لا شغلة له ولا مشغلة، ويقول: "الواحد منكم قد الطور، روحوا شوفوا لكم شغلانة. سافروا بورسعيد اشتروا بضاعة وبيعوها".

ظل وجله من سيرة الفئران كامنًا، وإن تجسد في قلقه وإحساسه برائحة نتنة تفوح من كل مكان. راح يغتسل كثيراً، ويطلب من أمي أن تعطره بالكولونيا، حتى وصل الأمر إلى ذروته. ذات يوم سمع طرقًا على الباب.

قال بصوت خفيض: "مين؟". رد عليه صوت خشن: "تادرس بشرى، إعلان من المحكمة". قام مهرولاً من فوق الكنبة، إلى الباب ومد يده بحكم العادة إلى الكالون. في ضوء عينيه الشحيح رأى فأرًا ضخمًا يهتز في الفضاء. لحظة واحدة جمع بصره الصورة وأرسل إلى الإدراك الرعب المطلوب. شم الرائحة النتنة وكاد يختنق، فتراجع صارخًا: "آه يابا تعالي لي يابا". تعثر ووقع على ظهره.

جرت "أم سمرة" بسرعة عندما سمعت صرخة الرجل، وراحت تسب صالح والعيال السفلة. دخلت الصالة وأوقفته وقادته إلى الكنبة. نفضت له ملابسه وهي تقول: اسم الله عليك يا خويا.

عرف بعد ذلك أن صالح والعيال هم من دبّروا له المقلب. علّقوا واحدًا من الفئران التي اصطادوها، في خيط دوبارة، وطلع أحدهم إلى السطح، ودلّى الفأر أمام الباب، وخبط الآخر على الباب. في تلك الليلة استعاد عافيته وخرج بالعصا المعوجة عازمًا أن يفتح رأس صالح، وعندما تدخل الجيران، أصرّ أن يغادر البيت. لا بد أن يأخذ عزاله ويمشي، وحكم الناس على "صالح" أن لا ينام في بيته عدة أيام، إلى أن يتمكنوا من تطييب خاطر الخواجة. بعد عدة أيام عاد "صالح" برفقة الحاج إبراهيم وقال بتوبة حقيقية: "أحب على إيدك ورجليك يابا تادرس تسامحني". كان هذا كافيًا بالنسبة لأبي لكي يشخط فيه: "قوم امشي من قدامي، مش عاوز أشوف خلقتك".

***

يقول يوسف تادرس:

تعلّمت الرسم في مرسم "حازم الشربيني" في قصر الثقافة في شارع البحر؛ المبنى القديم الذي هدم في نهاية السبعينيات وأصبح الآن مكانه بنك الغربية. في الطابق الأول كانت المكتبة مظلمة قليلاً بسبب إغلاق النوافذ الواسعة بدواليب الكتب. بقية الغرف يشغلها الموظفون. في الطابق الثاني كانت هناك صالة واسعة فيها بيانو، وفي أي وقت تدخل تجد "عم فريد" معلم الموسيقى يلعب الشطرنج. غرفة الرسم على اليمين، واسعة أرضيتها من الخشب، لها شرفة مواجهة للباب. الضوء يغمر المكان، ونحن نجلس أمام حوامل الرسم لأول مرة، نرسم بالزيت؛ ثلاثة صبيان فازوا في مسابقة الرسم التي نظمها قصر الثقافة: "كريم البرعي"، و"محمد توفيق" و"يوسف تادرس".

بدأنا التدريب في الصيف، على رسم اسكتشات بالقلم الرصاص ثم الفحم. كنت أكثرهم توترًا، ربما أكثرهم اهتمامًا. "محمد توفيق" ابن موظف في الضرائب ويعد نفسه لكي يكون رسامًا، أما "كريم البرعي" فهو من عائلة تجار، نحيل، طويل، هوائي، يحب الرسم كنوع من الترفيه، يجرب نفسه. أما بالنسبة لي، فقد كان الأمر طاقة نور فتحت. خرجت من الزقاق أخيرًا، وبدأت رحلة أخرى.

يبدو لي ذلك كأنه قد حدث منذ زمن بعيد، كأن العالم كان في بداياته. الدنيا هادئة، الشوارع خالية يمكن أن تسمع وقع أقدام الخيول تجر الحناطير، سيارات الأجرة قليلة، الصخب لم يكن قد غمر الحياة. أحيانًا أندهش كيف تشكّلت حياتي من هذا الهلام. أتذكر جلستنا نرسم اسكتشات بالقلم الفحم. غرفة الرسم في قصر الثقافة صنعت شيئًا حبيبًا، إنقاذًا من وحل الحتة وانشغالات الزقاق. وجدت أشواقي جسدها.

في اليوم الأول وقف "حازم الشربيني" في وسط الغرفة. شعره طويل يصل إلى ياقة القميص العريضة المنشاة، والقميص أزراره الأولى مفتوحة تظهر بعض الشعيرات النافرة. يتحدث عن الكتلة والفراغ والمنظور والخطوط، بطريقة مثيرة، ويمسك ورقة ويرسم بسرعة أمثلة لما يقول. يتحدث بمرح وخفه كأنه يعاكس البنات. كان قد تخرج حديثًا في كلية الفنون بالقاهرة، وعين في قصر الثقافة، فكان متحمسًا لتعليم الرسم. بصراحة ساعد في خلق مناخ مختلف في المدينة، عالم من البهجة تفتح عندما بدأت في رسم استكتشات تحت إشرافه. كنت على أعتاب تحقيق الحلم.

أول تجربة في الرسم بالزيت موترة وربما مخيفة. يومها وضع "حازم" مفرشًا على ترابيزة صغيرة، وزجاجة بنية اللون وطلب أن نرسمها. الترقب والإثارة التي جربتهما في هذا اليوم دفعا إحساسي بالضوء إلى أقصاه حضرت التجارب السابقة في مراقبة الضوء، وصعّبت أول محاولة للرسم بالزيت. كنا في ظهيرة يوم صيفي. الشمس تغمر الشرفة بالكامل. في البداية تشتت انتباهي واحترت من أي نقطة أبدأ. رحت أهرب بتأمل الضوء في

الشرفة. راقبت الظلال بدل أن أراقب الضوء. الظلال هي الضوء من الجانب الآخر. كان ضوء شمس الصيف يترك ظلالاً كثيفة لحديد الشرفة ويكشف خشونة الصدأ. خفت، كيف يمكن تجسيد هذا؟ تركت الفرشة وقمت لأقف في الشرفة. تابعت "حازم" وهو يقف في الصالة، يتحدث بمرح مع موظفة جديدة، و"عم فريد" مندمج في دور شطرنج. نظرت أسفل الشرفة. شجرة ناشفة، فروعها تتلوى في كل الجهات. المسقط الأفقي شديد التعقيد. ثمار على شكل حبيبات داكنة بلون النحاس تبرز على جوانب بعض الفروع. تابعت الفروع واختلاف سمكها وحركة الصعود والهبوط والانحناءات والتقاطعات. انغمرت في المراقبة حتى ناداني "حازم" من الصالة "إيه؟ مالك؟

كنت مضطربًا أمام أول مرة للرسم الجاد. عدت إلى مكاني أمام الحامل. عليّ الآن إنجاز الصورة بأي طريقة. اسمع. كنت خائفًا على صورتي أمام نفسي في ذلك الوقت المبكر، خائفًا ألا أكون على قدر الصورة التي كونتها عن نفسي، أو كونتها لي حكاية الميلاد. حضرت "ماري لبيب" وساعدتني. همست: "ارسم لا تخف، ارسم". صوت "ماري" يدفعني. رحت أرسم بسرعة واندفاع. تجسدت الزجاجة والمفرش وجانب من المنضدة الخشبية وجانب من ضلفة زجاج الشرفة.

كانت اللوحة ناقصة من وجهة نظري رغم أن "حازم" أمتدحها عن لوحات زميلاي، وقال إن بها حسًا مرهفًا بالنور والظلال، لكن الإجادة

تحتاج إلى تمرين طويل ودراسة متأنية للظل والنور. كان ذلك مدحًا، لكنه عزز حسي بالنقص، وفي الطريق إلى البيت رحت أفكر مرة أخرى في النور.

أتذكر منظري، وأنا أمشي يومها في صخب شارع سعد الدين، وأراقب الرعشة التي تتحرك في الضوء، عندما يمر بسرعة، ولد يركب دراجة وعلى رأسه طاولة عيش. أتابع التباين الذي يتركه الضوء المنعكس على الحوائط وعلى وجوه الباعة. كنت أرى الظلال الهشة على الوجوه وأقول لنفسي: هل يمكنك رسم هذا؟ من أين ستأتي بالصبر حتى تدرس وتفهم كل هذا التنوع وأنت تحب اللعب والبنات وتجري وراء أي شيء يغويك؟ كنت حزينًا يومها رغم أن لوحتي كانت أحسن لوحة. شفت؟ كنت معقدًا من يومي. الشخص المعقد يظهر منذ البداية، يومها بدل أن يتركز تفكيري على الفرح بأنني أستطعت أن أرسم بالزيت لأول مرة، كنت أفكر فيما ينقصني.

أصبح مرسم قصر الثقافة نقطة مضيئة. كنت في أولى ثانوي؛ بدايات المراهقة. أتعرف على نفسي وعلى الدنيا. كل يوم أهرب من الزقاق وأروح إلى قصر الثقافة في غير المواعيد التي حددها لنا "حازم". بصراحة كان متعاطفًا، لمس حاجتي للرسم فلم يسألني في أي مرة، لمَ جئت في غير المواعيد، وترك لي ألوان الزيت أرسم بها. قضيت أيامًا أرسم نفس الزجاجة بإصرار، كأن فيها شيئًا غريبًا عليّ الإمساك به. باستمرار تأملي لها، راحت تتحول إلى جسد أنثوي، وشرائح الضوء تنسل إليها وتشكل في جوفها

أشكالاً متنوعة. الغريب أن الصورة كانت تصبح أسوأ باستمرار التحديق في الزجاجة، حتى جاء يوم قال فيه حازم:

"كفاية يا يوسف، الزجاجة أسرتك، لن ترسمها جيداً".

"ارسم شيئًا آخر ثم عد إليها بعد ذلك".

حزنت لأنه لم يدعني أكمل التجربة، لكنه كان أعلم بالأمر.

هناك حدث صغير آخر، في تلك الفترة له أثر مهم، سأحكيه لك. ذات يوم كنت أصعد إلى الطابق الثاني في قصر الثقافة. سمعت صوت البيانو. أول مرة أشاهد "عم فريد" يتحرك من أمام رقعة الشطرنج ويجلس على المقعد الأسود المستدير ويبدأ العزف. كان حازم يقف على باب غرفة الرسم وموظفات القصر يجلسن على مقاعد متفرقة في الصالة. الصمت ضم المكان. توقفت عند الباب غير قادر على الدخول. كان عم فريد يعزف قطعة موسيقية خيل إلي أنني سمعتها قبل ذلك، ربما استخدمت كموسيقى تصويرية في الأفلام القديمة، لا أعرف، لكن الحس أسرني منذ اللحظة الأولى. النغمات تتوالى وتشكل حسًا كأنه النور. رحت أتابع الموسيقى تاركًا لنفسي حرية التخيل. النغمات بطيئة تتوالى وتشكل فضاء، يتساقط فيه ورق ناشف من شجرة تشبه الشجرة الوحيدة تحت الشرفة. تتموج الأوراق في المسافة التي لا تنتهي بين أفرع الشجرة والأرض، ترفرف وتميل وتغير وجهها.

في الحقيقة لم أكن أسمع قطعة موسيقية، كنت أشاهد تجربة بصرية. يومها تعرفت لأول مرة على فكرة الإبداع. كنت متأثراً بالمشاعر التي تركتها الموسيقى في كياني، وقلت لنفسي إنني أريد أن أرسم صوراً تترك هذا الأثر. كيف يمكن أن أفعل ذلك؟ ظل هذا السؤال يطاردني فترة طويلة بلا إجابة. اخترت منذ هذا الوقت المبكر أصعب نقطة لكي أقيس نفسي عليها، دون أي اعتبار لمهاراتي المتواضعة. كل لوحة أرسمها أعيد في ذهني حسي بتلك المقطوعة، وأسأل هل تترك هذه الصورة في شخص ما ذلك الحس الذي تركته فيّ موسيقى عم فريد؟

في نهاية الصيف عرفنا "حازم الشربيني" على "جماعة عنخ"، مجموعة من أصحابه يجتمعون في بيت "حسين سعيد" في شارع الألفي. باب جديد فتح أمامي للتعلم والاقتراب من نفسي. هناك اكتشفت نوعًا آخر من الضوء. كانت المجموعة مكونة من "حازم" و"حسين سعيد" صاحب المكان و"بلال الشيخ"، و"محمود قنديل"، وهو شاب جهم الوجه بشارب غليظ، كان شيوعيًا وما إن ينفتح في الكلام لا يتوقف.

أبرزهم كان "بلال الشيخ". تعلم في كلية الفنون الجميلة في الإسكندرية على يد "سيف وانلي"، ويعمل مدرسًا للرسم في التربية والتعليم. كان متحمسًا يرى أن تعلم الفنون هو أساس التقدم. كنا في صيف ١٩٧٧، بداية التضخم الذي بدأ يطارد مرتبات الموظفين وزحام المواصلات وانهيار الخدمات.

في اللقاءات الأولى قرأنا "بيان ٣٠ مايو". ورقة كتبها "بلال" عام ١٩٦٨. تسعة أعوام تفصلنا عن كتابة هذه الورقة جعلت منها إنجيلا بشكل ما، بالنسبة لي. المرء في عمر السادسة عشرة، يحب المطلق، وأن تقرأ ورقة كتبت من ثماني سنوات عندما كنت صغيراً تلعب في الحارة، أو تتعلق في عربية الرش، فيبدو الأمر كأنك تعاين التاريخ. ومن جهة أخرى كان البيان شعريًا وحلميًا ويغازل رغبة المرء في الكمال، ربما لكونه كلامًا غير قابل للتطبيق أخذ تلك الجاذبية.

ابتعدت عن الزقاق وعشت في هذا العالم الصافي في غرفة "حسين سعيد". أغرمت بالبيان كأنه ديانة جديدة، ورغم فورة الجسد وتعلقي بالبنات وتوزيع الكوبونات بدلاً من أمي، إلا أن اجتماع جماعة عنخ يوم الخميس أصبح أهم حدث في حياتي. كانت تلك الورقة مشروع حياة، مغاير لما نعيشه في بيوتنا، ملخصها أن تجعل "عينك شمس، وأذنك شمس وروحك شمس". في أول ليلة عندما قرأ علينا "بلال" هذا البيان لم أنم؛ فميلي إلى رفع الأحداث العادية إلى مصاف النموذج أحد أمراضي التي لم أشف منها حتى الآن.

كان "حسين" يهوى فنون الإذاعة، ومكنه ظهور الكاسيت في هذا الوقت من أن يحول البيان إلى عمل إذاعي مصحوب بموسيقى فاجنر. كان صوته رخيما يظن نفسه إذاعيًا لم يأخذ فرصته حتى الآن، فبدا البيان في

نغمته الخطابية وحسه البطولي كأنه إحدى خطب عبدالناصر التي بدأنا نفتقدها.

بعد ذلك بسنوات خجلت من سذاجتي ورحت أسخر من جماعة عنخ ومن تقاليد تلك السهرات، التي كان يتم فيها قراءة الأشعار وسماع الموسيقى وتأمل اللوحات. لكن صدقني لقد سخرت منهم وقت عجزي وفشلي. السخرية أداة العاجز. كنت أسخر منهم لكي أبرر لنفسي أنني كبرت وتخطيت تلك المرحلة. بزمتك هل هذا صحيح؟ أليست حياتي كلها عبثًا طفوليا، بدليل تعلقي بالرسم حتى هذا الوقت المتأخر من العمر، رغم النجاحات القليلة؛ بعض المعارض وبعض المقتنيات الفردية. كلما تفحصت الأمر، أجد أن تعاليم جماعة عنخ هي الشيء الصافي الذي حاولت تجسيده، ربما هي سبب فشلي وسبب بعض النجاح الذي أحرزته بعض لوحاتي.

أريد أن أحدثك عن الأمر من زاوية أخرى، أعضاء جماعة عنخ كانوا متعالين على الناس، يرسخون للعزلة. بعد ذلك بفترة طويلة عندما لمست هذه العزلة وهذا التعالي في نفسي، عرفت أن الأمر من أساسه هو محاولة لإضفاء قيمة على الذات. هذه النظرة المتعالية لا تخص الفنانين المغمورين من أمثالي فحسب، بل تخص الشخصيات التي ترفع نفسها على الآخرين من أعضاء التيارات الدينية كلها. المنبع هنا، لا بد في هذه البلاد أن تحمل في روحك شيئًا مقدسًا حتى تجد قيمتك الضائعة، حتى تعمر روحك بقيمة أعلى من إهمالك من قبل المجتمع والسلطات. سوف تجد هذا الظل من

التعالي والعزلة عند أعضاء الجماعات الإسلامية، وعند الرهبان وكل من ينتمي إلى المقدس بشكل ما. لا يفلت من ذلك إلا من أدرك بفطرته أنه مجرد حبة رمل، مخلوق بسيط زائل، عليه أن يعبر على الأرض كما يعبر ظل السحاب، وهذا لا يصل إليه إلا كبار المتصوفين والرهبان والأرواح الكبيرة، أما الباقي فستجدهم حيارى مثل أخيك يوسف تادرس.

كما قلت لك، كنت متحمساً للبيان كأنه من كتابتي. غمرني الشعر الجميل الذي يدعوني أن أجعل من عيني شمس ومن روحي شمس، ولأنه بالصدفة يستخدم استعارة الضوء، فإن الأمر أصاب أعمق نقطة في الوجدان. رحت أبحث عن الوسائل التي تمكنني من ذلك: التدريب على الرسم وسماع الموسيقى، والقراءة والتدبر، ومقاومة المغريات التي تبدد الطاقة والوقت. ألا ترى؟ نفس طريق المتصوفين والرهبان. الارتفاع فوق الحياة البشرية، إنه أمر معقد ومحير، لكنه مثير لشاب في السابعة عشرة من عمره على وشك دخول الثانوية العامة، ويريد أن يهرب قليلاً من الحياة الجسدية الكاملة في حارته. شخص مرتبك، خائف، يريد أن يأخذ نسمة من المطلق.

عندما بدأت الدراسة، أصبح من الصعب الذهاب إلى قصر الثقافة. بدأت سنة الثانوية العامة الكالحة. أول فرد في أسرة الخواجة تادرس يصل إلى الثانوية العامة. تخيل الخوف من الموت التي رافق حياتي انعكس فرحة كبيرة عندما كنت أذاكر في تلك السنة. "يوسف في الثانوية"، تقول أمي من فوق

عتبة باب البيت لأم بيسة وحسنين السمكري، أما أبي فتظهر بسمة بريئة ساخرة على وجهه، كأنما خيب الرب ظنونه، وعاش يوسف رغم موت أخيه ورغم حادث السيارة، وعندما كنت أخرج يوم الخميس بالقميص المكوي والبطلون الواسع والجزمة أم كعب، يغيم وجه أمي، خائفة أن تأخذني سهرات جماعة عنخ من المذاكرة. الثانوية العامة الباب الذي سوف ينقل يوسف إلى مكانة أخرى. سوف تنقذه من الحارة. لكنها تعرف أن منعي مستحيل، فكانت تهدئ قلقها بتوصيتي: "خلي بالك من نفسك يا خويا". تقول لي "يا خويا"، ربما لتحيي الرابطة السرية بيننا، أثناء التجول في المدينة لتوزيع الكوبونات، الحس الخبيء لحكاية ميلادي. تعزز ذلك العلوي بشكل سري في كياني. أحاول أن أصل إلى فهم، اعذرني، لكن الأمر صعب، استعادة الحياة عن بعد، أمر صعب.

رغم التوتر الذي عانيته في تلك الفترة، بسبب تركيز البيت على الثانوية العامة، إلا أن خبرة رسم الزجاجة على المفرش في قصر الثقافة لم تتركني، كنت أهرب من المذاكرة، وأتابع ما تركته لي هذه الخبرة. أظن أن فكرة "الضوء هو أصل الأشياء" بدأت في ذلك الوقت وترسخت، الضوء هو الروح السائلة خلف الأشياء، الجوهر الطيفي غير الملموس. في أساس أي شيء تكمن لمحة من ضوء، روح سرية، يمكن لكل شيء أن يتحول إلى ضوء.

غامضة بعيدة، تلوح هذه الأفكار، ساذجة وغير قاردة على التجسد في ذهن صبي في السابعة عشرة من عمره، مغموراً بالمخاوف والارتباك. كانت المهمة صعبة، فقد أدركت أن الرسم يعنى أن تستطيع، التقاط الروح الخفية خلف الزجاجة والفازة والمفرش. كيف تكتسب عينًا بصيرة لتمر إلى الروح السائلة خلف الأشياء الجامدة، وأصابع قادرة على نقل هذه الروح؟ كيف يمكن أن تمسك بشيء سائل كالنور يسري في جوف كل شيء؟ الأمر صعب. رحت أهرب من المذاكرة وأسهر الليل أتمرن على إجادة خطوط كسرولة الفول، أو طبق صغير أو الكرسي الذي يجلس عليه أبي خلف الباب. أجاهد طويلاً، لكن المثال كان عاليًا، بعيدًا عن القدرات، وكنت عنيدًا مثل أبي. في اليوم التالي أقول إنه يمكنني أن أرسم "القلة" في نافذة أم بيسة، يمكنني أن أرسم استغراق أمي وهي تخرط الملوخية. كان كفاحًا بلا معنى لأن قدراتي الطبيعية كانت عادية، لكن ماذا تقول؛ فكرة أنني منذور لشيء كبير، تكمن تحت كل تصرف، وتوهمني أن بإمكاني أن أخلق هذا الشيء، يمكنني أن أصل إلى الروح السائلة تحت الأشياء.

زادت وتيرة العمل الذي كلفت به نفسي. كان لا بد أن أذاكر، ومن جهة أخرى أتمرن على الرسم حتى أتمكن من دخول كلية الفنون الجميلة لأتعلم على يد سيف وانلي. يجذبني جو المدينة ويثير في خيالي بريقًا غامضًا مثل البريق الذي أثارته عبارة: "جورج البهجوري يرسم من باريس". كنت أعيش على هامش حياة أسرتي. كان أبي يعود في الليل وعندما يراني

يسأل: ما زلت ساهرًا؟ أخفي أوراق الرسم وأقول بتوتر: "أذاكر". يطوح رأسه كأنه يتفهم الكذبة ويصدقها وفي نفس الوقت تشي حركاته وأسئلته غير المتوقعة بأنه يعرف ما أعمل، ذات يوم قال:

"أريد أن أراك في الكلية حتى أموت مستريحًا".

كانت ليلة فاصلة في شهر مارس. رفعت أوراق الرسم وركزت في المذاكرة حتى انتهت السنة.

***

يقول يوسف تادرس:

قضيت في الإسكندرية عامًا واحداً. كانت أمي متوترة، فرحة، تتصل بمن يقيمون في الإسكندرية من الأقارب، تخبرهم بأن يوسف قادم ليدرس في كلية الفنون الجميلة. عرفتني على "رضا بولس"، أحد أبناء عائلة قديمة في تجارة الجلود، كان يدرس في سنة ثالثة عمارة، ويقيم في شقة في سيدي بشر. اتفقنا على أن أقيم معه. كنت قلقًا في ذلك الصيف خائفًا، من رغبة أمي المفرطة في إبعادي عن حياة الزقاق.

صلتي برضا بولس خففت قليلاً من تلك الأجواء، وربما وضعت، لأول مرة، الحياة المثالية لجماعة عنخ، مقابل نمط آخر من الحياة. منحني وجود "رضا" في هذا الصيف، حسًا حيويًا، كنت في حاجة إليه. فرغم جديته كان مشغولاً بالبنات مثلنا. خرجنا كثيراً، وذهبنا إلى الأعراس والاحتفالات. كنت أزهو بانجداب النبات إليّ، عندها كان ينظر إليّ بطفولة ومرح ويقول: "يا بختك يا عم يوسف". لكنني كنت أخاف من ذلك التعلق، أتهرب منه، وأحاول أن أثبت أنه لا يهمني، وأشترك معه في تصنيف البنات؛ هذه مثل أميرة من أميرات القصور، هذه مثل القديسات،

هذه مثل الساحرة الشريرة، هذه يمكن أن تخرب بينك وتفتش جيوبك كل ليلة.

كان "رضا" مرحًا، منطلقًا، حسه الديني خفيف، لم تسكن قلبه المخاوف الغامضة وهواجس الأسئلة، يشعر بأنه يعيش في عالمه، يتصرف بطريقة بسيطة في الأمور التي أظنها تحتاج إلى هول من التجهيزات، يعد حقيبة سفر كبيرة وخيمة ويسافر ليقيم في سيدي عبد الرحمن وحده في الصحراء الخالية عدة أيام، يساهم بنصيب من العمل مع أسرته، يسافر إلى الصعيد، وسافر إلى باريس مرتين.

طريقته في التصرف والحديث، وتعجله الدائم وحسه أن عليه ألا يضيع ثانية واحدة، بدت مناقضة للحياة المسترخية في الزقاق، المبنية على تدبير الشئون اليومية، وبالأساس كان مختلفًا عن حكماء جماعة عنخ. يضحك عندما أحكي له عن جلسات الجماعة كل خميس، ويقول: "إنهم لايعشون على الأرض"، "الحياة ليست كلامًا، الحياة فعل، حركة". كان يدرس العمارة ويرسم، ويريد أن يتعلم العزف على العود. عرفته على "عم فريد"، واندهشت كيف يجد وقتًا وسط أشغاله لكي يتعلم عزف العود. قال ضاحكًا: "سوف أتعلم حتى تهجم الظروف وتمنعني، على الأقل سأكون قد حصلت شيئًا يساعدني على الاستماع الجيد". له أفكاره الخاصة، لم يكونها من الكتب، بل صاغها من خبرته وتفكيره.

أول مرة تتعرض الجلسة السرية والعالم المغلق لجماعة عنخ لهزة أضاف هذا التعارض إلى قلقي، قلقًا آخر، وتحدثت مع "بلال" ذات يوم في الأمر، فقال بيقين إن صاحبك سطحي وهوائي ولا يعيش الحياة الحقة، يعيش فكر الجموع وليس فكرته الشخصية، الحياة الحقة أمر آخر. فكرة الحياة "الحقة" شغلتني، ما هي الحياة الحقة؟ وكيف يمكن عيشها؟ لم يكن هناك كتالوج، والخطة التي أعدوها للأمر بدأت تتفسخ في مواجهة العوالم الأخرى التي تفتحت أمامي.

في هذا الصيف بدأ الصراع الخفي بين أمي وأختي الكبرى. "فُتنة" هي سيدة أبي الحقيقة، هي التي تدير كل شيء، وتعرف المصاريف، وتراكم الثروة بعيدًا عنا وعنه. بدأ طموح أمي يصطدم بالتقتير الذي تدير به "فتنة" الحياة. أثار موضوع سفري إلى الإسكندرية، وسكني هناك، والمصاريف التي تتكلفها كلية الفنون نقاشات طويلة، لم يتدخل فيها الخواجة تادرس، بل ترك الصراع بين المرأتين يحسم نفسه. تعدد "فُتنة" مصاريف السكن والمعيشة والملابس ومستلزمات الكلية، هذا كثير على رجل عجوز ذهب نور عينيه. تهون أمي الأمر قائلة إنها سوف تساعد من مصروفها ومن المنح التي تهبها لها جمعية الكتاب المقدس. كانت متحمسة وحسمت الصراع.

عشية سفري إلى الإسكندرية بدأت مخاوفي. سبقني "رضا" إلى هناك لقضاء بعض الأشغال. وعندما وصلت إلى محطة سيدي جابر بالليل، خفت من اتساع الميدان. كنت قد زرت الإسكندرية عدة مرات برفقة أمي. الآن،

أقف على باب المحطة صغيراً، بالنسبة للمكان المتسع. ركبت الترام ووصلت إلى الشقة، وقضيت الليل أتمشى على الكورنيش غير قادر على النوم. لأول مرة في حياتي أكون بعيداً عن الحضّانة، عن الزقاق، عن نحنحة أبي، وتمتمات أمي بالأدعية، كنت طفلاً يعاني آلام الفطام. هل يمكن النظر إلى ذلك العام على هذا النحو؟ ربما كان هناك شيء آخر لم أدركه، ربما كنت غير راغب في هذه الاتساع وتلك الحرية.

في الأيام الأولى في الكلية ازداد الخوف. كنت أدفع الأيام. يقول رضا ساخراً: "إيه يا يوسف انت مخلوق من خشب؟"، لم يحسن التعبير كنت مخلوقًا من الطين، وحنيني إلى النور، سببه طبيعتي الطينية. كنت من الزقاق أحب اللعب هناك في ذلك الماء الثخين. سهرت ليالي أتمرن على رسم الأصابع والوجوه والأقدام، وأدرس تشريح الجمجمة ورسم العين وتفاصيل عضلات الرقبة. في أحيان أحن إلى رسم شيء مبهج. أنصب الحامل وأعد ألوان الزيت وأبدأ في رسم طفاية سجائر على منضدة صغيرة. لم أتمكن من رسم شيء متزن. النسب تفر مني، كأن تدريبي يصب في الفراغ. كنت مثل الأعمى بالنسبة لوضع الكتلة في الفراغ، وتلك حساسية أساسية لمن يريد أن يصبح رسامًا.

أعجبت رضا بولس بعض الرسوم، وقال إنني سأكون فنانًا، وأحيانًا كان ينصب الحامل الخاص به ويرسم معى براد الشاي أو كرسي الأنتريه، أو زجاجة فارغة. ذات يوم رسمنا ثلاث بصلات، على خلفية حائط الغرفة

الرصاصي. يومها كنت منفعلاً، رسمت البصلات الثلاث على المفرش الأخضر بخلفية حمراء مثل الحريق، بدت الصورة مطابقة للتفاصيل، لكنها ملموسة بحس سريالي. نظر إليها رضا وقال: "أنا هبطل الرسم يا يوسف"، ومن يومها أو ربما بعد ذلك بقليل، لم يعد يرسم، كأنه أخذ قراراً، ورغم تشجيعه فلم أتمكن من الاستمرار. كنت أرى العيوب أكثر مما أرى القدرات التي أتمتع بها.

ساعدني "رضا" طول حياتي، وفي تلك الفترة المبكرة من تعارفنا كان يندهش من طباعي، وعقدي، ويقول إن عليّ أن أحطم كل شيء وأرسم ما أريد، ما يمتعني، وما أجد ميلاً تجاهه، وكنت أعتبره ساذجًا فقد زودني "بلال" بالحسابات الهندسية الصحيحة لكل لوحة جيدة، وطبقناها كثيراً على رسوم كبار الفنانين من أول الفنون الكلاسيكية حتى رسوم الفنانين المصريين. كنت بائسًا لا أتمكن من التحرر من الكتالوج الذي اصطحبته معي من طنطا، من جدول الضرب الخاص بحساب اللوحات الفنية. وبدأت أصدق أنني لن أتمكن من رسم صور، مادمت غير قادر على خلق الاتزان، والنسب المضبوطة التي أوصى بها "بلال الشيخ".

بمرور الوقت اكتشفت أن الإسكندرية أكثر اتساعًا مما تخيلت. كل يوم تتسع وأجد نفسي أصغر، أنكمش، حتى حيل إليّ أنني سوف أضيع. في منتصف العام بدأت مشاكل أمي وأختي بسبب تدبير مصاريف دراستي، كانت الكلية أكبر بكثير من طاقة أسرتي، ومن طاقتي النفسية. تحتاج إلى

مصاريف وملابس وغير ذلك من الطلبات وكان عطف "رضا بولس" يربكني ويشعرني بالدين والشلل. لم أعد قادراً على التحمل، وزاد من صعوبة الوضع اكتشاف ميل "لمياء"، واقترابها مني.

ذات يوم أرسلت "فاتن" مع "رضا" رسالة، بدا محرجًا وهو ينقلها إليّ. كان مستعداً لمساعدتي بأي شكل. لكن الأمانة تقتضي أن يبلغني الرسالة أولاً. قال إن "فاتن" زارته فجأة في البيت وتحدثت معه عن أحوال أسرتي. قالت له إن أبي رجل ضرير وإنه لن يتحمل هذا العبء خمس سنوات، الأفضل أن يعود يوسف إلى طنطا، يساعد في العمل، ويدرس في أي كلية هنا، لا تتكلف كل تلك المصاريف.

هذه الحجة كانت كافية لكي أتبين أنني لن أبقى في الإسكندرية، ثم جاءت أيام الشتاء الطويلة ووجدت نفسي منجذبًا تجاه "لمياء" بشكل أعمى. أنت تعرف رسوم رفاييل. "لمياء" واحدة من نساء رفاييل. ملاك حط على الأرض. كانت ترافقني من أول دخولي إلى الكلية وحتى نهاية اليوم. تساعدني بتلك الملائكية التي لم تكن ملائمة لي. فلقد تربيت في زقاق، أعرف الشهوات، جئت من بيئة ثخينة كلها إيحاءات جنسية. المداعبات والتلامسات في كل مكان. لا أتحمل هذا القرب الملائكي، ثم إنها من أسرة غنية جداً، وأنا أعرف نفسي، وأعرف أهلي، لا يمكن، لقد تعبت من هذا الوجود غير المحتمل، وخفت أن أفقد توازني المفقود أصلاً، وأجد نفسي وقد صنعت كارثة، فقد أجدني ذات يوم وقد قبلتها وسط المرسم.

كنت أشعر بأن هذا قريب جدًا، عندما نكون وحدنا في أي مكان حتى لو كانت طرقات الكلية. ذات يوم تأخرت في غرفة الرسم، ونظرت حولي، كنت وحدي مع لمياء. خرجت بسرعة، وتركتها هناك تجهز أدواتها بنفس الرقة السماوية، التي تؤدي بها سائر الأعمال.

كان المكان أوسع مني، كما قلت لك، عرفت ذلك من أول لحظة، لكني لم أتبينه في الحال. عندما أستعيد وقفتي على باب محطة سيدي جابر في أول ليلة في الإسكندرية. أعرف أن مشاعري صورت لي الحقيقة، ففي تلك الليلة رأيت نفسي صغيراً بالنسبة المكان. السيارات تعبر هناك على مسافة أبعد قليلاً من المسافة الطبيعية، والبيوت أكثر ارتفاعًا من ارتفاعها الطبيعي. الأحجام أكبر من حقيقتها، وأنا أصغر من حجمي. الهوء بارد به رائحة ملوحة محايدة، حتى الترام الأزرق يتمايل داخلاً المحطة بمهابة.

بعد ذلك بسنوات فهمت معني مشاعري؛ كنت قادمًا من الزقاق، وحجمي في الزقاق مناسب لمكانتي. الأشياء قريبة وفي متناول اليد، وكنت محاطًا بالرعاية تقريبًا. الزقاق مثل الرحم، لي به ارتباط العضوي. أما وقوفي على باب محطة سيدي جابر فقد كان ميلادًا لم أكن قادراً على تحمله، فعدت إلى دفء الرحم. هذه التفسيرات تأتي بعد ذلك كمحاولة لإسكات القلق والحس بالخطيئة التي ارتكبتها بسبب إهدار فرصة التعلم في كلية الفنون.

في شهر إبريل قررت أن أعود إلى طنطا، يومها انفعل "رضا بولس" وقال بجدية وغضب: "أنت تخسر، صدقني أنت تخسر". قلت له لا

أعرف، ربما يكون خيراً ظللنا على اتصال من بعيد، نلتقي كلما عاد من الإسكندرية ولكنه كان حزينًا، يبدي حسًا أصيلاً كأنه مسئول عني.

كان ذلك نصراً لأختي. بعد وصولي بيومين مرضت أمي بدور برد شديد، ثم ارتفعت حرارتها. ذهبت إلى الصيدلية في شارع "غياث"، لكي أشترى لها دواء قابلت الدكتور "هاني" أحد معارفها. سألني عنها. وصفت له الحالة. قال: "يجوز أمر ثاني غير البرد، تعالَ". جاء معي، إلى البيت. عندما دخل عليها الغرفة، نظرت إليّ بلوم، لأنني أدخل عليها الغرباء وهي مريضة. لم يفحصها، سلّم عليها ووضع كفه على جبهتها، وقال لي. "خدها بسرعة إلى الحميات وسوف أحصلك". في مستشفى الحميات اكتشف الدكتور هاني أن المرض هو التيفود وقال لي: "والدتك ست طيبة كانت هتروح منك".

في أجواء مستشفى الحيمات الشبحية، كانت تنظر إليّ بعتاب، تسأل بصمت: لم عدت من الإسكندرية؟ ترسب في أعماقي صمتها وحسها بالحزن، ليس بسبب فشلي في إكمال دراسة الفنون، لكن بالأساس بسبب هزيمتها أمام أختي الكبيرة. فترة مستشفى الحميات زادت عمقًا، ارتباطًا سريًا بيني وبينها. كنا وحدنا في عنبر طويل، فيه فلاحات مريضات بأنواع مختلفة من الحمى، تحيطنا عزلة لا نهائية.

رقدت هذه الأيام الثلاثة في منطقة مظلمة من الأعماق، كنا وحدنا في الكون. ضاع أملها في أن أكون شيئًا، والحزن آتٍ من أنني كنت المعادل

لوهب نفسها للرب، فما تركت هذا الطريق إلا من أجل أن تنجب يوسف. لم أتخيل أن يكون رجوعي من كلية الفنون له هذا الأثر الصاعق عليها.

هناك في روحها منطقة مضيئة تتغلب بها على تلك اللحظات، بعد قليل راحت تؤول رجوعي من الإسكندرية بطريقة تمكنها من أن تحافظ على صورتي في وجدانها: يوسف يضحي بمستقبله من أجل أن يوقف مشاكلي مع أخته، ويساعدني على الحياة، فهو ما عاد من الإسكندرية إلا لكي يوقف المشاحنات والذل من مصاريفه. يوسف يريد ألا يحملني فوق طاقتي. حولت الأمر على هذا النحو، وبدأت تتقبل وجودي في الزقاق.

لكن الأمور لم تقف عند هذا. فقد بدأ الزن: لا يصح أن يبقى يوسف في الزقاق يجلس عاطلاً يتفرج على النسوان طول النهار. أبوه ضرير، وعليه أن يساعد في العمل بثت أختى الكبيرة هذه السموم في ذهن أبي، فكان يطلب مني أن أصحبه إلى العمل كل يوم، قابضًا بيده على كتفي، صامتًا أغلب الوقت. نما الحاجز بيني وبينه في تلك الفترة. حاجز شفاف جعلني أبتعد عن التعاطف معه. كنت أبقى بجانبه طول النهار، وأحيانًا أجد نفسي وقد تركت "الفرش" دون كلمة واحدة وأمضي. أسير في الشوارع بلا هدف ولا أعود إلى البيت إلا في منتصف الليل.

هذه أيام سادة، بلا طعم، بلا شكل، ضخمت قلق أمي، عندما قالوا إن يوسف أصابته لوثة، وأنه يظل يومًا كاملاً لا ينطق كلمة واحدة. في هذا الخلاء بدأت تتحرك اتصلت بأقاربها وتوسطت عند أحدهم لكي أعمل

مدرسًا للرسم بالحصة في مدرسة خاصة، كأنها بفطرتها تعرف الصلة بيني وبين خلق الصور. عملت في المدرسة الخاصة طول سنوات دراستي. الخلاء الذي تتيحه كلية الآداب مكنني من العمل وبالتالي توقفت عن الذهاب إلى فرش الحمص، وابتعدت عن جو أبي وأختي.

في ذلك الوقت عانيت من النظر إلى نفسي بكراهية، لأنني لم أتمكن من العيش في الإسكندرية، كأن بي شيئًا خربًا، نقصًا من نوع ما، كيف أرفض الحياة المفتوحة والطرق الممهدة والتعرف على الشخصيات الكبيرة من الفنانين؟ كيف أفرط بسهولة في كل هذا؟ كيف أريد أن أكون فنانًا وأنا لم أطق الحياة بعيدًا عن أهلي؟ كنت أعاني من توهان خالص ولا أعرف أين تسير الحياة بي، حتى علاقتي بالتلاميذ في المدرسة كانت رديئة. كنت نافرًا، أنظر إلى الأطفال بعدوانية، رغم أنني تذكرت كثيرًا ماري لبيب وحبها، لكن ذلك لم ينفع في تحسين مزاجي.

قربني عملي في المدرسة من البنات، من الجو الحميم والحس المرح لحياتهن، حكاياتهن الصغيرة وأحلامهن بالزوج، ومكنني أيضًا من مداعبات لم يكن كلها بريئًا. شهوات تنفجر فجأة، فتجد نفسك في قلب إثارة لا تفلت منها بسهولة. انشغلت بنبيلة ذات الغمازات وتريزا ذات الصدر النافر، وماري ومنى، وتحول المزاح أحيانًا إلى مغامرة صغيرة في حوش البيت، أو بجوار باب الشقة، لم ترهبني الخطيئة مثلما كانت ترهب زملائي في المدرسة. انجذبت إلى بنات مرحات لم تكن الخطيئة تشكل لهن

عقدة. كن يمارسن مرحًا خفيفًا ويتفقن على ألا يتم التعدي على حقوق زوج المستقبل. أحببت مرح هذه الفترة. قالت لي تريزا مرة: "يوسف أنت هوائي ومن ستعيش معك لن تكون سعيدة". غضبت منها وسألتها عن العراف الذي تعلمت منه رؤية المستقبل. قالت بدلع: "انت زعلت؟" ثم قالت بجدية ومرح معًا: بصراحة فكرت فيك وتوصلت إلى أنك ستتعب قلبي. قلت لها مازحًا. انتبهي لا تقولي هذا في وشي، اتركيني أعيش في الوهم وضحكنا

نظرت من خلال تلك المداعبات العادية بسخرية، إلى الجدية التي يدخل بها زملائي في الكلية، قصص الحب كأنها أقدار، كأنهم ينسخون حياتهم على غرار أغاني عبد الحليم حافظ. بعضهم يتعذب وبعضهم يتورط في علاقات تصل إلى حدود من الصعب الرجوع منها. ما عشته كان أمراً عاديًا رغم ثقله في الشعور الديني.

ماذا أفعل بنفسي؟ هذه الحساسية تجاه حب البنات، ربما تكونت لي عبر سنوات طويلة من العيش في الزقاق، مراقبة النساء والحس بالسهولة التي يتلامس بها الناس وتطور علاقاتهم وتورطهم في مغامرات هينة لا تخرب الحياة. ساعدني هذا الحس على التمتع بتلك الألعاب، ولطف الجو الكالح لتلك الأيام، حتى شعرت بأنني سوف أرسو هنا، سوف أتخرج وأعمل مدرسًا، وأتزوج واحدة من تلك البنات، لكن من دون أحلامها. سوف أتفق معها أن تترك أحلامها قبلما تدخل من باب الشقة. سوف أعيش حياة

عادية. هذه الخطة تناسب "يوسف تادرس" المتعب، من حمل ثقيل لم يكن قد رآه في ذلك الوقت، وضعته على كتفه الست الطيبة التي أرادت أن تهب نفسها للرب.

بسبب علاقات الزمالة في المدرسة بدأت أداوم على التواجد في الكنيسة بانتظام. ذات يوم قالت لي إحدى قريبات تريزا، يوسف: "كنت بترسم زمان، صح؟ ارسمني". نظرت إليها كأنني أتذكر نفسي، وقلت لها: "ثانية واحدة". خرجت من الكنيسة، اشتريت فرح ورق، وقلم فحم وعدت. وقفت أرسم الفتاة بخطوط سريعة مرحة، لمسات وتظليل خفيف حتى ابتسمت لي من دخل اللوحة. أمسكت تريزا الصورة وأرتها للبنات اللاتي توقفن مندهشات من دقة الملامح التي ظهرت بها الفتاة ومن السرعة التي رسمتها بها. قالت البنت بدلع وهي تحمل الصورة. "آخذها؟" قلت من فوري: "خذيها"، وضحكت: "تاخدى القلم معاها؟".

بقيت واقفًا لا أعرف ما أفعل. كنت أريد أن أرسم أي شيء. كل شيء حولي يناديني لأرسمه. خرجت من الكنيسة إلى البيت مباشرة، جهزت فوق السطوح مكانًا للرسم ويومها بدأت العمل. كل ما حبس أثناء خوفي في الإسكندرية تفجر الآن. كنت أرسم كل شيء حولي: عشة الفراخ وحركات الدجاج والديك. رسمت شرفات البيوت البعيدة وعم سعيد المكوجي، ومدخل الزقاق، وقليلاً قليلاً جاءت لوثة الرسم كأنها إنقاذ، لم

أكن أتذكر أي شيء مما تعلمت، بل كنت راغبًا فقط في نقل الملامح، روح الأشياء على الورق.

***

يقول يوسف تادرس:

جاءتني طلبات كثيرة لرسم الوجوه. بدأ الأمر كمزحة، كما حكيت لك، لكنه تطور بسرعة وأخذ كل اهتمامي حتى تخرجت في كلية الآداب. فترة خصبة، تعلمت فيها بجد. الآن عندما أراجع قصتي أعرف أنها الفترة التي تعلمت فيها معنى الرسم. ليس تقنيات الرسم، بل معناه؛ "ما هو". كنت وحدي، بخبرات قليلة وروح تواقة للخروج من الأسر. اندفعت في رسم الوجوه المهمة صعبة. أشعر الآن بارتباك عندما أتذكر تعاملى السهل معها. لولا مزاح قريبة تريزا في الكنيسة لما تم الأمر. هل تظن أن حياة الإنسان دور شطرنج لو حذفت منه نقلة واحدة سقط الدور؟ أم أن هناك روحًا خفية في كل إنسان تسعى بكل السبل لتنفيذ مصيرها؟

عندما أراجع حياتي، أفكر كثيرًا: ماذا لو لم تتم هذه الخطوة؟ أحاول أن أحسب المصائر المهدرة، وصلت إلى قناعة بالفكرة الثانية. في كل شخص روح تقوده. حس داخلي يوجه سيرته إلى غايتها. لو توقف المسار هنا، يظل الدافع حيًا ينتظر لحظة أخرى ملائمة حتى يستأنف السير. لا أملك أدلة وأعرف أنك لا تصدق تلك الغيبيات، وترى أن حياة كل إنسان من خلقه، وأنه يصنع سعادته أو شقاءه بنفسه، حتى الشروط التي شكلت حياته قبل

وجوده يمكنه التعامل معها وإعادة صياغتها. أعرف هذا وأعرف أنك ترى أن نظرتي لها نفس الأساس الذي يعمل تحت فكرة اللوح المحفوظ. لا يهم، هذا ما تبقى لي الآن.

لحظة "النقلة" تمت في مساء أحد في باحة الكنيسة بمرح، فطبعت المرحلة بطابعها. لو أخذ رسم الوجوه السمة الجادة المعتمة لتعاليم جماعة عنخ، أو لتقاليد الأكاديمية في كلية الفنون، فإن الأمر كان سيفشل، وهذه هي حجتي على أن المصير كان يتحين الوقت ويتخفي حتى يصل إلى غايته فن التصوير أعظم الفنون، إنه فن الخلق. الحياة مظهر، وفن التصوير يجسد المظهر ويهبه طابعًا ومزاجًا، يسمح لنا بتأمله وعيشه خارج الزمن. عرفت أن كل شيء يحن إلى أن يكون متجسداً في وعي ما، حتى الأشياء الجامدة تحن إلى هذا التجسد، تدرك غاية وجودها عندما تتجسد.

تعلمت رسم الوجوه أثناء رسمها، وتعرفت على الصعوبات الكامنة فيها. الشغف يسهل أحيانًا هذه الصعوبات تأمل الأمر وسوف تراه. ملامح الوجه غير ثابتة كما نظن. الوجه مثل الزمن دائم التبدل، لكل واحد منا ملامح محددة، لكن الانطباعات المتواترة تعطي للملامح سمة مختلفة في كل لحظة. نحن نعرف ملامح أصحابنا وأقاربنا كخلفية لما تحمل وجوهم من تعبيرات. هذه الروح السائلة خلف الملامح عليك الإمساك بها، عليك أن تنقل روح الشخصية خلال لحظة هشة، وزاوية واحدة، وعشرات من بقع الضوء المتناثرة على الوجه. يبدو أنك في متاهة ليس بسبب التقديرات

الرياضية الدقيقة فحسب، بل أيضًا بسبب الانطباعات الفجائية التي تطوف بذهنك. تكتشف الوجه وأنت ترسمه، الياقة البيضاء التى ترسمها تحت البلوفر الأسمر تشبه ياقة أحد القسس. الملامح الحادة للأنف تذكرك بالدكتور بولا الطبيب الأرمني الذي مات وحده في شقته. هذه العيون الضيقة عيون بومة، وتلك الشفاة أنثوية تمامًا، مراوغة. هذه الثدي النافر له من الطاقة ما لا يقدر عليه أحد. هذا الشرود فيه من الحيوية ما يعادل الطاقة التفجيرية لقنبلة ذرية. هذه البشرة لها بريق ساحر، لو تسمح لي برسمها عارية؟

الأشخاص الذين يجلسون أمامك يشعرون بالتوتر، بسبب السكون والتفحص الحاد لوجوههم، كأن شخصًا يطل على أعماقهم، ويقلب في أسرارهم. كم هو مقلق هذا التفحص، فالعيون لها أشعة لا تكون كلها رغبة في التعبير عن ملامح الشخص، بل رغبات مختلطة معقدة. من يستطيع أن يفصل نقل الملامح عن التفتيش فيها؟ في النهاية لا يمكنني أن أنكر أن الرغبة في الإمساك بخطوط الوجه ممزوجة بنوع من السحر والتعازيم ومحاولة التأثير على الشخص الجالس أمامك. صدقني الأمر له صلة بالسحر، لقد وقعت في حب كل من رسمت تقريبًا بعضهم نفر مني وكرهني. كانت جلسات رسم البنات لها توتر خاص، كأننا سوف نكتشف أثناء الرسم التوافق الخاص بنا، ربما هذا هو السر في التعلق، عندما تأنس البنت لك وتجدك وقد خلقتها على الورق، عرفت سرها، لا بد أن تحبك، ماذا لو رسمتها عارية؟

عرضت الأمر على عدد من البنات، لم توافق غير تريزا. كانت جريئة، لكن ما حدث كان مختلفًا. في مساء الأحد، ذهبت إلى بيت خالتها، أحمل الأدوات متحمسًا، ومترقبًا. كانوا كلهم في الكنيسة. فتحت لي تريزا غرفة الصالون، وجلسنا نتحدث. طلبت منها أن تخلع ملابسها، رفضت وقالت إنها لن تنفذ الاتفاق. لقد راجعت الأمر وخافت. حاولت تبديد مخاوفها. قلت لها إنني سوف أرسم الصورة هنا، وسوف أتركها لها، إن كانت تخاف من انتشار صورتها، ثم إنها لا يجب أن تخاف مني، لقد حسمت أمرها ولن تفكر فيّ كزوج. راحت تخلع ملابسها ببطء، وعندما ظهر ثديها تركت ما في يدي واقتربت منها. احتضنتني، فقبلتها، لكنها في النهاية رفضت أن أرسمها عارية، وتبدد الحلم.

التعري صعب، هذا الحس الموضوعي تجاه الجسد لم يظهر عندنا بعد، لم أكن مهيئًا لهذا ولا هي. لا أعرف إن كان الأمر جيداً أم سيئًا، لكن أعرف أن الحس بالجسد ما زال شخصيًا جدًا وسراً، وبصراحة أميل إلى اعتباره شيئًا عزيزاً علينا صيانته تخيل نساء محمود سعيد؛ "خادمات نوبيات"، وهو أمر محزن، صحيح أنه استطاع خلق الطاقة الحيوية الغليظة التي يحبها. لكنهن خادمات. الأمر صعب، وما زلت حتى الآن أشعر بأن تجربتي ناقصة. الحكاية معقدة لن أتمكن من الحديث فيها.

بنات طنطا المحافظات لم تسمح واحدة منهن برسمها عارية، وعانت بعضهن من مشاكل بسبب رسم صورتها. حدث ذلك منذ زمن بعيد.

صورة البنت الفتوغرافية، جزء من كيانها يجب الحفاظ عليها بعيداً عن أيدي الشباب وإن تسربت وتناقلتها أياد غريبة، تصبح فضحية. كان ذلك الوقت بداية الجرأة والحرية، وربما كان أيضًا بداية الانغلاق، لا أعرف بالتحديد. هناك فترة من نهاية السبعينيات وبداية الثمانيات، مبشرة، فيها انطلاق وحس شبابي، أغاني منير "افتح زرار قميصي للنسمة والأماني"، وفرقة هاني شنودة، وفرقة عمار الشريعي، فورة، فيها جرأة ورغبة في الخروج. كنت أرسم الوجوه في تلك الفترة. رسمت بعض البنات، اعتماداً على القرابة أو المعرفة أو الدلع، وأخريات رسمتهن سراً، مقابل قبله وحضن، بعضهن أخذت الموضوع بتهور، كأنما لا يهمها، إن تناقلت صورتها الأيادي. أن تسمح لك فتاة برسمها يعني أن توافق على لمسها والتأمل فيها، وكان ذلك هو الجانب المرح والممتع في الحكاية، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد انتشرت سيرتي كرسام، وبدأت أتلقى طلبات للرسم من ستات بيوت ورجال في منتصف العمر، لو كنت أحسن التجارة لأصبحت رسامًا مشهوراً وعنده فلوس من هذه المهنة.

رسمت سيدات مسنات، وجاءت أمهات لرسم صور زيتيه لأبناء ماتوا في سن الشباب، وكبرت صوراً فوتوغرافية صغيرة لشباب سافروا وتركوا البلد نهائيًا، تحت إلحاح أمي التي تضعف أمام حزن الأمهات. كنت أقوم باستحضار الغائب، وتخليد المؤقت. هذه التجربة أتعبت روحي.

التفحص في الوجوه يرتبط بشكل خفي بميراث قديم، لم أقدر على فهمه إلا بعد ذلك بسنوات، عندما نسخت وجوه الفيوم. عشت هذا الجو الذي يحيط بوجوه الفيوم. تلك العيون ذات النظرة الخاوية التي تطل باستسلام على الأبدية. ذلك الطقس له حضور خفي أثناء رسم الوجوه، إنه يعيد سيرة الرسام القديم الذي كان يدخل البيوت محاطًا بجو من القداسة، فمهنته تصل بجذورها إلى رسم الوجوه على توابيت المياوات في مصر القديمة. يتم استقبال الفنان في البيت وتحيط بعملية تحضيره لأدواته طقوس تشبه الطقوس الدينية. يُنظر برهبة إلى قدرته على تجسيد الخلود. الشخص المرسوم يجلس أمامه مستسلمًا لمصيره، مأسوراً في شبكة من مشاعر غامضة، متهيبًا كأنه في يوم الحساب، ومنتظراً وجهه الذي سيطل عليه من داخل الصورة. لحظة غامضة؛ فجزء منه يفارقه الآن تحت ضربات فرشاة الرسام وينتقل إلى الصورة، وما يجسده الفنان ليس مجرد صورة، إنه الجزء المضيء منه الذي سيوضع على سطح التابوت ومن خلاله ستعرفه روحه وتعود به من ظلمات الموت

رسم الوجوه مرتبط بشكل ما باستعادة الحياة مرة أخرى، بالبعث. لا يختلف الأمر كثيراً عن وهمنا الحالي، بأننا سوف نزول بينما ستبقى صورنا، سنعيش في الصورة أكثر مما سنعيش في أجسادنا تملك الصورة من سمات الأبدية أكثر مما يملك الجسد. سيطرت عليّ تلك الهواجس والأجواء، التي لم أكن أعرف منها في ذلك الوقت المبكر، غير قلق غامض، وربما كانت تلك المشاعر بداية التوقف عن رسم الوجوه.

"عم عزيز" مترجم جريجي يسكن بيتًا عند ناصية شارع النحاس، يعرفني من أيام توزيع الكوبونات، ويقدر والدتي ويتحدث معي أحيانًا في الستينيات سافر أولاده ليقيموا في اليونان. رفض السفر معهم، قائلاً إنه ولد في هذه الأرض وسيموت فيها. اضطرت ابنته الصغيرة أن تبقى معه. سمع "عم عزيز" أنني "شاطر في البورتريه". رآني أمرّ من الشارع. كان يقف في الشرفة. ناداني وطلب مني أن أرسمه. قال: "لا بد أن ترسمني قبل أن أموت". ذهبت إلى بيته يوم جمعة في الصباح فتح لي غرفة الصالون الواسعة القديمة. نصبت الحامل وجلس أمامي ببدلته الكاملة. استغرق الرسم وقتًا طويلاً. كنت متوترًا؛ نظرة الرجل شاردة كأنه غير موجود. حاولت إنهاء الصورة رغم خشيتي ألا تكون بالجودة المطلوبة. بعد أن انتهيت، وقف عم عزيز أمام صورته وابتسم، وقبلني من جبيني، وفي نفس الليلة مات

أرهقتني هذه الحادثة وتوقفت عن رسم الوجوه.

تعبت من التحديق في الوجوه. تملصت من الرغبة التي أثارتها الرسوم في المدينة. هناك إغراء كامن في كل لحظة أن ترى نفسك في صورة. لقد تعبت، وكنت أحيانًا أحول الأمر إلى مزحة قائلاً إن من أرسمه سوف يموت مثل عم عزيز. خفت الطلبات أمام الإصرار على التوقف. لم يكن الأمر قرارًا واعيًا، كان قرارًا داخليًا، لا يمكن العمل ضده. كنت أقول لهم لن أتمكن من رسم أحد، أشعر بأنني السبب في موت عم عزيز. كانوا يضحكون، لكنها كانت الحقيقة.

طاقة الرسم التي تفتحت لم تتركني، تحركت بالقصور الذاتي. فكرت في رسم الأشياء ربما تكون أقل فداحة من رسم الوجوه. لكن الأشياء كائنات أيضًا، وهو مأزق، وإن بدا أخف، إلا أن له نفس الثقل. رسمت الكراسي والأبواب والنوافذ والشرفات والشموع والوابور، والوناسة.

الوناسة وحدها حكاية. تعلقت بها. أخرجتها من كرتونة في المطبخ، ووضعتها على سياج الشباك، ثم على ترابيزة صغيرة، واستغرقت في رسمها مبتعداً عن جو البيت. ألاحظ على الهامش جلوس أبي في الزقاق في انتظار مرسال فُتنة، والصخب الذي بدأت نادية تثيره، بعد أن أصبحت في سنة ثالثة إعدادي، مغرمة بالأغاني الجديدة، والصمت الذي تدبر به أمي شئونها، ابتداء من جولاتها في المدينة حتى عودتها في المساء، وجلوسها على الكنبة أمام التليفزيون. كل هذا يحدث بعيداً بجانب الحضور الملغز للوناسة. كان بها سر لا أقوى على فضه. تتحول على الدوام، وكل يوم تحمل انطباعاً جديداً، تنوع خطوطها والملامس المتعددة والتعرج والليونة في الخطوط، والوقوف تلك الوقفة الغريبة كأنها على وشك التحول إلى أنثى، كانت التجربة الأهم في تلك الفترة.

ذات مساء، خرجت أمي واصطحبت معها "نادية". فكرت أن أطفئ أنوار البيت، وأشعل الوناسة. عمرتها بالجاز، وأشعلت الفتيل، ووضعتها على المنضدة الصغيرة في وسط الصالة. ظهرت روحها. عملت على رسمها بسرعة في الظلام، بضربات سريعة متوترة، قبل أن تنقضي اللحظة. لم أكن

أرى الخطوط جيداً، كانت تحدث في خيالي، وأصابعي تنفذ وعداً قديمًا بالنور. الوناسة تهبني روحها، تبوح لي بالسر. كانت تجربة "خطيرة" (كما كنت أقول أيامها).

بعد ذلك راحت الأشياء تشير إلى الوجود الطيفي لها، وبدأت أستوعب وأتحمل وأبقى ساعات بلا طعام، مستغرقًا في الرسم. كانت لوثة إلى حد ما، أثارت ريبة من حولي، فأن تستغرق بالكامل في شيء لا يفهمه من حولك، يشكك في سلامة عقلك، لولا ذلك الحضور الضروري في الكلية وفي المدرسة الخاصة، كان يمكن أن أتحول إلى مجنون في نظرهم. كنت مستغرقًا تمامًا في رسم الأشياء، كأنما كنت أعالج الحس المأساوي الذي تركه في نفسي رسم الوجوه.

في الليل، عندما أغمض عيني لأنام، تهب الصور من رقدتها وتندفع إلى عرض في خيالي يتحول كل شيء ويأخذ سمة خاصة به، وإن كنت قد قضيت يومًا كاملاً في رسم كرسي على سبيل المثال، فإن الأشياء الأخرى التي أحاطت بالكرسي تشعر بالغيرة وتظهر لكي تريك نفسها. السجادة تطير وتتعلق على الحائط، براد الشاي ينبعج ويتحول إلى بطة غليظة تمط رقبتها، الأكواب الثلاثة على الصينية يتبادلون رقصة من رقصات المولد. عندما ينكشف لك الطابع الخاص لوجود الأشياء، ستصاب بلوثة، وعندما تكون وحدك تمامًا بلا معين أو رفيق فأنت في المتاهة لقد رق إحساسي بالأشياء حتى غدوت قادراً على رؤية الصور الطيفية لها. دبت الحيوية في

كل شيء وأصبح حيًا. كلما ترسم شيئًا تعقد بينك وبينه صلة خاصة، ويبوح لك بالسر: عشش الفراخ والكتاكيت والبط، وبوابة البيت والكراسي القديمة. لقد شعرت بالنور تحت الملامس الخشنة والسطوح المقشرة لخشب النوافذ.

بدد "رضا بولس" تلك الغلالة، عندما توقف ذات مساء بسيارته الجديدة على باب الزقاق وغمر الشارع بصوت الكلاكس، ونادى بطريقته المرحة: "يا يوسف يا تادرس لازم أموتك،" كان قد رأى الصور التي رسمتها في بيوت الأقارب، وجاء لكي يوبخني لأنني لم أرسمه. يومها درنا بالسيارة عدة دورات داخل المدينة وجلسنا في مقهى على الطريق السريع، واعتذرت له عن رسم صورته. كنت حزينًا لأنه كان أولى الأشخاص بالرسم. "رضا" هو صديقي الحقيقي، أخي الكبير، الملاك الحارس، يومها ـخجلاً من عدم قدرتي على رسم صورتهـ رحت أحكي له كل شيء، أفضي بكل أسراري. حكيت له عن خوفي، وعن الحادثة التي تعرضت لها في طفولتي، وعن الثعابين التي تطلع في نومي، والشعلة التي تبرق في جوف غرفة مظلمة، وأبي الذي تقوم بيني وبينه غلالة من الجفاء، لا يراني جيداً ولا أراه، وحكيت عن أمي، ورأيت ـأثناء الحكايةـ الثقل الذي تركته على ظهري، دون أن أنتبه. يومها قال "رضا" بطريقته الفذة في فهم جوهر المشكلة والاتجاه مباشرة إلى صلبها: "بهذه الطريقة لن تنفذ حلمها ولن تعيش حلمك" كان معجبًا بصور الوجوه، التي رآها عند أقاربه، وأدرك

بفطرته أن بها شيئًا حيًا، أو بداية تشكل. قال: "لا بد أن تعيش نفسك، هذا هو الطريق. أخلص لعملك وتمسك برسم الوجوه". لم أصدق كلامه وقتها، وتذكرته بعد ذلك بسنوات.

عدنا أصحابًا مرة أخرى. رأيت خطيبته وتحدثت معها. كنت أعرفها من بعيد، فهي قريبته، ويتندرون في العائلة أنا خطبته لنفسها عندما كانت في سنة رابعة ابتدائي. جلسنا في البيت الكبير للعائلة في شارع الفاتح ورأيت جدته الكبيرة، "رأس العائلة"، كما يسميها. سافرت معه إلى الإسكندرية خاليًا هذه المرة من حس القهر الذي جربته في المرة الأولى. كنت الآن حرًا، لاتملك المدينة سطوة عليّ، فلم أكن أريد منها شيئًا، أريد أن أصاحبها عدة أيام.

أحببت الإسكندرية مرة أخرى. تمشّينا في وسط البلد، دخلنا السينما، وتجولنا في الشوراع. شرح لي الطرز المعمارية للبيوت القديمة، وزرنا بعض المعارض. أسرتني لوحة "المدينة" لمحمود سعيد. تلك هي الصور التي أريد أن أرسمها. هذا هو جو أحلامي. كيف أصل إلى تلك المهارة والبصيرة التي تمكنني من رسم لوحة بهذ الشكل؟ كان الطريق طويلاً ورسم الوجوه بدا لي مثل لعب العيال بجانب صورة "محمود سعيد".

عدت إلى طنطا أشعر بأنني سوف أرسم مثل محمود سعيد، ولا أخفيك أنني شعرت بقدرتي على أن أرسم أحسن منه، فبعد تأمل، لم يعجبني الأسلوب العقلاني المرسوم به اللوحة، كأن أحدًا عرض عليه أن يرسم موضوعًا، مثل لوحة الجرينكا، مهما تحدثوا عن عبقريتها، أشعر بأنها خلق

صناعي؛ صحيح أن هؤلاء العباقرة يملكون قدرات خاصة تمكنهم من إنتاج صور فريدة، لكن فتنتي بصورة محمود سعيد تركزت في جو الصورة. أول مرة أرى الخيال مرسومًا، ليس بالطريقة الأوروبية في رسم الأساطير، حيث تُرسم الأساطير أو حكايات الكتاب المقدس بنفس الدقة التي يُرسم بها الواقع. الشخصيات تأخذ نفس الأحجام والصور لها نفس المنظور الذي نرى به الأشياء. المناخ في صورة محمود سعيد هو المسألة، الاختلاف عن منظور الحياة. تأمّل الحمار في اللوحة، أجمل حمار يمكن أن تراه إنه مغسول، لامع، مطرز، نازل للتو من خيال طفل، أو من حلم. استعادتي المستمرة لصورة محمود سعيد نبهني إلى الصور التي تهب في خيالي وقت النوم.

ذات يوم، قمت من النوم متأكدًا من أنه يمكنني أن أرسم صورًا لها روح صورة "المدينة". كنت قد تخرجت في الكلية وأنتظر تعييني مدرسًا للغة الإنجليزية. كان ذلك وقت مولد السيد البدوي. طنطا تصبح صاخبة. الحواري الصغيرة تمتلئ بالنساء والأطفال والعائلات، والبلد تأخذ طابعًا آخر. رسمت حارات مكتظة، مقاه وباعة ورايات وعربات كارو، لها سمة الصور الملتبسة في الأحلام. رسمت صورة أخرى لزفة السيد البدوي: الخليفة وحملة الرايات وطبقات الحرفيين، والناس على جانبي الطريق، وثالثة للمقام الأحمدي أخذ سمة عروس نائمة في لفات من الحرير الأبيض والأخضر، يحيط بها سياج من النحاس اللامع.

رحت أتأمل الصور مندهشًا من تلك الكائنات التي لم أعرف عنها شيئًا قبل رسمها. هذه الكائنات تكونت في السر دون معرفتي. وضعت اللوحات الثلاث على سياج النافذة، وجلست أمامها، لا أرغب في مفارقتهما وإن خرجت أريد أن أحملها معي. فرحت بالصور كأني قد حققت هدفي. فرحة إنتاج الصور له من القوة ما لفكرة إنجاب الطفل، إن الأمر يخصك، وجودك قد تجسد خارجك. كنا في منتصف الثمانينيات وكانت جماعة عنخ قد تفككت؛ سافر "حازم الشربيني" إلى الجزائر و"حسين سعيد" سافر ليعمل في القاهرة، ولم يتبقَ غير "بلال" الذي كان يعد نفسه أيضًا للسفر في إعارة إلى الإمارات ينتظرها بفارغ الصبر. كنت أريد أن يرى شخص ما رسومي، عين أخرى تنظر وتقدر هذه المخلوقات، عين خبيرة تساعدني على رؤية ما رسمت.

بعد يومين ذهبت إلى "بلال". صعدت إلى بيته. كانت له غرفة مستقلة تفتح على السلم فيها مكتب صغير وسرير سفري ومكتبة بها كتبه المفضلة ولوحة واحدة من بقايا مشروع التخرج. ظل ينظر إلى اللوحات صامتًا وينظر تجاهي، وبسمة باهتة تلوح على وجهه. بدأت أتوتر وأخاف، ثم بدأت أشعر بأنني في امتحان. نظرت إلى اللوحات معه، ورغم رجائي أن تكون ذات قيمة، إلا أنها فرغت تمامًا من بريقها، غدت سطحية وظهرت أخطاء رسم الشخوص والمنظور. فكرة الامتحان زادت الشعور بالضيق أخيراً تكلم "بلال" بطريقته المتمهلة، وقال إن الرؤى تتطور، لكن الاتزان لا يزال

مفقودًا، وأشار إلى مساحات من الكتل الداكنة وقال إنها ثقيلة جدًا في هذه الجهة. ثم راح يتحدث عن الثرثرة التي تعم الصور. "تريد أن تقول كل شيء في نفس واحد، هذا يخلق دوشة ولا يخلق صوتًا". تلاشى حسي بقيمة اللوحات، وتركته يتحدث عن أهمية اختيار العناصر، "لا يصح أن يرسم المرء كل شيء، إنه يرسم علامات وإشارات لا يرسم كل شيء"

أصبح الموقف فوق تحملي. سمعته يقول: "أنا آسف إن كنت قد أحبطتك، لكنها الحقيقة". من وجهة نظره فإن اللوحة الجيدة تكمن في الجانب الآخر، عكس ما رسمت في لوحاتي. لم أكن وقتها أمتلك من الخبرة ولا الاطلاع ما يمكنني من مناقشته. ملخص كلامه ترجم في فكري إلى: "يوسف تادرس لم يخلق لرسم اللوحات". لن أتمكن من هذا إلا عندما أجيد تلك العناصر التي تحدث عنها، وبعد هذا المران الطويل لا يمكنني أن أفعل أكثر من هذا. انتهى الأمر.

نزلت من بيته. كان الطريق معتمًا قليلاً عمود نور عند الناصية ينير بقعة صغيرة. طفل يلعب بالعجلة بجانب الرصيف. توقفت ونظرت إلى اللوحات. خلعت القماش من البرواز ومزقته، كان يشبه صوت شخص يضرط أثناء تمزيقه. ألقيت ما تبقى من اللوحات جانب عمود النور، ومضيت.

كان يومًا شتويًا، عبرت شارع النحاس مطلاً على الدنيا كأنها عادت من لحم حي، عادت إليها صلابتها بعد أن كانت هشة ورقية وبها سمة الحلم. عادت الكثافة إلى الأشياء والشوارع والعلاقات. وهم كبير، تبدد.

استيقظت من النوم والطين الذي جئت منه يناديني. سرت في شارع النحاس خفيفًا لا أعرف إن كان ما في قلبي فرح أم حزن، لكن المؤكد أنني كنت خفيفًا. مع اقترابي من كنيسة ماري جرجس اتضح حسي بالحرية، لم أعد مضطرًا أن أجلس بالساعات لرسم الأشياء أو الوجوه، لم أعد مضطرًا للتدريبات الطويلة المعقدة لدراسة مساقط النور. الحياة خفيفة الآن. شممت رائحة طعمية. دخلت مطعمًا صغيرًا وطلبت "ساندويتش". أطعم لقمة في حياتي، كنت أنصت إلى أغنية: "والنبي يا جميل حوش عني هواك"، تترد خافتة في أرجاء المحل الفقير، بمتعة صافية.

***

يقول يوسف تادرس:

تسلمت تعييني في مدرسة كفر الزيات الصناعية. كل يوم أركب القطار في السابعة صباحًا، وأعود في الثانية. العمل في مدرسة فنية والسفر في قطارات الدرجة الثالثة يزيد حسك بالاقتراب من الأرض. يحطم الصورة التي كونتها عن نفسك، وعن الدنيا في عزلتك. أنت كائن صغير مثل تلك الكائنات، لا فيك شيء مقدس ولا مميز، أنت واحد من آلاف يعيشون بلا صوت ولا أهمية. لا أحد ينتظر منك شيئًا، ولا يعول عليك، ويجب أن تعيش مثلهم. ترسبت تلك الرؤية وثقبت البالونة التي عشت فيها ما يقرب من عشر سنوات.

عندما تدخل فصولاً مكسرة الدكك، وترى زجاج النوافذ مثقوبًا، يحمل أثر الطوب الذي قذف به، والحوائط غابت تحت غلالة من عبارات الذكريات وإعلانات العصابات ورسائل الحب، وشباب شهواتهم تحت جلودهم مباشرة؛ شهوات الحب والعراك، تبدو لك المسئولية تجاه تعليمهم أمر عبثي. كان العالم الذي هبطت إليه عالمًا عبثيًا، وارتحت أن أكون "نفرًا" في هذا الشخبطة المترامية الأطراف. كان همّ الشباب أن ينتهوا من الدبلوم حتى يسافروا إلى أي دولة عربية. فكرة السفر سيطرت على الناس كلها في

الثمانينات. لم يكن العمل مرهقًا، لكن الوجود في الفصل كان أزمة يومية في مواجهة الرغبة المفرطة للطلبة في أن يكسروا القواعد، وأن يثبتوا أنفسهم في وجه سلطة المدرسة التي كنت أمثلها. لم يكن يعنيني الأمر. كنت مجرد موظف، يمرر وقت الحصة في أي شيء، حتى لو كان المزاح، وما إن يطلب مني أحد مدرسي العملي أن يأخذ الطلبة ليعملوا في الورش، أوافق على الفور وأستريح من العبء.

لمست الحس بالفوضى، وانغمرت فيه. كنت مستريحًا أن فكرة الرسم غابت. أحيانًا أثناء العودة في القطار يلفت نظري وجه فلاح أو ملامح كمسري وأرغب بشدة في رسمه، لكني أفض تلك السيرة مبكراً. في ذلك الوقت التحقت بمجموعة من الأصحاب يجتمعون في القهوة العثمانية. نوع آخر من التجمع خالٍ من تزمت جلسات جماعة عنخ، مجرد تجمع حر لشباب لهم نفس الطموح، كنت أعرف "سامي أبو زيد" مخرج المسرح في قصر الثقافة، فواظبت على الوجود بينهم كل مساء.

عالم القهوة العثمانية أكثر اتساعًا. ليست هناك معايير صارمة كتلك التي يطبقها "بلال" على اللوحات، فأغلب المجموعة من المهتمين بالمسرح والغناء. بعضهم يعد نفسه للعمل بالتمثيل في العاصمة وآخرون يعدون أنفسهم ليكونوا مخرجين بقامة يوسف شاهين، وكان هناك أيضًا بقايا شباب الحركات اليسارية الذين دخلوا السجن عام ١٩٧٧.

استمرت الحياة مفتوحة، تمر خالية يومًا بعد يوم، كأنها ستستمر هكذا أبدًا. الإحساس بالابتعاد عن الرسم جعلني خفيفًا، لكن في نفس الوقت كنت أبدو لهم كشخص غريب، ليس له في شيء، ولا يطمح إلى شيء. عرض علي "سامي أبوزيد" أن أعمل معه في إعداد ديكور مسرحية "مارا صاد". رفضت العرض، فلم أكن أريد أن أقترب مرة أخرى من هموم الفن، كنت أريد أن أظل على الشاطئ، تصله الأصداء. لكن الغريب أن الفراغ الذي تركه الرسم ظل يحوم هناك في الداخل، يتخفي ويظهر بطرق غريبة؛ مثلاً في تلك الفترة كتبت قصصًا قصيرة، عرضتها عليهم فأعجبتهم. كنت أضحك من تحمسهم لقصصي. لا يمكن، كل شيء مباح. قلت لك فوضى، حتى ماتت أمي بطريقة غريبة في الشارع، وحدها.

كانت في جمعية الكتاب المقدس. أنهت عملها وخرجت لكي تقوم ببعض المشاوير قبل أن تعود إلى البيت. سارت في شارع سليمان وقبل أن تصل إلى شارع علي مبارك، صدمتها عربية كارو، ذاهبة إلى سوق الجملة في غرب المدينة. تخيل!! عربية كارو، لكن الصدمة دفعتها، فوقعت على مؤخرة رأسها واصطدمت بحرف الرصيف. حصل لها نزيف في المخ. لم يعرفها أحد. لم يكن أحد في الجمعية في ذلك المساء. قالت امرأة عجوز تسكن في المنطقة أن اسمها "أم يوسف". أين يوسف؟ لم يكن أحد يعرف. نقلوها إلى مستشفى المنشاوي، وعندما وصلت إلى هناك كانت قد ماتت.

في ذلك المساء كنت في القهوة العثمانية، أتحدث مع "سامي أبو زيد" حول ديكور المسرحية، عندما دخل القهوة رجل يسأل عن "يوسف تادرس". تخيل، لا أتذكره، لا أتذكر منه أي ملمح. لكنني أحفظ الجملة التي قالها: "أنت يوسف؟ أمك في المنشاوي، عملت حادثة"، كأنها هبطت على وجداني دون أن يقولها أحد. تركت القهوة مسرعًا برفقة مجموعة من الشباب. المفاجأة أنها ماتت قبل وصولي.

جعلتني الفكرة غير قادر على التنفس. بحثت عن أحد معارفها، اتصلت برضا بولس، كان في الإسكندرية وبالدكتور هاني، وبكل الأقارب، لكي يعملوا شيئًا، كنت مجذوبًا لا أصدق الواقعة، ربما هناك خطأ ما، لا يمكن، لقد تركتها في البيت قبل أن أذهب إلى المقهى. لا بد أن هناك عبثًا في الأمر، لا بد أن تكون حية. في المستشفى قالوا إنهم أدخلوها المشرحة ولن يُسمح بخروجها إلا في الصباح، جلست على مصطبة حجرية جنب باب المشرحة، مصرًّا ألا أتركها وحدها تنام ليلتها في المشرحة، لكن الأقارب حملوني على العودة إلى البيت.

لم يكن أبي قد عرف الأمر، ورأيته يتغندر ويدخل البيت مناديًا البنت "نادية" بصوت مرح. يبدو أنني آذيته في ذلك المساء. يسامحني الرب، ربما أكون متعمدًا الإيذاء، عندما رأيته يدخل بجلبابه المزهّر، قلت له

"أمي ماتت".

قال وهو يبتعد عني كأنما يفلت من ضربة على رأسه:

" أمك؟ من؟ فُتنة؟ " .

قلت له : " أمي " .

قال : " الست أم يوسف؟ " .

نظر إليّ وأصبح لا يراني .

أدركت ذلك من طريقته في النظر إلى وجهي . عرفت أن الأشعة الباهتة التي كانت تضيء بصره توارت، وحل الظلام . حقيقة لقد تسببت في عماه بالكامل، مرة يوم الحادثة في طفولتي ومرة يوم إبلاغه بموت أمي

كيف تحملت تلك الفترة؟ كنت مثل الدائخ . لم أصدق ما حدث، كأن الأمر لا يخصني، كأنها في الجمعية وسوف تعود، ثم بدأ الخوف عندما عرفت يقينًا أنها لم تعد موجودة . أنا وحدي تمامًا . أكتشفت أنها كانت كل شيء، حسي بالاطمئنان كان ينبع منها، وعندما أصبح مؤكداً أنها غابت فعلاً، ولم تعد موجودة في أي مكان على سطح الأرض، غامت الدنيا وجفت . كلما تذكرت هذه الفترة أشعر بالحياة باهتة كأنها مريضة . كنت أنظر إلى "نادية" ، التي أصبحت في دبلوم التجارة، بلوم كأنها تخبئ أمي، كأنها تعرف مكانها ولا تريد أن تخبرني به . لم أكن أعرف أنها كانت تملأ الفضاء حولي بهذا الشكل، وأن وجودها هو الذي يهب حياتي معناها . الموت المفاجئ صعب . وقعت تحت هاجس أنهم أدخلوها المشرحة قبل أن تفارقها الروح، ولو سمحوا لي بالدخول عليها ربما كنت أيقظتها .

توقفت عن الذهاب إلى العمل. بعثوا لي إنذاراً بالفصل. هذه فترة قاسية. وجع. عرض عليّ الأب بولا أن أذهب في رحلة لأديرة وادي النطرون. تقريبًا أجبرني على الذهاب. كنت صامتًا طول الوقت، أشعر بطيفها في المكان. لا يمكن لشيء أن يعوض غيابها. هذا هو الجانب الموجع. لم أعد أستطيع النوم ولا اليقظة. لم يتبقَ لي غير دهشة مفتوحة الفم جاهزة لابتلاعي. فكرة المؤقت بدت غريبة وحاضرة حضوراً شاذًا في تلك الفترة، كل شيء مؤقت، في حالة تغير دائم، والحياة لهاث خلف أمور يمكن في لحظة أن تزول. كنت في الدوامة.

أمضيت هذه الأيام وحدي، لا أطيق كلمة من أحد. لا أحد يمكنه أن يقدم لي العون ولا حتى الرب. ابتعدت قليلاً عن الإيمان وشعرت بالضغينة تجاهه. كثيراً ما كنت أقول لنفسي لو كانت موجوده لأنبتك وأرجعتك إلى صوابك. هذا هو الفطام الحقيقي وليس يوم الإسكندرية، وإن لم أكن قادراً على تحمل الفطام يوم الإسكندرية فالحياة تجبرني الآن عليه. يجب أن أعيش وحدي، أختي الصغيرة في رقبتي، وأبي منهزم تحول إلى أعمى بشكل كامل، وفرصة أختي الكبيرة في الاستيلاء على كل شيء أصبحت سهلة. في الحقيقة لم يكن يعنيني أي شيء، تأخذ "فُتنة" ما تأخذ، تعبئ ما شاءت، لا شيء يمكنه أن يعيد أمي، لا شيء يمكنه أن يساعدني على الحياة.

يمكن لأصحاب التحليل النفسي أن يصفوا حالتي بمصطلحاتهم ويفسروا موضوع الفطام المتأخر، لكن تحليلاتهم لا تخص حياتي. أنت

تعرف، لم أخجل لحظة من تعلقي بها، وخفت من غيابها، لأنها أصبحت أكثر حضوراً، كأن غيابها منح حضورها كامل معناه. بدأت أتمثل طريقتها في النظر إلى الأمور وأتعجب من عمق فهمها عندما أتذكرها وهي تقول، ذات يوم، أثناء سيرنا في الشوارع لتوزيع الكوبونات: "الألم ملح العيش، كيف لنا أن نتذوق البهجة دون أن نعرف الألم؟". وقتها كانت حكمتها تتعب قلبي وكنت أسخر منها، لكن بعد رحيلها، أصبحت أعرف يقيناً أنها عاشت ما تعتقده وحسها الطيب ساعدها أن تهون أصعب الأمور وتتحمل الظلم بصبر، وتأخذ الجانب الطيب من كل شيء. بدأ كل ذلك يصحو، وشعرت بأنها تعود إليّ في شكل رغبة في تمثل حكمتها والعيش بها.

بمرور الوقت يخف الوجع، لكنني سأقول لك أمراً غريباً. هل تعرف أنني بعدما أفقت من الصدمة وعاينت اتساع الحياة بدأت أشعر برغبة حادة في الزواج؟ هذا موقف آخر يخص أصحابك مريدي التحليل النفسي. أصبح أمر الزواج مهما فجأة، وبدأت أكتشف وجود "جانيت" في البيت.

"جانيت" بنت عم "صبري شحاتة"، صاحب محل الخردوات، كانت ترافق "نادية" أختي طول الوقت، وتحوم حولي. لم أكن أراها قبل ذلك. بدأت أشعر بها. أدركت ميلها إليّ ونظرتها المتفحصة. وجدتها بالقرب مني، تهب عندما أطلب أي شيء، حتى لو كان كوباً من الشاي. لم تكن من البنات اللاتي رسمتهن، لكنها كانت صاحبة "نادية" منذ الطفولة. تخرجت في مدرسة التجارة وعملت في مديرية الإسكان. كانت

سمراء ذات غمزات على الخدين ووجهها له طعم جميل مرحة وخدومة وتحكي كثيراً عن نوادر أسرتها.

هل تجد تفسيراً لارتباط الحب بالموت؟ كأن الكائن يدافع عن نفسه أمام طيف التبدد. هل تظن الأمر على هذا النحو؟ ولماذا لم أرَ "جانيت" قبل ذلك؟ لماذا لم أرها إلا بعد أن ماتت أمي وبدأت أدرك في لحظة أن حياتي لن تستقيم ولن يكف فراغها عن التهامي حتى أتزوج؟

***

يقول يوسف تادرس:

تخيل!!

"نادية" أختي هي التي خطبت لي.

كانت "جانيت" تتأخر حتى الليل في بيتنا، وتطلب مني "نادية" أن أوصلها إلى بيتها في سوق الجبان. مشوار يومي كساه مرح "جانيت" ورغبتها في الزواج. هي التي بدأت كل شيء، هي التي أمسكت يدي، ومالت بصدرها حتى يلامس ذراعي، هي التي أجبرتني على الشعور بها، وحدثتني عن أنها تعرف كل شيء عني، ولا تريد أكثر من أن أنتبه إليها. ستعيش تخدمني طول عمرها. قلت لها: أنا فقير ليس معي غير مرتبي، وليس لي مهنة أخرى. قالت: أعرف، سأدبر البيت بأقل النفقات وسوف ندخر أيضًا. كنت أنصت إليها مخدرًا، ورغم ذلك لا يتوقف خوفي وترددي، حتى قالت "نادية" ذات يوم: "البنت هتتهبل عليك. أنت حجر؟" كنت خائفًا من الخطوة، لكن كما قلت، لك السخونة الأنثوية لجانيت أثارت الدم واللحم، وأخذت حياتي إلى المسار الذي سارت فيه حتى النهاية.

الأحداث الصغيرة هي الحياة لا تصدق أن هناك حوادث كبرى، كلها تفاصيل صغيرة، حتى الأحداث الكبرى نحن من نصنع منها أحداثًا كبرى عندما نرويها. الروايات هى التي تقيم الأحداث وتضع واحدًا أعلى من الآخر. من يصنع حكايتي الآن؟ أنا من يصنعها، من يصنف الحوادث، ويضع واحدة بارقة وواحدة معتمة، واحدة مهمة وأخرى غير مهمة، أما الحوادث نفسها فهي متساوية القيمة. لقد عُرض علي طلبات زواج كانت تعد فرصًا أفضل، من أيام تدريس الرسم في المدرسة الخاصة، وحتى حديث "رضا بولس" عن أن "سهير" بنت خاله تحبني وأنه مستعد للتوسط كي يتم الزواج دون طلبات كثيرة. يومها ضحكت وقلت له: "يا صاحبي لم أخلق للزواج". الآوان جاء في الفراغ الذي تركته "أم يوسف"، برحيلها العبثي، ثم بوجود "جانيت"، بحبها الذي لا حدود له، وجسمها اللدن وسمارها وغمازات الخدين مكمن حبي. هذا هو الطين الذي أحب أن أتمرغ فيه. جو العائلات لا يناسبني. في يوم عرسي، زفني "رضا بولس" زفة كبيرة وقال لي: "انت حر. شيل. هذا قرارك"، عندما كان يوصلني إلى شقتي الجديدة في ستوتة.

سكنت في ستوتة، في نهاية الثمانينات. المنطقة وحدها حكاية. بجوار كنيسة الملاك في شارع الحكمة هناك مكان واسع، كان منذ ثلاثين عامًا أرضًا بورًا، ملك "رزق قوسا" والمعلم "ميخائيل". "المعلم ميخائيل" كان له أغلب الأرض، هو الذي أنشأ الضاحية القبلية وتلك الحواري التي تحيط

بالكنيسة. يأتي إليه رجل، يشتري المتر بخمسين قرشًا، قطعة أرض صغيرة، تصلح لبيت من ثلاث غرف صغيرة. يدفع الرجل خمسين جنيهًا. يقول له "المعلم ميخائيل"، إنه يمكن أن يبني له. المباني سوف تتكلف كذا. في الشهر تدفع لي ثلاثة جنيهات مثلاً، ويقيم المعلم بيتًا من طابق واحد. سكن هناك الشعب كله، السريحة والعربجية وبائعوا الترمس والحمص وغيرهم، امتلكوا بيوتًا بفضل المعلم ميخائيل. لم يكن قد جاء الوقت الذي يصبح فيه المتر بالآلاف ما زال بيت المعلم ميخائيل موجوداً بجوار الكنيسة. بيت واسع على ناصيتين، واجهته جميلة، الجباسة ما زالت موجودة، وهو الذي تبرع للكنيسة بقطعة الأرض التي أقامت عليها المقابر.

في تلك المنطقة خلف كنيسة الملاك، سكنت في البيت الذي تعرفه. أختي "فُتنة" أجرت لي الشقة ودفعت "خلو الرجل". في ذلك الوقت كان هذا هو اسمه: "خلو رجل". لا تضحك. هذه الألفاظ أحبها، لها معنى، أفكر كثيراً في أشباهها. "خلو رجل" كررها، سوف تعرف شيئًا. "رضا" وهو يوصلني إلى شقتي قال لي: انت حر، كان زمانك سكنت في شارع النحاس، الآن تسكن وسط السريحة. قلت له: عشت في الزقاق وهنا أعيش وسط شعبي. ضحك. وكلما قابلني يمازحني:

" ما أخبار الشعب؟ "

" يسلم عليك يا أخ". أرد عليه.

الفترة الأولى من الزواج كانت سحرية، أعطتني "جانيت" كل ما تملك من حب. نمت في الحرير كما يقولون. شعرت بأنني لا أريد شيئًا أكثر من هذا. أسافر إلى كفر الزيات، وأعود إلى مسكني، أقضي مشاوير البيت ثم آخذ "جانيت" في حضني. أطلعتني تلك الفترة على المدى اللانهائي للشهوات، وعمق الحس الأرضي في أجسادنا، وجارتني "جانيت" في تلك الشهوات حتى بدأت بوادر الحمل الأول. كان مدهشًا بالنسبة لي أنني سوف أكون أبًا، أن أتحول إلى الخواحة تادرس. صحيح أمر غريب. كنت أنظر إلى بطن "جانيت" المنتفخة بتعجب. كائن آخر في الطريق، ولأنني أشعر بنوع خاص من القلق أمام فعل الخلق فقد أُخذت بهذه التجربة. كنت غير مصدق حتى جاء "ميشيل" بعد عام من زواجي وبدأت الحياة الحقة، المرمطة كما يقولون، انتبهت أن مدخراتي قد انتهت، بعد أن تزوجت "نادية" أختي.

بعد زواجي أصبحت "نادية" تقضى أغلب الوقت معنا في الشقة، وتعود في الليل إلى بيتنا في الزقاق. رآها في أحد الأعراس، شاب من القاهرة، كان في زيارة لأقاربه، يعمل في تجارة الجملة وله بيت ملك. زارني وأخبرني بأنه يعرف كل شيء عن العائلة ويريد "نادية" بحقيبتها. حقيقة، خفف عني بعض العبء، لكنها أختي ويجب أن أجهزها، إكرامًا للست "أم يوسف". ساعدتني "فُتنة" في الأمر. كانت "نادية" فرحة بخطوبتها؛ "نادية" فيها من طيبة أمي، ومن صفاء روحها، لكنها أنثى تحب الحب، وتريد أن تبني بيتًا، وتنجب أطفالاً.

بعد زواج "نادية" وميلاد "ميشيل"، اكتشفت أنني لا أملك شيئًا، ولم يعد المرتب يكفي مصاريف البيت. الأطفال لهم طلبات غير متوقعة. في تلك الفترة فكرت أن أحدث أبي في بيع البيت ربما يحل المشكلة. علاقتي ظلت متوترة به بعد موت أمي. هجر الزقاق منذ ذلك الوقت، وأصبح يعيش في بيت "فُتنة" في شارع الصاغة؛ لم يكن هناك أحد يعتني به حسب كلام أختي الكبيرة، عندما كانت "نادية" تجهز نفسها للزواج.

البيت في الزقاق أصبح خاليًا. أعطت "فُتنة" في السر مبالغ للسكان وأخرجتهم، وكما قلت لك دفعت لي "خلو الرجل" في الشقة التي أعيش فيها. كنت أظن أن الفلوس التي دفعتها سُلفة، وأنني بمجرد أن نبيع البيت سوف أرد لها المبلغ، ويتبقى معي مدخرات تساعدني على الحياة. لكن الأمر لم يكن على هذا النحو، في تدبير أختي الكبيرة. كان ما دفعَتْه في شقتي، هو حقي في بيت أبي، وما ساهمت به في تجهيز "نادية"، هو حقها، وانتهى الأمر من وجهة نظرها. عرفت ذلك بعد مناورات طويلة من الكلام معها، وعندما ضاق بي الحال ذهبت إلى أبي في بيت فُتنة أسأله عن الوضع.

قال ببساطة:

"بعته".

سألته: بعت البيت؟ بعته لمين؟

"لأختك فُتنة".

"دون أن تكلمني، كأنني لست ابنك".

قال بغضب.

"بيتي يا أخي وأنا حر فيه".

قلت:

"لو كانت أم يوسف عايشة كنت بعته من غير علمها، صح؟".

قال بزهق:

"بطل وجع دماغ. قلت لك بيتي وأنا حر فيه".

ذهبت إلى فُتنة، فقالت لي، هذه المرة، بصراحة:

"أخذت نصيبك"

"نصيبي؟".

"خلو الرجل في الشقة، خمسة آلاف جنيه، نصيبك في بيت أبيك".

"خمسة آلاف نصيبي في بيت بملحقاته في وسط البلد؟".

قالت:

"اسمع، أنا اشتريته بحر مالي".

ضاع حقي في بيت أبي. باع نصيبي لأختي الكبيرة، وهي لم تدفع له شيئا. ضحكت عليه بمبلغ وقالت إنها سوف تكمل له الباقي بمرور الوقت، واستعاضت عن الباقي بالجلابيب المزهّرة والرعاية. "الخواجة تادرس" لم يكن سهلاً، عرف كل ذلك وتركه يحدث، ولم يفكر فيّ ولا في أختي. كنت حزينًا لأنه حرمني من نصيبي ونصيب أمي من الشقاء. عاد الحس بالوحدة

كثيفًا ومرهقًا، خاصة عندما يكون عندك طفل صغير له طلبات. شعرت بأن كل شيء هباء وقبض الريح. لا تصدق تسميات أب، أخت، وغيرها، "كل واحد مربوط من عرقوبه" قالت لي فُتنة في ذلك اليوم.

لم يكن أمامي غير العمل بأي وسيلة. كان لي زملاء في المدرسة يعملون بعد الظهر في النقاشة. عملت معهم فترة، وانقطعت تمامًا عن القهوة العثمانية والأصدقاء القدامى. أذهب إلى المدرسة في الصباح وبعد الظهر أعمل في النقاشة، خاصة أن "جانيت" تعبت وأخذت إجازة من دون مرتب لرعاية الطفل. أصبحت الحياة محدودة جدًا، لم أرغب أن أذهب إلى الإسكندرية لأطلب من "رضا بولس"، الذي أقام شركة مقاولات كبيرة ومكتب هندسي، أن أعمل معه. لم أتمكن من ذلك. كان أهون بالنسبة لي أن أعمل في النقاشة عن العمل عند "رضا بولس"، لأنني أعرف أنه كان سيعطيني عملاً خفيفًا لكي يترك لى إعانة شهرية، وهذا مؤذ جدًا، لن أتحمله، حتى عندما عرف من بعض الأقارب أنني أعمل نقاشًا، عرض من بعيد، أن أمسك أعماله في طنطا وأشرف على العمارات التي يبنيها، لكنني رفضت. لقد عشت ما أردت، ودفعت الثمن وكنت أرغب أن أوفي مصاريف البيت فحسب.

كنت عائدًا من العمل في الثانية عشرة مساء، في الشتاء. كسلت أن ألبس ونزلت بهدوم الشغل. الدنيا ليل، وسوف أتمشى في الهواء، وأفك جسمي. قابلني "سامي أبوزيد"، عائدًا من القهوة العثمانية، انخطف عندما

رآني. "إيه يا عم يوسف؟" ضحكت وحولت الموضوع إلى هزار: "ملابس تنكرية". عبرنا نفق السكة الحديد، وتحدثنا عن القهوة والأصحاب، وسألني: لمَ قاطعت القهوة. قلت له: شغل. الولد الصغير له مطالب وزوجتي حملت مرة أخرى، حياة سخنة. كنا في أواسط التسعينيات، ورغم الإرهاق، لم أكن أشعر بأن ما أفعله به شيء غريب. كنت قد رضيت بحياتي تمامًا ونسيت كل شيء. قال سامي:

"انت بهدلت نفسك على الفاضي، لو رحت عند الهرم وقعدت ترسم السياح بالقلم الفحم لكسبت أكثر".

قلت مازحًا:

"صح ياسامي، الهرم جنب مقام السيد البدوي على طول".

دهشة "سامي" من تردي أحوالي، كانت غريبة، نبهتني إلى المسافة التي قطعتها مبتعداً عما يخصني. كان سامي مخرجًا في المسرح الإقليمي، يعمل في إدراة الجامعة، ويُخرج مسرحيات لمسرح الجامعة ولمسرح الثقافة الجماهيريه. بصراحة كان له فضل ـ مع بعض المخرجين في الأقاليم ـ الحفاظ على حب المسرح جيلاً بعد جيل. حافظوا على الجذوة حية، على الأقل الشباب الموهوب يجد في الجامعة مجالاً للتعبير عن نفسه. يومها رفض "سامي" أن يتركني حتى أحدثه عن أحوالي بالتفصيل. وقفنا طويلاً في ميدان ستوتة نتحدث. أقلقني تعجبه من منظري. فقد رجعت إلى البيت عدة مرات

بالملابس المتسخة من البوية، أخذت حمامًا وتعشيت ونمت في حضن "جانيت" بلا قلق، لماذا قلق سامي من منظري بهذا الشكل؟ لم أجد تفسيراً، غير أنه يرى خسارة في أن أضيع جهدي في تبييض الحيطان في الوقت الذي يمكنني أن أفعل بالجهد نفسه شيئًا آخر أكثر قيمة. هل كان الأمر على هذا النحو؟ لا أعرف، لكنه لم يتركني إلا بعد أن وعدته أن أمرّ عليه في مسرح المدينة في اليوم التالي. قال قبل أن يمضي: "تعال شوف الديكور".

في اليوم التالي كنت أقف في صالة المسرح، وكان "سامي" قد أعد كل شيء لكي يعطيني عمل ديكور المسرحية. لحظة يقظة مرة أخرى. عودة إلى مناخ "العثمانية" وجو النقاشات. جو الكلام بدلاً من الصمت ورائحة البوية في الشقق الجديدة. هناك شيء عنيد في تكويني، لا يفض نفسه بسهولة، لا يمنحني التفسير، عناد الخواجة تادرس ربما، يظل هناك قلق خفي لا أفهمه. لم أكن مرتاحًا للعمل في ديكور المسرحيات، كنت مستريحًا أكثر في دهان الشقق. الاقتراب من الفن به نوع غامض من المسئولية؛ يدب في المرء إحساس بأهمية ما، ونوع من التميز، ويبدأ القلق والتفكير، لكني لم أتمكن من أن أخذل "سامي". عملت معه عدة مسرحيات بعد ذلك. حاولت أن أؤدي، مبعداً نفسي عن التورط العاطفي قائلاً إنني أنفذ، لا أدخل في نقاشات، أتحدث معه حول المناظر، وأقترح بعض الرسوم وأذهب إلى ورشة الخشب وأتفق على اللوازم وأقوم بالتنفيذ.

في فترة "النقاشة" لم أكن حزينًا على هذا النحو. ماذا حدث لي عندما انتقلت للعمل في ديكور المسرحيات؟ هل أيقظ ذلك العمل حس الغبن والشفقة على النفس؟ فعلاً كنت ساكتًا وحزينًا بشكل ما. أشعر أنني على وشك البكاء. مهما حاولت تفسير الأمر لا أجد شيئًا غير هذا التعبير البسيط: "كانت نفسي صعبانة عليّ". كل من حولي يقدرون عملي، ويمدحون طريقة تنفيذ الديكور والقدرة على فهم الحالة الانفعالية وجعل الديكور مساعداً في خلق مناخ شعوري للموقف. كان هذا يعجبني ولكنه يزيدني حزنًا. كنت أفرح بجد، عندما أرجع إلى البيت وألعب مع ميشيل. أحمله على ظهري وأنزل إلى سوق ستوتة أشتري الخضار. كانت فترة فيها من المتناقضات ما أعجز عن فهمه.

مشكلة شغل الديكور أنه مواسم، بعد أن تنتهي المسابقات المسرحية تتوقف الحركة، وهي فلوس حكومة تتأخر في الصرف. ساعدني في تلك الفترة أن مكتب محاماة عرض عليّ أن أترجم بعض العقود. معرفتي باللغة الإنجليزية ليست عميقة، لكنها معقولة فأنجزت المطلوب، وبعض الباحثين في الجامعة أرسلوا، عن طريق سامي أيضًا، موضوعات للترجمة. ترجمت لهم فصولاً من الكتب التي يريدون أن يستخدموها في الأبحاث.

قد تكون رغبتي في البكاء في تلك الفترة هي حس داخلي بأن حياتي سارت في طريق خاطئ، ولا يمكنني إعادتها من البداية وتلافى الأخطاء. ربما يعود ذلك إلى تلك الفكرة الغريبة التي سيطرت عليّ، كأن مصيري كان

يمكن تغييره، لو نقلت نقلة مختلفة في دور الشطرنج الذي تلعبه معي الحياة. كنت متعبًا متعبًا. انتسبت إلى جمعية تدرس الكتاب المقدس، في طائفة غير طائفتي الدينية. عرف الأب بولا الأمر، وعاتبني، قلت له: "يا أبونا أنا لا أغير مذهبي، أنا أتعلم". قال: "يا يوسف أعرف أن مخلك كبير وتبحث عن المعرفة." قلت له: "لأ يا أبونا، أبحث عن سكينة الروح. صدقني أبحث عن روحي الضائعة."

لي طريقة غريبة في تمثل ما أقرأ. عندما أبدأ قراءة رواية، أتعرف من الصفحات الأولى على المدخل والمناخ، وبداية الصراع، ثم أغلق على نفسي عرفة الجلوس وأتمدد على الكنبة. أغمض عيني وأتخيل المنظر بالتفاصيل. أحاول أن أخمن مسار الأحداث، طبيعة الشخصيات ونتيجة الصراع. تمرين جميل يساعدني على حب ما أقرأ والانفعال به. جربت أن أعمل هذا مع الكتاب المقدس، بصراحة لم أتمكن. الكتاب المقدس له طاقة غريبة أخافتني، وصلت مع بعض الآيات لدرجة من الرعب، كان خيالي يلعب بي ويصور لي أموراً مرهقة.

جاء ابني "فادي" إلى الحياة بعد ثلاث سنوات من ميلاد "ميشيل"، ورغم ضيق ذات اليد، كما يقولون، لكن النهر يجري، والحياة تمشي، على السطح على الأقل. خذ بالك، هناك في الروح هوة عميقة تمور فيها تيارات غير مُدركة. لا تعجبك تلك الصور، ولا تطمئن لهذه الثنائية، لكن هذه هي التصورات التي تساعدني على فهم نفسي، من دونها أضيع. ولا أطمئن

لطريقة التفكير الخاصة بالأصل المادي لكل شيء. لست متعصبًا، هذه هي الطريقة التي فهمت بها نفسي.

فعلاً هناك هوة في الداخل، شيء غير مشبع، الحياة ناقصة، فيها شيء غير مكتمل، كل شيء على السطح معقول، لكن هناك يلوح شبح الفراغ. يعرف المرء ذلك في لحظات الاندماج التام، في لحظات الذروة من متع الحياة اليومية، مثل أن نكون أنا و"جانيت" قد أنهينا لحظة حب عميقة، أو عائدين من حفل زواج في الكنيسة، أو من قداس عيد الميلاد، عندها أشعر بالخلاء يحيط بروحي، ريح تصفر فيها، وأن الحياة هشة خفيفة، وتحضرني الغربة، وأرغب في البكاء. هل يمكن فهم الأمر على هذا النحو؟ سيظل الأمر غامضًا. هوة هناك تقول إن حياة المرء ناقصة، بلا معنى، وأنه وحيد بشكل نهائي.

***

يقول يوسف تادرس:

أقنعني أحد أقاربي، يعمل في الإدارة التعليمية، أن الأوان قد آن لأطلب نقلي إلى المدينة بعد أن أمضيت في العمل خارجها ما يقرب من عشر سنوات. كان الرجل طيبًا حريصًا على مستقبلي، وقال إن تدريس اللغة في المدارس الفنية يضيع اللغة، يجب أن أعود مدرسًا حقيقيًا في أي مدرسة في المدينة. كانت وجهة نظره معقولة، فلولا بعض أوراق الترجمة لفقدت اللغة.

نُقلت إلى مدرسة البنات الإعدادية بجانب كلية الآداب. هناك شيء في مدارس البنات أكثر حيوية، والتعليم العام أكثر جدية، إلى حد ما، من التعليم الفني. البلد كله يحتاج إلى هدم وبناء من الأول. المهم، في تلك المدرسة عشت قصة حب كادت تدمر حياتي.

غرفة اللغة الإنجليزية جنب غرفة الرسم، وبحكم الهوى القديم، انجذبت إلى غرفة الرسم، ووجدت ميلاً للجلوس وقتًا طويلاً مع "سناء" مدرسة الرسم. بمرور الوقت بدأت أعلق على اللوحات، دون قصد صدقني. بدأت "سناء" تنتبه وتنظر إليّ بتعجب، وسألتني ذات يوم إن كان لي في الرسم. قلت: كان زمان. لكنها حدقت في وجهي كأنها تتذكر شيئًا

وقالت: من أول ما شفتك وأنا أشعر بأنني أعرفك. قلت ضاحكًا: الأرواح جنود مجندة، وقمت إلى حصتي

بدأت الدوامات في الداخل تطن. الحس برغبة الأنثى بدأ يتفتح هناك، في أعماق الهوة التي حدثتك عنها. "سناء" من أنقى وأصدق من عرفت من النساء. نظرتها فاحصة، ومرحها خفيف رغم عصبيتها. لا تفعل أي شيء دون اقتناع، عنيدة بشكل لم أصادف مثله أبدًا. بنت محامٍ شهير في المدينة، وتحاول أن تعلم الرسم بطريقة جيدة، وترسم أحيانًا، لكن إمكانياتها عادية. ذات يوم كانت مشغولة في ترتيب أوراق البنات، وجدت نفسي أمسك ورقة وأرسم تخطيطًا سريعًا لملامحها. شعرَت أنني أرسمها فتوهج وجهها، وفي النهاية ضحكت. اقتربت وأخذت الورقة من يدي. نظرت، لحظات، باستغراق، كأنها تكتشف شيئًا كان غائبًا عنها ثم قالت: يخرب عقلك انت موهوب جدًا. دق الجرس، قلت لها: "لا موهوب ولا يحزنون، عندي حصة"، وقمت هاربًا من نظرتها لأدخل الفصل.

ألعاب الحب لها سحر أقوى من ممارسة الحب. واحد من أصحابي يقول هذا: الأمور الجميلة تحدث قبل أن نصل إلى السرير. ربما عنده حق. الحب طاقة، يمكنه أن يبدل حسك بالحياة، يجعلك شغوفًا أن تستيقظ في الصباح، مستقبلاً اليوم بترقب. يتحرك الزمن لا يصبح اليوم مثل سابقة. بصراحة أميل إلى تلك الألعاب. أحبها وأجيدها، بمجرد أن أشم رائحة

الأنثى التي أعرفها جيداً من أيام رسم الوجوه، يهيج كياني وأشعر بطاقة هائلة تسري في جسدي.

كانت "سناء" جريئة. أقبلت عليّ باندفاع، وبحس أنها وجدت أخيراً ما بحثت عنه. لم تكن تخفي اهتمامها، بل تجاهر به: "يوسف فنان كبير". كان ذلك يذهلني، ويمزقني في نفس الوقت. أصبح جلوسي في غرفة الرسم دائمًا عندما أنتهي من حصصي. بدأنا الحديث عن أنفسنا. كانت متخرجة في كلية التربية الفنية تمنت أن تدخل كلية الفنون الجميلة، لكن مجموعها في الثانوية كان ضعيفًا؛ فقد قضت الوقت في "الصياعة" كما قالت. أحبت الفن عندما بدأت تدرسه. في سنة ثالثة في كلية التربية الفنية ذهبت مع مجموعة من أصحابها في رحلة إلى الأقصر وأسوان. لم تكن قد رأت الآثار الفرعونية أبدًا. في هذه الرحلة تغيرت، وقضت عامًا كاملاً تدرس الرسوم الفرعونية. أحبت الفنون القديمة وسافرت أكثر من مرة إلى الأقصر، وعندها اسكتشات كثيرة نقلتها من على جدران المعابد. قالت لي إن علاقتها بالمعابد القديمة هي التي غيرتها. "هل تصدق لعنة الفراعنة؟" ضحكت وقالت. "كانت بالنسبة لي نعمة". وأكملت: "أحلم كثيرًا بالمعابد". صمتت وتندت عيناها بسائل شفاف. كانت منفعلة لسبب لا أعرفه، وقالت بجدية. "هذه تجربة خاصة لم أتحدث بها أبدًا لأحد. أنت أول إنسان أتحدث معه عن المعابد". واتفقنا أن نذهب إلى الأقصر وأسوان معًا في أقرب وقت، ربما تغير المعابد روحي كما غيرت روحها.

اندهشَت جداً عندما أخبرتها أنني تركت، بإرادتي، كلية الفنون بعد عام واحد. هتفت: لا يمكن!! لم تتمكن من تفهم الأسباب العائلية التي سقتها. لم تفهم كيف يمكن أن يفرط المرء في مستقبله بهذه السهولة. أبدت حزنًا على تركي كلية الفنون أكثر من حزني نفسه. كانت متعاطفة مع كل ما يخصني. ربطتني بها تلك اللهفة وذلك التعاطف مع قصصي. ورأت، رغم ذلك، أنني أدير حياتي بفهمي الخاص، واستنتجت من تركي لكلية الفنون، فكرة عن أنني إنسان لا يعبأ بالسير في الطرق المعتادة. لم يكن ذلك صحيحًا، لقد عشت طافيًا تحركني الحوادث مثل كرة البلياروود، ولكنني تركت "سناء" تكون لي صورة خيالية، استمتعت بها بعد سنوات الجفاف.

في ذلك الوقت من منتصف التسعينيات، أصبحت أغلب البنات محجبات وبدأ الفرز. لا أدري هل لذلك علاقة بموجة الإرهاب التي كانت ذروتها في حادث الأقصر؟ لكنني أعرف أن الحس العام نفسه بدأ يميل إلى التمييز. يبدو أن الناس قد تعبت من صعوبة العيش وسارت عكس ما تراه السلطات. بدأت أرى ذلك حتى في المنطقة المحيطة بي. أصبح المسيحيون يبحثون عن بيت يسكنه مسيحيون، وبعض المسلمين يرفضون سكن غير المسلمين. هذا الميل خطر جداً، لأنه لو امتد، ستجد مناطق مسيحية بالكامل وأخرى مسلمة بالكامل. لكن النعمة الإلهية مازالت تبارك هذه الأرض؛ تعمل بوهن صحيح، لكنها تعمل. مازلت تجد في بيوت المسلمين ساكنًا

مسيحيًا وفي بيوت المسيحيين ساكنًا مسلمًا. ما علينا، هذه الأمور مرهقة للروح.

كنت أريد أن أقول لك أن التمييز قد حدث، وأصبح كشف الشعر على سبيل المثال، علامة من علامات البنت المسيحية. لقد تعبت من النظرة التي ينظر بها الناس إلي عندما أنطق اسمي: "يوسف تادرس". ينظرون إليّ كأنني غريب، حط من عالم آخر. يتفحصون وجهي، يختلسون النظر إلى معصمي، حتى يشاهدوا الصليب الأزرق بجانب الوريد، فإن لم يجدوه، يستمرون في فحص كلامي ووجهي، وغالبًا ما أتورط في محاولاة عبثية لأثبت أنني مثلهم من نفس الحارات والشوارع، أتحدث نفس اللغة وأعرف ما يعرفون. ياه أمر متعب.

المهم، "سناء" لم تكن محجبة. كان شعرها طويلاً تربطه على شكل ذيل حصان، وتبدو في هيئة طلبة المدارس. روحها خفيفة لكن نظرتها عميقة جداً، يمكنها أن تذيبك لو ثبتت نظرها عليك. تخيل!! كنت أهرب من نظرتها. لا يمكن أن أتحمل. جسمي يفور وأجد أعضائي وقد تمددت. فضيحة يعني. هكذا منحتني الحياة تجربة لم تكن في الحسبان، أيام طيبة كانت تختبيء خلف الفراغ الذي خلفه موت أمي وتوهان روحي بين رائحة البوية في الشقق الواسعة الحديثة، وتجهيز ديكور المسرحيات، والحس العارم بالفراغ. كانت هناك "سناء" تنظر إليّ بعيون سمراء متفحصة، تواقة، تريد أن تجرب فاكهة محرمة. لن تصدق الشغف الذي عشت به تلك الفترة شغف حقيقي وحس بالامتلاء، كأنني أسير على الأرض ولم أعد معلقًا في

الفراغ. لكن المشاكل حدثت بسرعة قبل أن تكتمل الحكاية، بل ربما ساعدت هذه المشاكل الحكاية في الاكتمال والوصول إلى ذروتها.

جلوسي فترات طويلة في غرفة الرسم أثار الأقاويل، ثم بدأت أشعر بأنني مراقب في المدرسة. لم تكن "سناء" تعبأ بهذا، فهي لا تفعل أي شيء "غلط" من وجهة نظرها، وليس هناك ما يحرم الجلوس مع زميل له نفس الاهتمامات. هذا العناد أثار عداء مدرس ألعاب ملتحٍ، يرى بوضوح أنه لا حق لي في شيء، لأنني مسيحي. الحس بأنني مسيحي بدأ يطاردني في كل مكان. لم أشعر بهذا في طفولتي حتى أيام المقالب التي كان يدبرها شباب الزقاق لأبي لم يعد مدرس الألعاب يداري كراهيته، نظرته واضحة: "أنت نصراني"، وبدأت أشعر بتلك الأجواء التي حكت لي أمي عنها في نهاية الأربعينيات عندما عاد خالي من شبين هاربًا من العلامة التي وضعها الإخوان المسلمون على باب شقته.

رغم ذلك كنت مغموراً في حكايتي مع "سناء"، آخذًا كل ذلك بخفة، حتى بدأت مدرسة منقبة تتابعني، كلما رأتني أدخل غرفة الرسم تأتي بسرعة وتجلس معنا. تضاحكت مع "سناء" قائلاً لها إنهم يعتبرونك مسيحية لأنك غير محجبة. أكدت لي ما سمعته همسًا في محيط الأسرة عن أن هناك بعض المنقبات يطاردن الفتيات غير المحجبات. حكت عن واحدة من قريباتها، ركبت تاكسي من شارع سعيد. بعد قليل ركبت امرأة منقبة بجانبها، ونزلت بعد مسافة قصيرة مدعية أنها نسيت شيئًا مهمًا، وقبل أن تنزل شعرت قريبة

"سناء" بإبرة تشكها في فخذها. لم تدرك حقيقة الأمر إلا بعدما أحست بألم شديد. طلبت من السائق أن يعيدها إلى البيت وهناك اكتشفوا أنها قد حُقنت بسائل دمر لحم الفخذ وترك بقعة كبيرة متورمة، دخلت بسببها المستشفى لكي تعالج لعدة أيام. لو لم أسمع الحكاية من "سناء"، لما صدقت الأمر. هذا هو المناخ الذي أحاط حبي لسناء. ربما تلك الأجواء هي التي دفعتنا أن نشعر أن ما نعيشه تجربة فريدة يجب أن نحافظ عليها، ودفع حس "سناء" بالتحدي إلى أقصاه.

لم يتمكن هذا الحصار أن يوقف تعلق "سناء"، كما قلت لك، بل زاده. كانت مندفعة، كلما وجدت مانعًا حطمته. أصبح جلوسنا في المدرسة غير ممكن، بسبب المراقبة والحصار، فاقترحت أن نلتقي خارج المدرسة. كنت أشعر أحيانًا أن اندفاعها يمكن أن يجرني إلى طريق لست على قدره، لكني استسلمت لانتعاش روحي، وساعدني اندفاعها في التحرر قليلاً من مخاوفي. أخوك "يوسف" خواف، لكن الشجاعة معدية، فليحدث ما يحدث.

في الغالب تنقل الحكايات سيرة بنت مسيحية وقعت في حب شاب مسلم، ولا تذكر شيئًا عن البنات المسلمات اللاتي يقعن في حب شباب مسيحي، كأنه عار، الأنثى عار في بلادنا. سأقول لك، لقد كانت "سناء" فوق التصنفيات. كان مثيراً لها أكثر من أي شيء آخر، الإحساس بالفاكهة المحرمة، خاصة أنها رأت فيّ شيئًا لا أعرفه. قالت ذات يوم

"يا يوسف أنا لا أكف عن التفكير فيك، غريب جداً، وأحلم بك كل يوم، وأقول لنفسي لا يمكن، يوسف متزوج وعنده طفلان وهو على دين آخر. إن استطعت أن أوقف تفكيري في اليقظة تأتي لي في النوم تخيل؟ حلمت أمس حلمًا غريبًا. كان أبي قد مات وأنت جئت للعزاء والشيخ في الخيمة يقرأ سورة يوسف، ناديتك وخرجت لي سراً من شق بين قماش خيمة العزاء. هناك في منطقة مظلمة خلف الخيمة، غيطان واسعة، أحتضنتك كأني أمرأة العزيز كما تقول الآيات كنت خائفة أن أفقدك بعد أن وجدتك". شيء غريب، كان تعلقها، أحيانًا يحزنها ويصيبها بالدهشة، فتصمت وتطل من عينيها نظرة متحدية.

كان لسناء سيارة صغيرة بيضاء في ذلك الوقت. بعد الظهر تنتظرني في شارع محب خلف الحديقة العامة. أركب بجوارها، ونغادر المدينة. نسير على الطريق السريع. نتحدث في كل شيء. كان الحصار الذي ضرب علينا في المدرسة يشغل فكرنا، فكنا أثناء اليوم نتبادل كلمات عابرة، ونظرات من خلف ظهورهم كأننا مراهقان، وأحيانًا نتفق على مواعيدنا بسرعة أثناء تبادل التدريس في نفس الفصل، وبعد الظهر نحكي عما وصل إلينا من الهمس الذي يدور في المدرسة حول حكايتنا. كانت مندهشة من الحصار وتشعر بالإهانة من أنهم يراقبونها. قالت ذات يوم إنها كانت هكذا طول عمرها، عندما يحرمونها من شيء، تصر على فعله حتى لو أدى إلى كارثة. في غمرة الحب، لم أتبين معنى ودلالة تلك السمة من سمات "سناء".

عبرت الجملة وسط جمل كثيرة، لم أتوقف لكي أفهمها وأعرف ما أمر به، كنت مندفعًا.

أظن أن ذلك الحصار كان الوقود الذي أشعل تعلقنا، ودفع بمشاعرها إلى النهاية. "سناء" هي المرأة الوحيدة التي غازلتني صراحة. كنت أرى الإعجاب في عيون البنات في الكنيسة وأيام عملي في المدرسة الخاصة، ولكن الغزل الصريح لم يأتِ إلا من "سناء". كانت تحب شكلي، والغريب أنني طالما وجدت وجهي عبارة عن قناع، وجه بلاستيك لا يكشف عن حقيقتي، وهذا أمر آخر، سوف تأتي فترة أرسم فيها صوراً لا نهائية لأتخلص منه. أحيانًا تنظر إليّ وتصمت ثم تقول: "يوسف أنت عيونك جميلة جدًا، ولونها بيتغير على طول". "يوسف أنت ضحكتك جميلة". أحيانًا تعكس الأمر وتقول: "يوسف أنت بارد صح؟ وسكوتك مخيف، لا يعرف المرء أبدًا فيم تفكر".

كانت تسألني عن تفاصيل حياتي الشخصية وطريقة معاملتي لأولادي وتصرفاتي في البيت، كيف آكل وأعمل وأنام، وأحيانًا أشعر أنها تريد أن تعرف كيف أنام مع زوجتي. تسأل عن نوع النساء الذي أفضل، وطرق الحب التي أعرف. كل شيء شيق وجميل مع "سناء". كل شيء مبهج ومثير للحواس والحيوية. تخيل!! كانت هي التى تقود العلاقة، تقود حسي بها، تغرس نفسها في كياني بسبب هذا الإقبال الذي لم أجربه أبدًا، حتى حب "جانيت" لم يكن له هذا الطعم.

أحيانًا كنا نمضى بالسيارة على الطرق الفرعية، أحيانًا نصل إلى المنصورة أو كفر الزيات أو نقضي وقتًا طويلاً بجانب النيل في بنها. كانت تلك اللقاءات خطرة، فعدد من يقدن السيارات من النساء كان قليلاً في منتصف التسعينيات. تقول "سناء": "ولا يهمك، الحكاية هتتعرف هتتعرف، أبويا له معارف في كل مكان". هذا الحس بالخطر كان يحمسها ويدفعها إلى مزيد من التعلق.

الإنسان ضعيف أمام الحب، أمام الإقبال، وأن تكون مقصوداً بتلك الحماسة، لا بد أن تشعر بأنك تعيش قصة حبك الحقيقية. أتكلم معك الآن ببرود عن أهم ما حدث في تلك السنوات، بعد أن تلاشت الحماسة وبهت بريق الأحداث. الآن يمكنني أن أفهم وأقيم، وأختلق المعاذير لنفسي، لكن أيضا يمكنني أن أرى جيداً ما حدث. هذا الحب كاد يدمرني، والغريب أنه لم يكن أعمق حب من جانبي. كنت مبهوراً بسناء، باندفاعها ورغبتها، وتخيلت أنني أحبها، في الحقيقة كنت أشغل نفسي بها. أستعيد كلماتها ونبرة صوتها وهي تحكي عن حياتها وهي طفلة في مدرسة الأمريكان، وعن سفرها الدائم إلى الإسكندرية، في أشهر الصيف. استعيد حديثها بنفس طريقتها الحماسية، عن عمتها الحبيبة في المعادي في القاهرة. أقرب إنسان لها في الدنيا، كلما اختلفت مع أبيها، تترك البيت وتسافر إلى عمتها فترة حتى يسترد مزاجها صفاءه. أفكر طويلاً في رغبتها في حياة مختلفة، وأشعر بأنها لن تبقى في طنطا، سوف تسافر لا شك في ذلك، لكنها تنتظر حتى تنضج

الفكرة. كانت لها طريقة عصبية وحماسية في الكلام، تشعرك بأنها قادرة على فعل ما تقول، حسها نزق غاضب، وساخن طول الوقت. أحيانًا تكون رقيقة جدًا، وتصمت صمتًا كثيفًا، ولكن عندما أمسك كفها وأضمها يصبح صوت تنفسها سريعًا وعاليًا الشاهد أنها كانت تحبني، لكن حسها المتهور لم يكن يلائمني.

شعوري بأنها هي التي تقود العلاقة كان طيفًا تحت مشاعري بها، يوترني، ويثير قلقًا غير ظاهر، وأدركت، بشكل ما، أن مشاعرها تجاهي لاتخصني، بل تخص تمردها، لكن هذا الإدراك كان يرقد بعيدًا، حاجزًا شفافًا لا أكاد أراه، في الوقت الذي كنت فيه مندفعًا في المغامرة.

ذات يوم قالت إن أبي عرف أنني على علاقة بشاب، وأن لقاءاتنا يجب أن تخف، حتى لا نثير المشاكل قبل وقوعها. نأخذ فترة للتأمل حتى نحسب ما يحدث حولنا. تبادلنا أحاديث قصيرة في المدرسة، وظهر أن وقت اللعب قد فات وجاء وقت الجد. بدت "سناء" مهمومة. لم أكن أعرف ما تتعرض له. لم تحدثني في الأمر. كانت عصبية وعدوانية قليلاً. في تلك الفترة أدركت أن دفع نفسي للتعلق بها أصبح حقيقيًا، وشعرت أنني غارق في الحب، لا يمكنني أن أعود إلى الحياة الباردة قبل معرفتي بسناء.

كانت حياتي قد استقرت والأحداث تسير في الطريق المرسوم. بدأت "جانيت" تقيم مملكتها على عظامي، وتستخدمني كشغّيل، عليه أن يوفي مصاريف البيت، ويقوم بالطلبات، ولو لم أكن ملموسًا بالسحر لما أقلقني

الأمر، لو لم أكن قد رأيت الملائكة تنسج العصافير على قماش السجاد في ورشة جمعية الكتاب المقدس، لو لم أرَ الطبيعة الخفية للبشر خلف الوجوه، لو لم أعاين أطياف الأشياء خلف وجودها الساكن، كان يمكن أن تكون الحياة التي أعيشها كاملة، وكل فعل أقوم به كان سيأخذ معنى مختلفًا، كنت سأرى أنني أبني حياتي، وأكون أسرتي، وسوف تكون كل قطعة أثاث جديدة ندخر لكي نشتريها، فرحًا له طعم قبلة، سيكون انتقال ميشيل من الحضانة إلى الصف الأول الابتدائي حدثًا كبيرًا، ستكون تلك الأمور التي تركز عليها "جانيت" هي الحياة، أما والأمر لم يكن كذلك، فإن حسها بالتملك ورغبتها في صناعة الحياة شكلت عبأ لم أره إلا عندما قابلت "سناء"، ولأنني نرجسي بسبب تربية الست أم يوسف، فقد غدا الانصراف إلى الحياة وشئونها هو حرماني من المناخ العاطفي الذي أتوق إليه، وعندما لاحت الأنوار التي فاضت أثناء تعلقي بسناء، اندفعت، ما بالك وإن كان حب "سناء" لم يكن ضوءًا، كان عاصفة. كنت على وشك أن أفقد توازني فيه وأضيع.

في تلك الفترة تحول البيت إلى جحيم، ربما وصلت إلى "جانيت" أخبار ما يدور في المدرسة. لم أكن أعرف، فلها أقارب في الإدراة وفي المدرسة. كانت تنظر إليّ بصمت وتربص. في تلك اللحظات تصبح خطرة. "جانيت" قوة جبارة، لا يمكن فهمها. الأنثى الحقة، في حالة دفاعها عن حياتها. لا تتخيل الشراسة التي تمتلكها، يمكنها أن تدمرك، أنثى تدافع عن

كيانها كامرأة وبيتها وأولادها وحسها الديني، عن حياة كاملة، لا يمكن أن تتخيل مدى الصمت الثقيل الخطر الذي كانت تقابلني به، لكني كنت مشغولاً بالحب الذي راح يفرش نفسه في وجداني متخطيًا كل الحدود.

***

يقول يوسف تادرس:

غابت "سناء" عدة أيام عن المدرسة، وبدأت أشعر بالخطر؛ إحساس غامض مقلق يسري في الفضاء. كل يوم في الطريق إلى المدرسة أتمنى أن أجد "سناء" هناك، هي من سيسكت هذا الطنين. قالت لي زميلتها إنها سافرت إلى القاهرة. شعرت بأنها تدفعني إلى التفكير بجدية في علاقتنا، وأدركت أن الأمور قد وصلت إلى الحافة، وأن عليّ أن أفعل شيئًا، أن أحسم أمري، أن ألقي بنفسي في البحر، وليكن ما يكون. لم أعد أنام تقريبًا، أحيانًا أتوه ولا أعرف فيم أفكر.

كيف وصلت إلى الغريق في تلك العلاقة؟ أحيانًا أشعر بأنني ورطت نفسي في قصة "سناء"، دون قصد، فقد أخذت تتمدد في خيالي. تضخمت مضيئة ومبتلعة كل ما حولي من حياة، حتى أن "جانيت" عندما تطلب مني طلبات للبيت، أخرج وأعود من دونها، وتدب خناقة مثل كل يوم، لا أعبأ بها، وأدخل غرفتي وأشعر بأن الحياة توقفت عند "سناء" وطريقتها في الحكي والضحك وتوتر تنفسها أثناء القبل. هل كان تورطي في الموضوع هو مجرد طاقة راكدة أثارتها "سناء" باندفاعها؟

عرفت أن كنيسة الملاك تعد رحلة لدير "مار مينا" في مريوط اشتركت في الرحلة، قلت أستريح قليلاً، من هذا التوتر والخوف الغامض، وأتأمل الحب من بعيد، ربما أتخلص منه هناك. أصرت "جانيت" أن ترافقني. قلت لها: "أريد أن أكون وحدي". قالت: "لا تقلق، لن أزعجك، وسوف أترك الأولاد عند ماما".

ركبنا الأتوبيس في الصباح. كان يومًا من أيام نوفمبر. الهواء بارد، والطريق مضبب. كانت رحلة عائلية، أطفال وبنات صغار وصبيان وعجائز. رائحة كريمات الشعر والعطور، تعوم في جو الأتوبيس. أقلقني الجو الأسري، كأننا في رحلة مدرسية. كنت أريد أن أمشي الطريق على قدمي حتى أصل إلى مكان الآباء المقدسين، وأستغرق في التفكير بعيدًا عن كل ما يحيط بي. كنت، حقيقة، في لحظة فارقة، أريد أن أعرف ما أمرّ به وأقيمه وأفهمه. لكن ذلك لم يكن متاحًا، شعرت بالجو الصاخب الذي يتسبه جو الأعياد وازداد قلقي وتوتري.

"جانيت" تجلس بجواري، جسدها يلامس جسدي، ولا أشعر بأي شيء. انمحت مشاعري تجاهها، لكن مجرد تذكر "سناء" يشعل خيالي وجسدي. هل الشهوات أنواع؟ شهوة مظلمة وشهوة منيرة؟ الغريب أن شهوتي تجاه زوجتي تحولت بمرور الوقت إلى النوع المظلم، مجرد تفريغ سوائل، إنجاب أطفال، أما رغبتي في "سناء" فقد ظهرت ممتلئة بالنور. لا تندهش من هذه التعبيرات الدينية، لقد تعبت من نفسي، هذا هو الأمر.

شعرت بنور يشكل حسي بسناء، لكن الغريب أنني طلعت هذه الرحلة للتخلص من النور لأنه محرم وموصوم بالخطيئة.

اشتغرق الأتوبيس وقتًا طويلاً في الطريق. ظهرت قمم النخيل هناك على البعد وامتدت مساحات خالية من الأرض، تفصل قرى صغيرة عن بعضها. تلك البيوت هناك على البعد توحي للمسافر بحياة خالية من الهموم. يزيد حزني وأشعر بضعف لأنني لم أكن قد نمت ساعة واحدة. كان انتباه "جانيت" مركزًا عليّ. أشعر بهذا صدقني، وأعرف ما تفكر فيه بالكامل. جاءت هذه الرحلة لمراقبتي، أحاطتني من كل اتجاه. شعرت بالحصار وبالغضب، لم تشترني "جانيت" والحياة التي أعيشها أقمتها لأنني أردت ذلك. حاولت أكثر من مرة الحديث معي، لكنني أغلقت نفسي وصمت. لم أسمعها عندما قالت إن الجو سيكون حاراً هناك لم أنتبه إلى معنى الجملة فقلت إن الجو جميل وغرقت مرة أخرى في أفكاري.

وصل الأتوبيس إلى محيط الدير. ضوء شمس نوفمبر الباهت، انعكس على السور الخارجي، فبدى أكثر نقاءً مما كان في الطريق. في مرات كثيرة يثيرني لون الضوء وأحن إلى الرسم، لكن الأمر انتهى. عندما تدخل ديراً لتكون في حضرة الآباء المقدسين، يجب أن تترك ذاتك الدنيوية في الخارج، كما يقولون، تخلع ثوبك على باب الدير وتلبس ثوبًا آخر. المكان له طاقة؛ فالرب هناك في كل شيء ابتداء من لون الضوء وصوت الطيور ولمسة الهواء وهمس الرواد، حتى حركة الرهبان والتسابيح التي تشعر بها تسيل في الجو.

دخلنا من البوابة الكبيرة. شممت رائحة البخور الخافتة التي أحبها. كنت متأثراً بلون سور الدير الأصفر الذي ينعكس عليه ضوء الشمس باهتاً وحزيناً، مثل أفكاري. وقفت في ركن بعيد، أنظر إلى القلايات وإلى باحة الدير مستقطراً الجو الذي تمنيت أن يمنحني السكينة. الرهبان يمشون هنا وهناك، بعضهم يتبسط معك، ويحدثك وبعضهم جهم صلب، ينظر إلى وجههك بغرابة ويمضي، كنت أقدر هذا. أقدر ما يقومون به من إعراض عنا نحن أبناء الدنيا، فهم في جهاد لكي ينقوا أرواحهم من درن الحياة، يحاولون أن يحافظوا على شعلة الرب مضاءة، كما فعل أسلافهم منذ ألفي عام، يحملون مسئولية ألا ينطفئ نور الرب من على الأرض، ويتركوننا في عبث الأطفال والاحتفالات الفارغة ويمضون صامتين في مهتمهم الجليلة.

في كل مرة تزور الدير تسمح حكايات عن المعجزات. الجو المحيط بك يساعدك على التصديق. جو تسيل فيه القداسة؛ روائح الشموع، والبخور، والأيقونات، والزيوت المقدسة. الأمور الخارقة التي تحدث يمكن تصديقها في هذا المناخ، كأن للدير قوانين غير قوانين حياتنا. هناك، قوانين الطبيعة يمكن أن تتكسر، فهو مكان مقدس تتجسد فيه لمحة من الرب الذي خلق الأماكن والأزمنة.

وقفت على هامش مجموعة من الزوار ينصتون إلى راهب عجوز بوجه نحيل وصوت مسرسع يحكي بانبهار عن معجزة حدثت في الدير مؤخرا. اجتمع هنا تحت سقف هذا الدير مجموعة من الرهبان القدماء، بعضهم عاش

منذ مئات السنين، وبعضهم جاء من الصعيد. كانت ليلة غريبة لم يكن فيها قمر، السماء تضيؤها النجوم، لكن الأصوات كانت واضحة. أمر رئيس الدير أن يطفؤا الشموع. كان الرهبان القدماء يتباحثون في مسائل لاهوتية. تناقشوا طويلاً، ثم بدأوا يطلقون البخور، أنواع قديمة منه لم تعد موجودة الآن، وبدأوا صلوات بلغة غريبة وانطلقوا ينشدون التسابيح بتلك اللغة. راهب عجوز فسر لباقي الرهبان بعد انتهاء اللقاء ما حدث بالتفصيل فهو يعرف اللغات القديمة من أول السريانية والعبرية والآرامية والمصرية القديمة. كان حس هذه المعجزة حيًا عندما وصلنا، ورغم أنك تتشكك كثيراً في حدوث هذا بالطريقة التي يصف بها الأب الأمر، لكنه صعب أن تشكك في تصديقه هو نفسه لما حدث، يشبه هذا سيرة كل الأولياء وما حدث فيها من معجزات

دائمًا في تلك الرحلات ما أترك المرافقين وأنطلق وحدي، أدور في الدير. أنتظر نعمة خاصة. أحاول تمثل الجو الروحاني. في هذا التجوال كنت لا أزال أفكر في حبي لسناء، والغريب أنني وجدت حبي صالحًا للموافقة عليه من قبل الرب، وجدته غير مخالف للناموس. لست مخطئًا ولم أشعر في قلبي بالتحريم الذي كان طيفًا عقليًا يلوح خلف التعاليم التي أعرفها، أما في قلبي فقد كان من حقي أن أحب فتاة تحبني. لقد سموت بتصوري عن حب "سناء" إلى مرتبة أنه نسمة الحياة التي بدونها سوف أختنق، وإن قارن المرء بين الشقاء والسعادة، فلا بد أن ينحاز الدين إلى السعادة. لقد بدا لي حبي، أثناء تجولي في الدير واختلاس النظر إلى القلايات

ومراقبة حركة الرهبان، أنه روحاني رغم الميل الجسدي، لأنه في جوهره يطمح إلى ما فوق جسدي. لا شيء أقوى من الحب. الرب يسامح في المحبة.

أمام قبر البابا كرولس الذي يشبه، إلى حد ما، مقام الأولياء، رأيت امرأة ريفية تمسك ورقة وقلمًا وتطلب من شاب قصير بشارب كثيف أن يكتب لها رسالة لكي ترسلها للبابا. اندهش الشاب من الطلب، وبدا حائرًا بين رغبة الست وعدم قدرته على كتابة رسالتها. في النهاية أسعفته بديهته. سمتعه يقول للست الفلاحة إن هذا سر بينك وبين الأب، عليك أن تقوليه له وحده، لا يسمعه إنسان آخر. نظرت إليه المرأة حائرة. أخذ على عاتقه مهمة أن يرشدها: "اقتربي وقولي للأب رسالتك وسوف يسمعك". قالت المرأة بجدية: "لكني أريد أن أكتب له. الكلام يطير ويمكن أن يتوه ولا يصل، الكتابة أحسن، لن تضيع". قال الشاب باطمئنان: "قربي الورقة من فمك وقولي رسالتك وسوف تنطبع على الورقة، كأنها كتابة، بل ستكون أكثر من الكتابة لأنك لا تعرفينها". أنار وجه المرأة وابتسمت. أخذت ركنا بالقرب من الستر، وقربت الورقة من فمها وراحت تهمس مغمضة العينين، ثم اقتربت من المقام ودست الورقة داخل الستر. في تلك اللحظة عرفت ما جئت من أجله، ما كنت أبحث عنه، لقد جئت من أجل أكتب رسالة للبابا كرولس صاحب المعجزات. أخرجت من جيبي ورقة وقلما وكتبت: "أعرف أنك صاحب معجزات، أيها الأب المعظم، ساعدني في الخلاص من هذا القلب المعذب، ساعدني في القرب من "سناء"

والزواج منها، أنت قادر على هذه المعجزة، أنت قادر عليها أيها الأب المعظم" . ومررت الورقة تحت الستر .

كما كنت أراقب المرأة الريفية، كانت "جانيت" تراقبني، وجدتها إلى جانبي، لا أعرف من أين جاءت، رغم أنني تركتها مع أقاربها، وسألتني بتودد :

" ماذا طلبت من الأب المقدس؟ " .

قلت غاضبًا وقد بدا لي أن الرسالة قد تفسد بسبب هذا السؤال :

" طلبت منه أن يساعدني في النقل من المدرسة " .

شعرت بالحزن، والخوف، والدهشة من نفسي . كيف وصلت إلى هذا الحد من تصديق أمر غير معقول؟ كيف وصل بي الحال إلى هذا التعلق الخالي من العقل، وطلب مساعدة أعرف أنها مستحيلة؟ كيف أظن أن الأب المقدس يمكن أن يساعدني في أمر خارج الملة أصلاً؛ خيانة للدين؟ كيف يمكن أن تفسر هذا التناقض؟ قدراتي لا ترقى إلى فهم هذا، لكنني أحكي لك ما حدث، الغريب أنني شعرت بأن الأب المقدس سوف ينظر في الأمر، ليس من وجهة النظر الدينية، لكن من وجهة نظر قلب الإنسان. سوف يرى أنني لا أشعر بالتحريم من هذا الارتباط، وسوف يوافق على هذا لأن قلب المرء هو المعيار. ألا تقولون عندكم: "استفت قلبك؟" .

بعد عودتي من الدير، عشت في حالة السكينة التي يحتفظ بها الجسد بعد وجوده في الأماكن المباركة. أتطلع بحذر وأمل إلى الأيام القادمة، متوهمًا أن مسار الأحداث سيعود إلى ما كان عليه في الأشهر الماضية. لكن القلق هو الذي رجع بقوة، كلما دخلت المدرسة، وأحسست بأن "سناء" غير موجودة. قلق وحيرة وعجز عن السؤال عنها. مربك هذا الحس بأنك غير قادر على الاقتراب من أماكنها عادت مخاوفي، وحسي بأنني محاصر، لا أملك سندًا، حتى جاء اليوم الذي اقتربت مني زميلة "سناء" وأنا أقف أمام الفصل منتظرًا حصتي، وأبلغتني بأن "سناء" في القاهرة عند عمتها. وأنها سوف تنتظرني غدًا في العاشرة في محطة القطار.

في تلك الليلة حدثت خناقة كبيرة مع "جانيت" بسبب إهمالي وعدم اهتمامي بالبيت. يومها أخرجت بعض سمومها وقالت: "أنت أناني. عمري ما شفت شخص أناني بهذا الشكل". عندها حق، ربما لم أكن أرى غير نفسي، ولا أفكر في شيء آخر، ربما اختل التوازن مني وغدوت مأسورًا تجاه مشاعري، ناسيًا البيت، ناسيًا أن الأولاد كبروا، وأصبح لهم طلبات، أصبح "ميشيل" في الصف الثالث الابتدائي، و"جانيت" تظل مكفية تذاكر له دورسه وتراعي "فادي" في نفس الوقت. ربما كان عندها حق، ولكني اعتبرت أن ما أطلقته في تلك الليلة هو سمومها. المرأة كائن جبار لا يقدر عليه أحد. تركت البيت ومشيت في شارع المديرية، وجلست في مقهى في ميدان الساعة ثم رجعت آخر الليل بعد أن ناموا. بقيت مستيقظًا حتى

الصباح. لم يكن بيدي أنني لم أتمكن من التفكير في البيت، تفكيري كله مركز على "سناء". كنت أحاول تخمين ظروفها وما يحدث لها.

في اليوم التالي وصلت محطة مصر قبل العاشرة، جلست على الرصيف متوترًا، من التعب وقلة النوم، لكنني شعرت بطاقة ترقب وفرح، وحاولت تخمين كيف سيكون شكل "سناء" بعد هذه الفترة من الغياب. حانت العاشرة، مشيت باتجاه الصالة الواسعة التي تقود إلى الخارج، رأيت "سناء" تقف أمام كشك الجرائد تتفحص المجلات النسائية ذات الأوراق اللامعة المصقولة. في البداية بدا لي أنها مريضة. كانت ترتدي بنطلونًا واسعًا، وجاكيت نبيتي، وشعرها ملفوف على شكل كعكة. وقفت على مسافة قصيرة أتأملها دون أن تراني، عندما استدارت فوجئت بي أتطلع إليها، ابتسم وجهها كله، بسمة جميلة. عيونها السوداء برقت وتندت بسائل ظننته لمعانها العادي وقت الإثارة.

تركت المجلة النسائية، ووقفت أمامي مباشرة، كأنها سوف تلتصق بي، تتطلع بشغف إلى وجهي، وقالت وهي تسحبني من ذراعي، وتترك يدها معلقة هناك: "لا بد أن ترسم نفسك، حتى آخذ صورتك معي. تخيل نسيت ملامحك. عشرة أيام نسيت ملامحك وما بقي هو الانطباع". قلت لها: "كلنا ننسي الملامح ويظل انطباعنا بالشخص هو ما يشكل الملامح". توقفت مرة أخرى، ونظرت نظرة فاحصة جادة إلى وجهي كأنها تحاول حفظ الملامح في ذهنها. ظهر واضحًا أنها مريضة. وجهها شاحب. وتحيط عينيها هالات سوداء، وطرف أنفها محمر. سألتها:

" مالك؟ " .

قالت :

" كنت مريضة " .

افترضت أن عندها دور برد، ورحت أحكي لها، ونحن نخرج من المحطة، عن زيارة الدير. كان الجو باردا، والهواء عنيفًا يطير الأوراق وأكياس البلاستيك حول الأتوبيسات والميكروباصات في الميدان الواسع أفضيت لها بالسر، وحكيت بالتفصيل ما حدث معي أمام قبر البابا كيرلس. كنت أحاول أن أفهم تلك اللحظة العجيبة التي اقتديت فيها بالمرأة الريفية، ومن جهة أخرى أطمئنها حول حبي لها. ضحكنا على سذاجتي كيف يمكن أن يوافق الأب المعظم على مخالفة المبادئ التي قضى حياته من أجلها. لكن الحكاية ظلت وراء حركتنا طول اليوم، شاهداً على شيء عجيب يضمنا، تناقض من الصعب حله، وكنا من شقوق هذا التناقض نحاول أن نمتص رحيقًا نعرف أنه محرم ومؤقت.

مشينا حتى وسط البلد من الشوارع الجانبية التي تعرفها جيداً. هدأت زوابع التراب، وأصبح الجو فضيًا لامعًا. كانت تسير بجواري بجدية وسرعة، تسألني عن المدرسة وعما يحدث فيها. حكيت لها عما حدث أثناء غيابها ووصفت لها أملي وانتظار المعجزة في الأيام الماضية، وأطلت في وصف مشاعري. كانت صامتة خالية من المرح والانطلاق الذي كانت عليه أيام كنا نسافر في سيارتها. بدت جادة، صورة أخرى من صور "سناء"

تعرفت عليها ونحن نقطع إشارات المرور، ونتفادى الاصطدام بالناس على الأرصفة في شوارع وسط البلد التي تغص بالمارة.

جلسنا في محل في شارع طلعت حرب. نطل على تقاطع طرق تكدست فيه السيارات. جلست صامتة بعض الوقت، ونظرت إلى الخارج. طلبت منها أن تحكي لي ما يحدث معها. قالت: "لا أريد أن أتحدث في الأمر، ليس هذا وقته، اتركنا نستمتع بالوقت معًا، سيأتي الكلام وحده". قلت لها: "سأكون قلقًا، حدثيني عن الأمر بشكل عام". برقت عيناها، وظهر حزمها وحزنها في نفس الوقت، أمسكت فنجان الشاي وحركته ناحيتها، وأخبرتني بأنها تتعرض لضغوط من أبيها، وأنه عاقد العزم على أن يزوجها من قاضٍ شاب من عائلة من كبار القضاة حدث خلاف بينهما، فتركت البيت وجاءت لتقيم عند عمتها. كان يعرف كل شيء عنها. قالت: "تخيل؟ يعرف كل شيء، يعرف تفاصيل سفرياتنا، تخيل؟". انفلت منها الحديث واكتست ملامحها بالدهشة. لا تصدق أن أباها يتجسس عليها. زارها أمس في بيت عمتها، وهو مصر على رأيه وقال لها قبل أن يغادر البيت: "لم يعد لك خيار". نطقت الجملة بتنهيدة، وبحس بالغضب مكتوم، وبدهشة، كأنها لاتصدق أنها يمكن أن تكون عاجزة.

أثناء حكايتها لم تنظر إليّ، كما كانت تفعل في المدرسة، أو أثناء لقاءاتنا السابقة ترفع الفنجان وتتركه في يدها، وتنظر عبر الزجاج إلى الخارج. صمتت فجأة في منتصف الحكاية، وظلت على وضعها كأنها نست

وجودي، كأن صدى الكلمة ما زال يحيرها، كأنها لا تفهم ماذا يعني "لم يعد لك خيار".

لم أسألها عن تفاصيل أخرى، يكفي ماقالت. أظهرت قصتنا جانبها الجاد، وربما المخيف. بريق حاد وحس التحدي كان يلوح في عينيها في اللحظات الخاطفة التي توجه نظرها ناحيتي، كأن اليوم هو اللحظة التي تنتظرها. بصراحة كانت تعلق أملها على لقائنا في هذا اليوم، ربما كنت الملجأ الأخير لها. نظرت إليّ وابتسمت، وقالت: "الجو حر هنا"، وقامت لتخلع الجاكيت وعلقته على ظهر الكرسي. لمحت بقعة حمراء، على رقبتها، سألتها عنها، قالت: "أنت أخذت بالك؟" وشمرت ذارع البلوفر ورأيت بقعًا أخرى شبيهة منتشرة على الذراع. قالت ببساطة: "كل جسمي به هذه البقع"، ونظرت بجدية وقالت: "نوع من الحساسية يغمر جسمك عندما يضعونك في الخية". وضحكت. وترتنى الطريقة الساخرة التي تحدثت بها عن مرضها، ولم أعرف بالتحديد ماذا تريد "سناء"، خاصة أنها كالعادة لم تقل كلامًا واضحًا وتصرفت على أساس أننا تلاقينا لكي نقضي بعض الوقت معًا.

خرجنا إلى الشارع. كان الشمس غائبة. تجولنا في وسط البلد وتناولنا غداء خفيفًا في محل صغير، ووقفنا أمام الفترينات، وأمام السينما قالت فجأة:

"إيه رأيك ندخل سينما؟".

ابتسمت، وقالت:

"أي فيلم، ماشي؟".

شعرت بإرهاقها وتعبها. كانت فرحة مثل طفلة وهي تدخل من باب السينما وأصرت أن تمسك التذاكر وتعطيها للعامل، وصعدت بسرعة أمامي، كأن الفكرة المباغتة لدخول السينما أيقظت حيوتها التي طمرتها المشاكل. جلسنا على مقعدينا وحكت لي عن أن عمتها هي التي تشجعها، لو لم تجد سنداً من عمتها، لا تعرف ماذا كانت ستفعل، وعندما أظلمت الصالة وبدأ الفليم، أحتضنت ذراعي، وأسندت رأسها على كتفي. كنت أسمع صوت تنفسها واضحًا، وأشعر بها قريبة مني كأنها قطعة من كياني.

الإنسان غريب. لقد تعبت من نفسي حتى الموت. لكن ماذا أفعل؟ خلقت هكذا. العجينة التي خلقت منها لها تلك السمة الغريبة من الحيرة والتوتر، ماذا أفعل في نفسي؟ على العموم ليس هذا وقته، سوف أحكي لك عن ذلك في حكاية أخرى، سوف أحكي لك عن الفراغ، عن تبدل المشاعر الذي يشبه تبدل الفصول، لا تظن أنني من أنصار كل شيء باطل وقبض الريح، لا، لكنه التبدل المدوخ.

هذه اللحظة معذبة، حتى الآن غير قادر على تحملها ورغم أنني تخلصت بسرعة من حب "سناء" غير أن هذه اللحظة لا تموت. هذا هو الأمر، كيف يمكنك فهم هذا؟ "سناء" تحتضن ذراعي هناك حتى الآن في ظلمات السينما، تتعلق بي. لا يمكن أن أنسى رائحة ظلمات السينما، حيث

انتقلت رغبتها السرية في أن تكون معي وسكنت جسدي. هل السحر الموجود في هذه اللحظة هو العجز عن البقاء في حضرة الجمال لأنه غير محتمل؟ هل عدم التحمل هو ما يجعل لحظة من حياتك لها سمة الخلود؟

بعد قليل سمعت تنفسها ينتظم. كانت مغمضة العينين، انعكس ضوء الشاشة على وجهها فغدا حميلاً ومطمئنًا ومستغرقًا. لم أتابع الفيلم لم أفهم مشهداً واحداً منه، كنت حارسًا لنومها، ربما الشيء الوحيد الذي منحته لسناء، هو تلك الساعة من النوم في السينما. عندما أضيئت أنوار الصالة، تطلعت حولها بدهشة، وقضت لحظة حتى تعرفت على المكان، ومسحت وجهها بخجل، وقالت: "يا خبر!! أنا نمت" وبعد قليل عاد العبوس والجدية وهي تلم الجاكيت حول جسدها كأنما شعرت فجأة بالبرد. راقبت تبدلها عندما بدأنا الخروج من السينما برفقة رواد قلائل. بدا لي أنها قامت من حلم، وأنها سوف تعود إلى المعاناة التي لم تطلعني على تفاصيلها كاملة.

كان النهار قد بدأ في الرحيل، وظلت "سناء" مندهشة من أنها نامت في السينما، وقالت بحزن: "حلمت بك مرة ثانية". لم تنظر إليّ وأكملت: "لا يمكن، أنا كائن غريب، حلمت بك وأنت معي، تخيل؟ يبدو أن عقلي حدث فيه شيء، لست أنا "سناء"، أنا شخص آخر". وحكت لي أننا كنا نقف في شرفة قصر يطل على النيل، نرتدي ثيابًا فرعونية. كل شيء صامت في أنحاء القصر، ومن هناك رأينا محكمة المعبد، وأبوها يترافع غاضبا لابسًا الملابس اللامعة للقضاة، وصوته يصل إلينا، يتحدث عن حرية الإرادة،

وعن أن الآلهة لن تترك البشر يتصرفون في شئون الأرض على هواهم، لأنها لو فعلت ذلك فسوف تخرب الحياة.

كان قد بقي على ميعاد القطار ساعتين. سرنا صامتين باتجاه المحطة، وهناك في الكافتيريا، جلسنا نتحدث بجدية. هي التي فتحت الموضوع، وشرحته بالتفصيل. قالت بصراحة: "لا أريد أن أدمر حياتك، لقد كان ذلك اختياري، وأعرف أنني أحببتك باندفاع". قالت: "أنت متزوج، وعلى دين آخر، لن ينفع حتى أن أغير ديانتي لأتزوجك، لو اتفقنا طبعًا، وليس هناك غير أن تغير أنت ديانتك، وهذا أمر يعود إليك بالكامل، لا يمكنني أن أتحدث فيه، لكن هناك الجانب الذي لا تراه ولا تعرفه: أهلي، حتى لو حدث أن غيرت ديانتك وقبلت الزواج مني، أهلي لن يتركوني. أنت لا تعرف أبي. أهلي يمكنهم أن يفعلوا أي شيء حتى القتل. صمتت ونظرت إليّ ثم قالت "ليس هناك غير حل واحد، أن أسافر إلى الخارج، ولو أردت أن نعيش معًا، لو وجدت أن ذلك يناسبك، يمكنك أن تلحق بي. على العموم، عمتي تساعدني وبدأت فعلاً في تجهيز أوراقي".

نظرت بجدية وقالت: "فكر جيدًا".

وصفت المشكلة بحياد، كأنها تعبت من التفكير فيها. حسبتها على ورقة كمسألة رياضية. أخرسني هذا الحس الموضوعي. بصراحة كنت ألعب، وكنت أظن الموضوع خفيفًا حتى تلك اللحظة. لقد أخذَت المبادرة، ولم أعد قادرًا على التفكير في شيء الفكرة الوحيدة التي حطت عليّ، أنها

هي التي تدبر كل شيء. تفكر في الحب والسفر والإقامة، وأنا بعيد عائش في أحلام يقظتي، أضع رسائل للأب المعظم في ستر مقبرته.

في النهاية قالت إنها تعرف التضحية التي يمكن أضحيها لو قررت السفر إليها، لكن الأمر كله يتوقف عليّ، كما قالت مرة أخرى، وكررت أنها لا تجرؤ على مطالبتي بشيء، ولا تريد أن تخرب حياتي والقرار متروك لي بالكامل. كانت جادة تمر بأهم لحظة في حياتها، وبانت روحها التي لا تلين. ظهر نضجها الذي لم أكن أتصوره، في مغامراتنا الصبيانية على الطرق الزراعية. بدت الآن امرأة مكتملة، قادرة على إنقاذ نفسها. أعلنت عن حبها، لكنها غير قادرة على إجباري على مرافقتها. كان الأمر أكبر مني، حقيقة كان أكبر مني، على الأقل في تلك اللحظة.

نظرت في ساعتها وقالت. "باقي ربع ساعة على ميعاد القطار، لا أحب لحظات الوداع، سوف أمشي". أمسكت ورقة وكتب عليها رقم تليفون، وقالت: "هذا تليفون عمتي، اتصل بي في أي وقت". أرتدت الجاكيت وابتسمت: "لو سافرت إوعى تنساني". ومشت بسرعة بخطوات جادة دون أن تنظر خلفها.

هذا يوم فارق في حياتي. كل مشهد فيه محفور في ذهني. كل رائحة، كل لون، الطقس وصخب الشارع، نبرات الأصوات، كل شيء. سأظل طول عمري، أحب "سناء" وأحافظ على تأملي لتفاصيل هذا اليوم الغريب. إنه مثل النور في روحي. راجعت حكايتها مئات المرات، على

مدار السنين ورأيت أنني كنت مندفعًا ومبهوراً بها، كنت قلقًا طول الوقت، ولم أحبها بالقدر الكافي. بررت لنفسي تخاذلي بأنها أحبت تمردها أكثر مما أحبتني وأن الأمر كله لم يكن يخصني. ربما هذا سبب توقفي عن التعلق بها، اعتقادي أنني لم أكن في حياتها غير عامل مساعد، سوف تكمل رحلتها بي أو من غيري.

***

يقول يوسف تادرس:

بعد عودتي من القاهرة بيوم واحد، استدعيت للتحقيق، داخل المدرسة، في شكوى من المشرف بأنني أتأخر في دخول الحصص. بعد عدة أيام حققوا معي في شكوى أخرى من أنني لا أشرح جيداً. كل ذلك كان أمراً عاديًا، قابلته بحسن نية، وتبادلت المزاح مع وكيل المدرسة الذي قام بدور المحقق. لكن الأمر تطور عندما استدعتني مديرة المدرسة وأغلقت الباب وحدثتني عن أنهم وجدوا رسائل حب موجهة إلي من البنات، وأطلعتني على نموذج. لم أقرأ غير: "حبيبى يوسف". أخبرت مديرة المدرسة بأنه لا ذنب لي في ذلك. بنات المدرسة الإعدادية بالنسبة لي أطفال. لاحظت فعلاً تعلق بعضهن وتمحك أخريات، لكني كنت أضحك وأتعامل بود، وأحيانًا بجدية، وأحيانًا أهدد باستدعاء ولي الأمر. كن في نظري صغاراً، يمكن لواحدة منهن أن تتعلق بي، لكن أن يتحول هذا إلى سؤال من قبل المديرة فهو أمر ينذر بالخطر.

تبين الأمر بعد عدة أيام، عندما استدعيت إلى الشئون القانونية في الإدارة، بسبب شكوى من طالبات بأنني أتحدث في حصة اللغة الإنجليزية عن المسيح وأقرأ آيات من الإنجيل. أدركت أن هناك شيئًا يدبر لي، بجدية وبنظام

ورغم أنني شككت في مدرس الألعاب، غير أن الأمر كان أكبر، يتحرك فيه الموظفون في الإدارة والمديرية. لا بد أنه من شخصيات أكبر. أخذت الأمر بجدية وقلت للمحقق بأنني رفضت تدريس مادة الدين المسيحي للطالبات وتركته لإحدى زميلاتي لأنني غير ضليع في أمور الدين، ولو كنت أريد التبشير لذهبت إلى أفريقيا.

توترت حياتي، فقد شعرت بخطر كامن في الوجوه التي تقابلني في الصباح، وتربص في الصمت المحيط بي.

زارني في المدرسة محقق كبير من المديرية: الأستاذ "نعيم صبحي". كنت أعرفه، فهو رجل مهيب من أقارب "رضا بولس"، له مكانة كبيرة في الأسرة وفي الوظيفة. تركت لنا مديرة المدرسة الغرفة. أغلق الباب بتمهل وجلس أمامي. نظر إليّ نظرة فاحصة قبل أن يطلعني على الأمر. بدأ كلامه قائلاً: "أنت تعرفني وأنا أعرفك. من المستحيل أن أكون متحيزًا ضدك". هذه المقدمة خوفتني أكثر، وانتظرت. نظرته الثابتة الباردة إلى وجهي، أوحت إلي بأنّه جاء ينفذ طلبًا من رؤسائه، رغم أنه يحاول صياغته على شكل رسالة من شخص خائف عليّ. التقطت الأمر، وعرفت أنني وقعت في المصيدة؛ ليست "سناء" وحدها. أوضحت حكايته معنى الجو المتربص بي في المدرسة، وبدأت أفهم أمورًا كنت عاجزًا عن فهمها، مثل انصراف زملائي عني، وتحججهم بالانشغال.

طول عمري أعرف أن علامات حدوث أمر غريب، تظهر أول ما تظهر في انطباع وجوه النساء؛ حساسيتهن شديدة للغريب من الأمور، لا يتمكن من

إخفاء حب الاستطلاع. فهمت الآن، لِمَ كُنّ ينظرن إليّ باستغراب، عندما سمعت حكاية المحقق. أخبرنى أن قصتي طافت المدينة وانتشرت بصور مختلفة، ملخصها أن مدرسًا مسيحيًا أغوى فتاة مسلمة وغرر بها، وفي روايات أخرى اغتصبها وهي مضطرة أن تتزوجه. حكى التفاصيل الغريبة التي تمددت بها القصة في أرجاء المدارس، ثم انتقلت إلى البيوت، ووصلت إلى الرؤساء، ومثلت صدمة كبيرة للأجواء المحافظة للمدينة. كنت قد تحولت في القصة إلى شحص مرعب، شاب مسيحي يفتن البنات، وعليهم أن ينفوه بعيداً لأنه يمثل خطراً على المدينة الساكنة الهادئة المحافظة.

صمت الأستاذ "نعيم" ونظر إليّ. لاحظ توترى ومخاوفي التي لم أكن راغبًا في إخفائها. قال كأنه يقدم لي خدمة، إنه وجد حلاً للمشكلة. وطلب مني بصراحة أن أطلب نقلي لا من المدرسة فحسب، بل خارج المحافظة، فترة قصيرة حتى تهدأ الأمور، وهو يعدني بشرفة، أنه سوف يعيدني إلى أي مدرسة أريدها. كانت له طريقة ودودة ومحيرة، يتكلم كأنه خائف عليّ. أخبرني بضرورة الأمر، لأنني قد أتعرض لمتاعب لا أقدر عليها، لأن حكايتي أصبحت معروفة على أعلى المستويات في المديرية، ووصلت إلى ضابط أمن الدولة المسئول عن متابعة أحوال المدارس.

كان يتحدث بصوت خفيض، منظم الكلمات ويشرح الأبعاد التي لا أدركها. أخيراً تركزت كلماته في الخطر الذي قد يأتي من بعض الشباب المتحمس من الجماعات الدينية: "وأنت تعرف حساسية الأمر، يمكن أن تضيع". بدا حديثه صادقًا كأنه ينقل لي مخاوفه الخاصة، ويبدو أنني كنت قد

وصلت إلى درجة كبيرة من الهشاشة، فجلست أمامه مذهولاً، عندما حدثني عن "جانيت" زوجتي، وكيف ذهبت إلى الأب الكاهن وحدثت أقاربها في الأمر. في الحقيقة كان قد جاء يوحي إلى أنني محاصر، وقد نجح بأكثر مما يتصور.

تركني جالسًا في مكتب المديرة وانصرف.

تخيل أخاك "يوسف" المسكين أصبح مغوي البنات وقاهر قلوب العذارى. أرعبني هذا التمدد الذي لا يمكن حسابه لحكايتي. خفت حقيقة. لم أتمكن من القيام من فوق الكرسي بعدما شعرت بجرس المدرسة، وبصخب البنات أثناء الخروج، وبدت الصورة التي تركها لي الأستاذ "نعيم"، لكي أتأمل فيها، مرعبة. هو يعرف نقاط ضعفنا، يعرف ما نقوله في جلساتنا، وتجمعات العائلات في المساء، وبعد الخروج من الكنيسة. يعرف المخاوف الغامضة لنا ويعرف وتر الاضطهاد الحساس في روح كل منا. كان ذكيًا جداً، لأنني شعرت حقيقية بأنني ما إن أخرج من المدرسة حتى أجد شابًا من الشباب الملتحين يهجم عليّ ويطعنني طعنة نافذة، وأموت في الشارع بلا معنى مثل أمي.

متى تمكنت من القيام من على المقعد وغادرت المدرسة؟ كيف مشيت حتى وجدت نفسي جالسًا في قهوة في ميدان الساعة؟ لا أعرف. فتحت عيني على الخوف في الفضاء، يطل مع أشعة الشمس، ويأتي من صوت آذان

العصر، الذي يتردد في الميدان آتيًا من هناك، من تلك المنطقة التي لعبت فيها بجوار فرش الحمص وأنا صغير بالقرب من الجامع الأحمدي.

كل شيء أصبح مخيفًا، كنت أريد أن أمضي بعيدًا، أن أخفي هويتي، أخفي يوسف تادرس، من أي شخص يعرفه. الوساوس والهواجس طاردتني، حتى إنني مشيت إلى المحطة لأركب أي قطار وأغادر المدينة. على المحطة خفت، أيضًا؛ ربما هناك من يتبعني من لحظة خروجي من المدرسة. نزلت وسرت بعيداً، باتجاه الغيطان خلف المقابر، وسرت خارج المدينة. كانت موجة الرعب شديدة. أحيانًا أفيق، من هواجسي، وأحاول إيقافها، قائلاً: "ربما يخيفني الأستاذ نعيم، ربما يخيفني". لكن الرعب يعود بسرعة شديدة. هل كنت غائبًا إلى هذا الحد، عندما انتشرت الحكاية في المدينة؟ لا بد أن "الجماعات" تعقد الآن اجتماعًا سريًا لاغتيالي.

مررت على ترع وقرى، مشيت حتى شعرت بجسدي يتهاوى. جلست مسنداً ظهرى إلى جذع شجرة، وأغمضت عيني. جاء الليل وبرقت أنوار بعيدة خافتة على الطريق الفرعي الذي وجدت نفسي أعود منه. تأتي ميكروباصات مسرعة وتبطئ بجانبي فأخاف وأبتعد إلى حافة الطريق. وصلت إلى أطراف المدينة وقلت إن الليل ستار، وحاولت أن أعود إلى البيت من أكثر الطرق بعداً. دخلت من سكة المحلة، وسرت في طريق الجنبية، وعبرت تحت كوبري الميتين وقطعت كفرة العجيزي، مخترقًا جسر السكة الحديد حتى وصلت إلى الشارع. بدأ الخوف مرة أخرى خوف أكبر، ربما هناك من يكمن لي في مدخل أحد البيوت كنت أتطلع يمينًا ويساراً طول الطريق.

دخلت بيتي محاذراً. كنا قد أصبحنا في منتصف الليل تقريباً. صعدت السلم وطرقت باب الشقة. لم يرد أحد. قلت يمكن أن تكون "جانيت" نائمة. بحثت عن المفتاح في جيبي، وضعته في الكالون، وفتحت الباب، ولكنه لم يفتح. كانت "جانيت" قد أغلقت الباب بالترباس. ضغطت الجرس بعنف، لم يفتح أحد، مرة أخرى، مرة أخرى، رحت أطرق الباب بقبضتي بشكل جنوني: "افتحي يا بنت الكلب، افتحي، افتحي الباب، افتحي الباب". ما أعادني إلى نفسي هو سماعي لبكاء الأولاد في الداخل. رغم ذلك لم تتحرك "جانيت" وتفتح الباب. سمعت همساً على السلم. سمعت صوت باب شقة أم سعيد، ثم صوت انغلاقه. لم يعد يهمني شيء، في تلك اللحظة. كنت قد ضعت تماماً. فقدت التركيز والفهم. جلست على السلم ورحت أبكي كما لم أبكِ في حياتي. أبكي بصوت مسموع مثل الأطفال. نزل سعيد موظف المطاحن الذي يسكن في الطابق الثالث، وحاول أن يهدأني. تمالكت نفسي قليلاً، وقلت إنني نازل لأنام عند أختي فتنة، لكن ما إن وصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم، حتى جلست وأسندت ظهري إلى الحائط، واسترحت. لم أعد قادراً على الحركة، وبقيت في مكاني حتى الصباح.

البرد شديد، والصور لم تتركني حتى أثناء غفواتي. كنت أرى وجوها غريبة مشوهة وبنات رائعات الحسن يرقصن، قرى مهجورة، ونيران تشتعل، شوارع مدينة محربة ملعونة، أسير في شوراع قديمة، النوافذ تفتح

ويتطلع الناس خائفين مني ويتوارون بسرعة عندما يرونني، كأنني سبب اللعنة، ويطاردني الأطفال ويرجمونني بالطوب. أصعد ربوة عالية وأسمع صوت الغربان، أتطلع إلى السماء لعلي أجد الوعد، لكنها تكون مظلمة، ظلمة لا نهاية لها.

لا أعرف من أين جئت بالتماسك الذي ساعدني أن أذهب إلى المديرية في الصباح، وأدخل بشعري المنكوش وملابسي المتسخة قاصداً مكتب الأستاذ نعيم وعندما رآني، فتح عينيه مندهشًا، وقال لي "ماذا أصابك؟" قلت: "لا شيء"، وأخبرته بأنني أريد أن أنقل إلى أبعد مكان، أبعد مكان من هنا. قال: "تروح الطور في جنوب سيناء؟" قلت: "موافق". وبقيت جالسًا لا أقوى على القيام. أخيراً قلت:

"جانيت" لم تفتح لي الباب، أخبرها بأنني أريد أن آخذ حقيبتي".

لم أسامح "جانيت" على ما فعلته بي في تلك الليلة. لقد كنت في أحرج نقطة يمكن أن يصل إليها إنسان. من ينتقل من ديانة إلى أخرى، يجد ترحيبًا من جانب وعداوة من جانب، إلا في قصتي لقد وجدت عداء من الجانبين. أشعلت "جانيت" الحرب ضدي في الجانب الذي يفترض أن أجد فيه ملاذًا، وحرمتني السكينة. لم أسامحها. لن يقدر أحد على معرفة ما مررت به في ليلة الرعب هذه، كانت ليلة فاصلة في حياتي، لقد شعرت بأنني لا شيء تقريبًا، هباء.

***

يقول يوسف تادرس:

على كتفي هاندباج، أسير إلى محطة القطار. اخترت للسفر قطار الإسماعيلية البطيء الذي يمر بقرى السنطة وزفتي قبل أن يدخل الزقازيق، ومنها يترك الدلتا وينطلق شرقًا إلى الإسماعيلة. كنت متعبًا حتى النخاع. ليست كلمات، صدقنني ليست كلمات، لم أنم لمدة يومين، وأرهقت أعصابي التصورات والمخاوف، تقريبًا كنت على وشك الانهيار في اليوم الذي سافرت فيه إلى الطور.

أجلس بجوار النافذة، ينزل الناس ويصعدون؛ طلبة وفلاحون وبائعات في أسواق القرى، رجال من كل الأعمار، بؤس، تأتي المدن وتنزاح القرى بعيدًا. عالم واسع بشكل غريب، والروح ضيقة مجروحة من كل اتجاه. نعمة الرب عليّ أنني لم أجن في تلك المحنة. كنت مطرودًا من المدينة، من بيتي، خائفًا ومنبوذًا، كنت قد خذلت "سناء"، ولم أكن على قدر حلمها، وخذلت "جانيت" ولم أعد صالحًا كزوج.

في الإغفاءات القصيرة التي يسببها الاهتزاز الرتيب للقطار، رأيت أمي هناك في الجانب الآخر، وسرت معها في شوراع مليئة بالنور. فتحت عيني غاضبًا. كان الحلم فاسدًا منذ البداية، وكل ما حدث لي كان بسبب حكاية

ميلادي التي غرستها في عظامي. زيف ذلك الارتفاع عن سطح الحياة، والعيش كأن قدميك لا تطولان الأرض، ترفعك بالونة ملونة، تعيش فيها، كل ذلك أصله في حكاية الميلاد.

كنت أتعرف الآن على أنني لا شيء، وأخاطب نفسي: أنت كائن مرتبك صغير، لا تعرف حتى أن تدبر حياتك بسلام مثل نملة صغيرة. الحشرات والنمل أفضل منك، لأنهم يعرفون، ينطلقون إلى غاية حياتهم دون وهم، أما هذا السحر المغشوش الذي تركته حكايات الست أم يوسف فهو الطعام الذي سمم حياتك.

الكلمات أحيانًا لا يمكنها أن تنقل الخبرة لا، غالبًا لا تنقل الخبرة، تشير إليها فحسب. حسي بالطرد والنبذ والصغر الذي جربته في هذا اليوم كان مرًا، لا يمكن التعبير عنه إلا بلفظ "مر"، كيف هذا؟ سأقول لك، لقد مررت بتجربة غريبة في ذلك اليوم قبل أن أصعد إلى رصيف المحطة، من الصعب وصفها. سأحاول.

كنت أمشي في الحواري الضيقة منفصلاً عن كل شيء، رأيت وأنا أقترب من المحطة أنها النهاية، ونظرت حولي، وجدتني غير فاهم لما يدور حولي. ما هذا؟ من أنا؟ أنظر إلى كل شيء بغرابة. هذا شارع، ماذا يعني شارع؟ هؤلاء بشر، ماذا يعني بشر؟ هذا بائع حمص، ماذا يعني حمص؟ انفصلت المعاني على الأشياء وغدا كل شيء بلا هوية، عجينة الخلق قبل الخلق. أصوات، أجسام، أشياء، مبانٍ، وهكذا.

هل يمكن أن تساوي هذه الكلمات ما عشته. لا يمكن طبعًا، لأنني أرتعش حتى الآن كلما تذكرت لحظة الجحيم هذه. الألفة التي نشعر بها تجاه الأشياء تمنحنا الطمأنينة؛ فنحن في مكاننا، أما أن تدرك أنك لست في مكانك، وكل شيء غريب عنك غربة الكواكب البعيدة، فهو أمر لا يحتمل. اسمع، الحياة أمر غريب، لقد كنت أرتعش وعلى وشك التبدد في هذا اليوم. لكنّ هناك شيئًا في الإنسان يعمل معه. أتعرف ما الذي فض الغرابة وأعاد إلى الأشياء حسها المألوف؟ سؤال بسيط همس به خاطر: لماذا لم تركب بيجو، أسرع وأحسن؟ هذا السؤال الساخر المازح الذي طن في ذهني أعاد إلى الأشياء عاديتها. أمر غريب، صح؟ عقلي كان يعمل بمعزل عني، فقد رد صوت آخر على السؤال بإجابة مقنعة، كأنهما يعيشان بعيدًا عن هذا الكائن الذي يحملهما: سيارات الأجرة مثل علب السردين، الفضاء فيها محدود، في القطار الفضاء أكثر رحابة يمكنني من أن أكون وحدي هذه الأصوات المتحاورة في كياني أعادت إليّ بعض اتزاني رغم أنها الآن تبدو لي كافية لتدفع المرء للجنون لو تأملها جيدًا. يومها حدث العكس، ورحت أتابع التفكير: يعني أنا ما زلت هنا، أرغب وأختار حتى لو لم أكن في كامل وعيي. كان هذا اليوم صعبًا، كنت وحيدًا تمامًا، لم أكن أبدًا بهذه الوحدة في يوم من الأيام، وأنا أخاف الهجر، حتى إن كلمة "وحدة" تصيبني بقشعريرة لا أحتملها.

وصلت الإسماعيلية وركبت سيارة بيجو إلى الطور، في جيبي أوراق نقلي. وصلت في الليل. المدينة صامتة. لن أكون مبالغًا إن قلت إنني ارتحت بمجرد وصولي إلى تلك النقطة البعيدة. لم يكن البعد مكانيًا فحسب، بل نفسيًا أيضًا. تحسست بوعيي الباطني ملامح المدينة في الليل وشبح الجبل البعيد، والشوارع الواسعة ذات البيوت الواطئة. سكنت روحي الآن، والغفوات التي نلتها في المواصلات ساعدتني على التماسك. نمت على باب الإدارة التعليمية حتى الصباح. فتح الباب عامل من الصعيد، وقادني إلى مكتب المدير العام. سلمته أوراق النقل، وتعرفت على سكرتير من طنطا دعاني أن أقيم في شقته حتى أدبر أمر السكن. عندما جاء الليل كنت قد سكنت شقة مكونة من ثلاث غرف في بيت منعزل بعيداً عن البحر، مع عدد من المدرسين. أصبحت الآن بعيداً عن حياتي. نمت من فوري حتى الصباح.

في المدرسة، الفصول خالية، عدد التلاميذ قليل، والصمت واسع عميق، يسمح للروح أن تتأمل ارتباكها وتعيد توزانها. انفثأت البالونة وأصبحت خاليًا بلا حمل، غير ألم الهجر والخذلان، حتى هذا الألم بمرور الأيام غدا تصوراً، ولم يعد يعض في القلب كما كان في الأيام الأولى. كنت صامتًا كأني فقدت القدرة على الكلام. أتحرك كشبح بين زملائي. الوقت طويل ممتد والبحر في المساء يشبه مرآة مصقولة، بحر راكد يأخذ حيويته من الجبل ومن الحس العميق بالقدم.

قضيت أيامي شارداً، مستسلمًا لأفكاري. بدأت الصور تتضح ومخاوفي تقل، وجسدي يعود إلى طبيعته ببطء، لكنّ حزنًا مثل الطيف ظل يلمس كل شيء. الخلاص من النبذ والخذلان ليس سهلاً. يخيل إليك أنك تخلصت منه، لكنه موجود وراء الحوادث، يظهر لك وجهه الكشر في قلب ضحكة على نكتة قالها زميل، في حلم مربك لا تعرف مصدره، هناك يظل كامنًا في الروح مثل ورم لا تشعر به إلا عندما يُلمس.

منذ اليوم الأول وضعت مسافة بيني وبين زملائي في المدرسة والشقة، أو هي كانت موجودة بسبب الآلام التي كنت أمرّ بها. أغلب الوقت قضيته جالسًا أمام البحر، أو ماشيًا حتى أتعب. لا تسألني فيما كنت أفكر. لن أتمكن من الإجابة. سألت نفسي هذا السؤال، لم أجد غير مشاهد من حياتي، التي غدت بعيدة، وجع يطن في القلب عندما أتذكر "سناء"، ووجهها في آخر يوم. البعد يؤثر. المسافات تجعل الألم كأنه صورة.

مكتبة المدرسة بها مجموعات قليلة من الكتب، أصبحت أداتي لأهرب من الألم. قرأت أغلبها. بدأت بالترتيب، من كتب الدين والفلسفة وانتهيت بكتب التاريخ، لكن المشي ظل أكثر جاذبية من القراءة. المشي يهدئ الروح قليلاً. أعود إلى الشقة بعد العشاء، آكل لقمة وأنام حتى الصباح. رغم ذلك لا يتركك القلق.

هناك في هذا البعد، طاردتني مسيحيتي أيضًا، لم تتركني لحظة واحدة، إنها لون بشرتي وملامح وجهي، علامة تطل من جبيني واضحة،

لم يعد هناك حاجة الآن لوسمي بالعلامات التي كان يوسم بها جدودي في الأزمان القديمة. كنت المسيحي الوحيد في الشقة، والمدرسة، وخيّل إليّ أنني المسيحي الوحيد في الدنيا. تراثنا يساعدني على فهم الأمر وتقبله وحمله على أنه صليبي وخلاصي، لكن التعب دمر الروح ولم أكن قادراً على كل هذا. كنت ضائعًا بلا وزن تقريبًا في الأشهر الأولى من إقامتي في الطور، غريبًا، هشًا، أري بعيني الهوة التي تفصلني عن كل من حولي، عندما يتصادف أن أكون في الشقة وقت المغرب، ويتجمع رفاقي للصلاة في الصالة، هنا تظهر الهوة، وأشعر بالغربة، وعندما يعدون الغذاء، ليتناولوه معًا. كنت أعرف ما يقال عن أكل المسيحين ورائحته، فعزلت نفسي وأكلت وحدي. لم أتطفل على حياتهم، ولم أحاول إزعاجهم. هذه حياة متعبة أيضًا كأنك تمشي على قشر بيض. تراعي طول الوقت أناسًا لا يرون إلا أنك غريب. هذا صعب، لكني لم أشغل بالي به. كانوا شبابًا من الريف، في نفس عمري تقريبًا، طيبين ومتدينين. تركوا قراهم من أجل راتب أعلى، أو من أجل الحصول على الترقيات السريعة، أو لأن الوجود في المناطق النائية يتيح دوراً أسرع في الإعارات.

انقضت الأيام في البداية ببطء وتوجس من جانب رفاقي في الشقة ثم بمرور الوقت بدأت الألفة ثم السلام، وتدريجيًا اقتربوا مني، وهذا أمر محير، أصبحوا يثقون فيّ، يستشيرونني في بعض الأمور، ثم يحكون لي مشالكهم الصغيرة، ويحكمونني بينهم، غالبًا ما يحدث لي هذا، ثم يتطور الأمر حتى أصل إلى أن أكون مكمن سر من حولي. لم أفهم هذا الأمر أبدًا. أحلفك

بأعلى ما عندك: لم يحدث لي ذلك؟ لِمَ أصل في علاقتي بأي شخص إلى أن أكون محط سره؟ هل هو الصمت والتقبل؟ هل هو عدم إصدار أحكام؟ كل هذا كلام، ولكن لماذا يثقون في إلى هذا الحد، حتى أن الدهشة تصيبني وأشك أن فيّ شيئًا غريبًا؟ ماذا في هذا الوجه وهذه الروح حتى يظن الناس أنه مكان آمن لترك أسرارهم؟ وحتى أحلامهم كانوا يحكونها لي، لا أعرف من أين جاءوا بهذه الثقة، ومن جانبي كنت مريضًا وصلت إلى القاع، وظننت أنني تجردت من الزخارف التي منحتها لي حكاية ميلادي.

ارتبط بي شاب صغير، طموح جداً، اسمه "نبيل الزغبي"، مدرس إنجليزي مثلي، متزوج حديثًا من قريبته، بنت عمه على ما أذكر، دائمًا ما يردد بأنه يحبني لله في الله، كان يحكي لي كل شيء، حتى أسرار علاقته بزوجته، ومشاكله مع أخيه حول نصف فدان تركته لهما الأم قبل موتها. يستشيرني في كل شيء، ويعترف أمام كل الزملاء بأن "يوسف تادرس" له رجاحة عقل مدهشة وكنت أسخر من الأمر برمته وأقول: "تعالوا شوفوا خيبتي في تدبير شئوني، الإنسان شاطر في نصح غيره".

في تلك المنطقة النائية، عرفت بعض تفاصيل حياة المدن الصغيرة والقرى. عرفت الفقر، والجشع الذي يسوغ للنفس أكل الحقوق، وعدم الاهتمام بغير الذات، صراع الإخوة على ميراث ضئيل، على صحن دار، على نصف جدار، على شبر من الأرض، وعرفت أيضا قصص حب فكاهية، وبشراً يعيشون في الغياب، مدفوعين بخوف غامض لتكوين ثروة

دون أي خطة للتصرف فيها، بناء بيوت وشراء أراض، وأحقاد بين الإخوة، وصراعات من أجل السفر إلى الخارج. الغريب أن الله كان في جانب من يحكي لي وليس في جانب أخيه الذي غالبًا ما يكون هو الشرير. تأملت تلك الحكايات طويلاً حتى ظننت أن حياة الدود أغني من حياة البشر. الناس تأكل بعضها، هذا ما ترسب في وجداني.

حافظت على عزلتي رغم تلك الصلات والليالي الطويلة من السمر، وقضيت أغلب وقتي خارج الشقة. جهزت عدة صيد، أحملها كل يوم وأذهب إلى البحر. أترك السنارة في الماء وأبقى جالسًا بلا هدف تقريبًا غير تمرير الوقت. الأيام خالية، تمر ببطء، ولا تمنحني الأحداث غير مزيد من البعد والحس بالهجر. هجرني كل شيء. مشاعري لم تعد موجودة كأنما غدوت بلا قلب. غادرني الألم وكذلك الترقب والأمل أيضًا، وأصبحت خاويًا مثل الوقت الذي يمر. ليس هناك من أحداث غير انتظار أول الشهر لتسلم المرتب، والذهاب إلى مكتب البريد لإرسال نصيب البيت إلى "جانيت" والعودة إلى الشقة لكي يبدأ شهر آخر من انتظار لا شيء.

في إجازة نصف السنة سافر زملائي إلى بلادهم وبقيت وحدي في الشقة، رفضت أن أعود، خائفًا من الصدام مرة أخرى مع "جانيت"، رغم توقي إلى رؤية الأولاد. في تلك الفترة جاءني لأول مرة حلم البعث. يومها صحوت من النوم، خائفًا، أشعر أن الحياة غالية لا يجب التفريط فيها، حتى لو كانت على شكل أيام فارغة أقضيها أمام البحر ممسكًا بسنارة لا تصطاد شيئًا.

كان الضوء رائقًا، كأنه مثال الضوء، كأن الجبال الداكنة قد شربت الأشعة التي تمنحه ثقلاً وكثافة، فغدا على هذا الشكل الشفاف الخفيف، روحًا سماوية سائلة. أشعة الشمس نفذ منها شريط لامع عبر النافذة المواربة وانطرح على ملاءة السرير وأضاء الغرفة حاولت تبديد الحس الراسخ بالنبوءة "أنني سوف أقضي باقي عمري في الدير"، بالبحث عن شبشبي تحت السرير؛ أي تفصيلة بشرية تعيدني إلى العالم الأرضي. العالم السماوي مخيف، الأرض ونس، وحلم البعث كان كثيفًا لدرجة أن شعوري بأنني فارقت حياتي هنا، كان حقيقيًا، واحتجت إلى جهد كي أنفي هذا اليقين. دخلت الحمام ورحت أدعك جسدي بقوة كأنما أوقظه من غيبته، وكدت أتمادى وأمارس العادة السرية، لكنني خجلت. ارتديت ملابس نظيفة، وبحثت عن طبق فول من بقايا عشاء الليلة الماضية، وحملت سنارتي وذهبت إلى البحر.

لم أتخلص من حسي بالحلم. عادت طفولتي ورأيتني أرافق أمي في مشاويرها. رغبت في الرسم كأنني أرغب في امرأة، رغبة جسدية. استبدلت الأمر بمحاولة تذكر الرحلة من البداية، من أول رسوم "جورج البهجوري" وورشة النسيج ومرسم "حازم الشربيني" وبيت "حسين سعيد" وجماعة عنخ وباحة الكنيسة. جاءت التفاصيل، كأنني أنظر إلى حياة شخص آخر. عادت الصور بحس نقي، كأنها جدار مبني بإحكام، كل طوبة مرتبطة بالطوبة التي قبلها. تدهمني مرة أخرى النبوءة في الحلم، فأهتف: أنا أدخل الدير؟ لا يمكن، أنا أحب الحياة حتى لو كانت طينًا، وأحاول أن أهدئ نفسي: كل ما

حدث أن حسي بالنبذ وبعدم استحقاق الحياة الآتي من الذنب الذي تركته "سناء" على كتفي أرهقني، لكني لا يمكن أن أفكر في الدير. إنها حياة خُلق لها أناس آخرون، أنا خُلقت للحياة الثخينة التي عشتها طفلاً في الزقاق، فلنقل بها لمسة من سحر النور، لكن ليس الدير.

كرد فعل تجاه حلم البعث، راحت النساء اللاتي عرفتهن يطفن بخيالي. هذه ثروة الإجازة. رحلة مثيرة من أول تجسسي على "زينات" وهي تستحم، إلى صوت موظفة في قصر الثقافة كان عم فريد يداعبها، وتقول له بصوت رنان: "سأتزوجك يا عم فريد لا تخف، أفرح بشبابي شوية ثم أتزوجك" كل المشاهد التي حدثت في فترة المدرسة الخاصة، وأثناء رسم البنات، وجه لمياء وحبها، كنت مصابًا بالحب، لكنه حب خفيف وطيب، "جانيت" وحدها هي التى عرفت كيف توقعني، كانت راغبة في الدخول إلى الجحيم، وفي النهاية جاءت "سناء" وتركت لي الحس الممض بالخذلان.

هناك في الصمت والجلوس أمام البحر، أشعر بأن حياتي خفيفة سطحية ليس فيها ثقل، وأنني كائن هش، يمكن أن يذوب في الهواء، ربما هذا هو منبع حلم البعث، ربما هو صوت داخلي بأن على أن أعمل من كل هذا شيئًا، أن أنسجه على شكل سجادة، كيف؟ لم أكن أعرف، ولم أفكر وقتها في الرسم الذي بدا كأنه كان فترة انتهت من حياتي.

***

يقول يوسف تادرس:

في الإجازة الصيفية اضطررت أن أعود إلى طنطا لأن أبي كان مريضًا. كنت خائفًا على نحو ما، ومتهيبًا، ولم يكن هناك غير بهجة خافتة تلمع عندما أتذكر "ميشيل" و"فادي". في الليلة الأولى كان الجو خانق الحرارة والرطوبة عالية، قضيتها في البلكونة. قلبي أسود لم أسامح "جانيت" رغم توددها. قضيت الوقت مع الأولاد. أصبح "ميشيل" في الصف الأول الأعدادي، و"فادي" في الرابع الابتدائي كنت متعجبًا من أن لي جسدين آخرين، كائنين يمكنهما أن يعيشا حياة أفضل من حياتي.

في المساء التالي ذهبت إلى بيت "فُتنة" في الجهة الأخرى من السكة الحديد، لأزور أبي. لم أكن أعرف أنها آخر لحظاته. كما قلت لك، قلبي أسود، الضغينة لا تزال حية رغم السنين، لقد باعني أنا وأختي، لفاتن بنته الكبيرة.

كان قد فقد بصره تمامًا، لكنه ـ كما حكت فُتنة ـ يشخط في من يحادثه كأنه مازال شابًا. الحق يقال، لم تهمله، وظلت على رعايتها له لآخر لحظة، تُحمِّيه وتلبسه ملابس نظيفة دائمًا. قالت إنه في الفترة الأخيرة لم يعد قادراً على الذهاب إلى فرش الحمص، ويقضي الصباح على مقعد بجانب باب

الشقة. أصبح متوترًا، وغاضبًا، يقول بمناسبة وبلا مناسبة: "لا أريد شيئًا من أحد". ويربت على جيب الصديري: "ثمن الكفن في جيبي، أهه".

في ذلك المساء كان جلده مكرمشًا، ويأخذ نفسه بصعوبة، وعيناه مغمضتان، وما إن دخلت الغرفة حتى عرفني دون أن أنطق اسمي، وقال:

"تعالَ اقعد هنا في ريحي".

جلست على حافة السرير. سألني عن أحوالي وعن ظروف عملي، ولماذا تركت البلد. أخبرته باختصار، بما يريد سماعه، وقلت إن المرتبات مضاعفة في المناطق النائية، وفي أول فرصة سأعود. صمت قليلاً ثم قال:

"أم يوسف جاءتني في المنام، وهي تريد أن تطمئن عليك".

ثم ابتسم وأكمل:

"أصبحت مرسالاً بينكما".

جاريته في مزاحه:

"بلغها السلام وقل لها الأحوال عال العال".

انفرجت ملامحه، ربما لم يعد يتحمل نغمة السخرية في كلامي، وخطر لي على نحو مباغت أنه كان يغير من حب "أم يوسف" لي. كان يريدها له كاملة، وحبها المفرط لي، هو الذي وضع الحجاب بيني وبينه. لم تستمر الفكرة لحظات، لأن نفسه أخذ يخفت، وظل ساكنًا، مغمض العينين، ثم راح النفس يعلو ويهبط، وانفرجت شفتاه، وشعرت به يغيب. خفت، فناديت فاتن. جاءت مسرعة وما إن رأته حتى عرفت أنه يطلع في الروح.

اندفعت إلى السرير، وأخذت وجهه بين كفيها: "آبا، آبا، كلمني يابا". كان نفسه يدخل ويطلع بصعوبة. لم تظهر عليه بادرة توحي بشعوره بنا، أصبح غائبًا، ولم يتبقَ منه غير تنفس خشن بطيء، استمر عدة لحظات حتى توقف.

كنت واقفًا بالقرب من باب الغرفة و"فاتن" لا تزال تضم رأسه بين كفيها وتناديه، ثم مالت على صدره وراحت تنوح وتطلب منه ألا يتركها. لم أصدق ما تراه عيناي. هل جئت كل تلك المسافة من أجل أن أشاهد لحظة موت أبي؟ لا يمكن تصديق الأمر، تلك الملامح لم تعد حية، لم يعد من الممكن أن ينطق الرجل مرة أخرى.

اللحظات الفاصلة تصعق المرء، رغم أنها تتلاشى مثلها غيرها، إلا أنها تترسخ في الداخل تعجبًا، وحسًا باطنيًا بهشاشة الحياة. هذا هو قدري، ماذا أفعل؟ تعجبي من مصيرى لا يتوقف. كنت أتمنى أن أعيش هذه اللحظة بجوار أمي وليس بجوار أبي. الغريب أن موت أبي بعث موت أمي، وطول الوقت أثناء الجنازة وتلقي العزاء كنت أبكي كأنها هي التي ماتت، متذكراً كيف تُركت وحيدة ليلة كاملة في مشرحة مستشفى المنشاوي.

***

يقول يوسف تادرس:

ذات يوم وجدت من يطرق الباب؟ لن تصدق، "رضا بولس". ياه، فرحتي به لا توصف. "رضا" أخي وصاحبي، عزيز على القلب أمام البيت تقف سيارة من السيارات الحديثة، تشبه الجيب. لا تصدق طبعًا أنني لا أعرف ماركات السيارات. الأطفال يميزون هذه الماركات الآن، لكن أخاك يوسف جاهل تمامًا في هذه النقطة. كنت فرحًا مثل طفل. كان قد أصبح سمينًا، وله كرش، ويرتدي تي شيرت رماديًا، لكن وجهه ما زال يشير إلى حيويته. لم أكن قد رأيته منذ خمس سنوات، حتى في موت أبي كان خارج البلاد. وقفت أتأمله لحظات غير مصدق لوجوده أمامي، لكنه لم يمهلني، ضحك من منظري المبهدل، أقف بالبجامة مذهولاً أمام الباب:

"يخرب عقلك يا يوسف، زي ما انت، الزمن لا يمر عليك؟".

كان متعجلاً كعادته، قال وهو يدخل الشقة:

"يا الله يا عم غير هدومك لازم نرجع شرم الشيخ قبل الليل".

غيرت ملابسي غير مصدق. أبعد شخص يمكن أن أتخيل أن أراه. انطلقنا إلى شرم الشيخ. كانت شركته تبني إحدى القرى السياحية التي

بدأت تنتشر على شواطئ جنوب سيناء. طول الطريق لم يحدثني عن حكايتي، وأخذ يتحدث عن أوضاع البلد عمومًا، عن فرص النمو الاقتصادي، وعن العوائق البيروقراطية والتحيز، سألته: كيف عرفت مكاني؟ قال إنه سأل في الإدارة والمدرسة، فقالوا له إنني غائب اليوم، ووصفوا له الشقة. وراح يحكي عن أعماله في الإسكندرية، وعمله هنا، زياراته التي أصبحت منتظمة إلى طنطا. سألته عن زواجه، قال إنه أنجب بنتين وولدًا صغيرًا عمره عامان، ويعيش حياة طيبة.

أول مرة أرى موبايل كان في يد "رضا بولس". كنا نقترب من نهاية القرن، والحياة تتغير، وأنا في عزلتي أعيش في الكهف. أثناء الطريق لم يكف رضا عن التحدث مع الموظفين والعمال في الشركة، وعندما وصلنا إلى شرم الشيخ أغلق الموبايل وألقى به في السيارة، وجلسنا في مطعم معرش بجذوع النخيل والخليج يمتد أمامنا رائقًا ساكنًا. لم تكن تلك الأماكن قد غدت صاخبة؛ كانت في حالة الإنشاء في ذلك الوقت.

قلت له إنني أعيش هنا حياة طيبة ولا أريد العودة إلى طنطا، لا أريد، كلما أفكر في تلك المدن أجدها خانقة، لا شمس فيها، معتمة، حارات ضيقة، وبلادة في الحس وافتقاد لحيوية الروح، لا يمكنني أن أعيش هناك مرة أخرى. قال ببساطة: "إذن انقل أولادك وزوجتك هنا، وعش كما تحب". قلت له: "أجيب لنفسي الغم بيدي"، ضحك وقال: "آه تريد أن تعيش "منتسبًا" للأسرة". قلت: "دلني على طريقة أخلص بها من الزواج. أنت

تعرف حكم نهائي. أرسل لهم ثلاثة أرباع مرتبي، أنت تعرف يمكنني أن أعيش على أقل القليل، لا أدخن، لا أشرب الخمور، ولا لي نزوات، سليم صاغ، مستقيم بالمعنى الديني" .

حكى لي إنه يعيش حياة معقولة في الإسكندرية وبدأت بنته الكبرى تدخل المدرسة، زوجته طيبه تفهمه دون كلام، ولن يجد أحسن منها، وضحك: "أتذكر؟ هي التي خطبتني، لا تخجل من ذلك، تقوله في كل مكان" . لكن أهم ما حدث له في الفترة الأخيرة كان موت جدته الكبيرة.

نظر إليّ غاضبًا: "كنت أتمنى أن أراك يومها" . صمت قليلاً ثم قال: "لم أكن أصدق أنها يمكن أن تموت، كانت تعمل في العائلة عمل الميزان، عندما يستبد الطمع بأحد الإخوة، يعودون إليها لتحكم بينهم. أنت تعرفها، زرناها مرة زمان أيام الكلية" .

قال إنه لم يكن يسافر إلى أي مكان دون أن يطلب إذنها، يسمع دعوتها له فتطيب نفسه. ظل يشعر أن حياتها مصدر الخير، وظن أنها يمكن أن تعيش حتى نهاية الحياة، وجاء موتها مفاجئًا، فأربكه، وجعله يخاف من القادم. الأطماع الصغيرة يمكن أن تنهي قوة عائلته في السوق. التفتت هو الضعف. قبل موتها بعدة أيام جمعت الإخوة الثلاثة وأجلستهم حولها، وأقسموا جميعًا أمامها أن يتنازل كل واحد لأخيه عما يريد بطيب خاطر، وأن لا تخرج خلافاتهم خارج حدودهم وألا يشركوا نساءهم في مشاكلهم، ولا يصلوا

أبداً إلى حد التناحر، ويحافظوا على رابطتهم دون تغيير حتى آخر الحياة ويورثوها لأبنائهم.

قال رضا: "ثم حدث أغرب شيء، بعدما خرج أبي وأعمامي، نادت عليّ وأخبرتني بأن عليّ أن أصون الميزان في العائلة".

نظر إليّ وقال: "تخيل؟ كانت تسلمني الميزان. أنا من بين شباب العائلة. أتعرف كم شاب في العائلة؟ ثلاثة عشرة، كلهم لهم أعمال. كنا جميعًا في البيت الكبير في شارع الفاتح. جلست على مقعد أمام سريرها. قالت: "لا، تعالَ هنا". جلست بجانبها على طرف السرير، نظرت إليّ بعينيها اللامعتين والمنديل الأبيض محبوك على رأسها، وهي مغمورة بالأغطية. قالت: "اسمع، سأحملك أمانة، لا تقاطعني، اسمع ونفذ ما أقول حتى لو كان ضد رغبتك، سوف تفهم الأمر بعد ذلك وتحبه". صمتت قليلاً وأكلمت: "أنت أعقل واحد في هذه العائلة، لا تتخل أبدًا عن الحكمة، العقل والحكمة هما كل شيء. أعرف أنني أثقل عليك، لكني أعرف أنك على قدر المسئولية".

انتبه "رضا" إلى وجودي وأكمل. "هل تصدق؟ كانت ترى موتها، وتحملني أمانة لا أعرف إن كنت على قدرها أم لا. أخبرتني أن مهمتي ألا أترك الجشع يتسلل إلى القلوب. وظهرت بسمة خافتة على وجهها، وقالت: "سأعرفك الطريقة، اضرب لهم مثلاً، تنازل أنت أمامهم وسوف يعرفون مقدار صغرهم عندما يجدونك تتخلي. التخلي هو الفضيلة التي

سوف تعلمها لهم حتى يحافظوا على رابطتهم. لا تخف من التخلي، كلما تخليت زادت ثروتك. البلاد مضطربة وسوف تأتي سنوات صعبة، لو تفرقتم ضعتم، ما سيحميكم من الاضطرابات القادمة هو الرابطة القوية" .

قال رضا: "شعرت بالرهبة في حضورها. كان الكلام يخرج من فمها مثل كلام الكتاب المقدس كأنه آيات. كنت أعرف حكمتها، ومرضها المفاجئ لم يكن يستدعي كل تلك الطقوس، كان مجرد دور زكام أرقدها في السرير، لكن النبرة التي تحدثت بها جعلتني أرى الموت يرف حولها. عندما ماتت في صباح اليوم التالي، خفت مما قالته. كان هناك احتمال أن تقوم من المرض، لكن موتها ختم كلامها وجعله حقيقة ووعداً لا يمكن نقضه. رأيت أنني غير قادر على حمله، كأنه رسالة. صعب موضوع الرسالات، حمل صعب، الإنسان خفيف أحسن، ولكن ماذا أفعل؟ سلمتني أمانة. يوم موتها كنت خائفًا أمام الحمل، وشعرت بنفسي غير قادر على التحمل وتمنيت أن تكون موجوداً حتى أتحدث معك، حتى نرى ماذا يمكن أن نعمل في هذا العبء. كنت أريد أن أتحدث مع شخص يفهمني ولم يكن هناك غير يوسف تادرس الذي كان بعيداً، وزعلت منك جداً لأنك كنت بعيداً في تلك اللحظة. لكني سامحتك بعد ذلك. الخوف لم يتركني منذ موتها. لقد حملتني حملاً سأظل خائفًا طول الوقت من أن أكون غير أهل له، لكني أستعين بالرب وأحاول. كل أسبوع لا بد أن أعود إلى طنطا، وأزور كل أعمامي وأبحث المشاكل وأحاول حلها حتى لو كان من جيبي. تخيل أصبحت أزور طنطا أكثر مما كنت أفعل في سنوات الدراسة. ربطتني بالبلد وبالحياة هناك،

ولا يمكن الفكاك من الوعد. لا تظن هذه شكوى، بصراحة، بمرور الوقت، أعرف أنها ساعدتني. كان يمكن أن تنهدم حياتي لو ركزت فقط في أعمالي، وفي نفسي. بدأت أفهم أنها بتحميلها المسؤولية لي، منحت حياتي معناها، صحيح منحتني عبئًا إضافيًا، لكن أمنتني من الانهيار والانحراف، الذي يمكن أن تصنعه الثروات".

نظر حوله. كانت الشمس قد بدأت تتوارى والخليج زرقته كثيفة، يلمع صافيًا. كان قد اندمج في الحكاية حتى نسي نفسه. قال: "يا خبر أنا جعت جدًا". قلت ضاحكًا: "أنا لا أجوع". نادى عامل المحل، وسأله: "أين الأكل؟" قال الشاب بوجل: "أنتظر أوامرك". قال ساخرًا: "ماشي ياعم خذ الأوامر أهه".

أثناء الطعام كان يحاول أن يتخلص من الحس الكثيف بالمسؤلية الذي تركته حكاية جدته، ينظر إليّ مستريحًا أنني هنا معه أثناء الحكاية كأنني تقاسمت المسئولية معه. هذا هو الأمر فعلاً، بمجرد أن حكى رضا حكاية جدته وشاركني في حمله، حتى استعاد حيويته، ونظر إلى كل ما حوله بمودة. أحببت دائمًا حس القدرة الذي يفيض منه، وراح ينطلق في الكلام عن الحياة، ورغم أن نبرة كلامه أصبحت أكثر جدية وبها بعض التخوف والحذر، إلا أنني شعرت بأنه أكثر نضجًا وتفتحًا مما كان أيام الشباب. قال: "في البداية كنت خائفًا من التدخل في مشاكل العائلة، لكني تمرست الآن، بمرور الأيام أشعر بالمعنى الكبير الكامن في قلب مقاومتي للأطماع، بدأت

أفهم أن الرجل هو من يعرف أن كل ما يصنعه يمكنه أن يضيع في ثانية ويوطن نفسه أن يبني نفسه مرة أخرى، أن يعيد خلق ثروته مرة أخرى" .

سخرت من السهولة التي يتحدث بها عن بناء الثروات، في الوقت الذي يعاني فيه الناس ليجدوا ما يطعمون به أنفسهم. رد سخريتي قائلاً: "أنت تافه يايوسف. لماذا تأخذ الثروات بالمعنى الحرفي؟ كل شخص له ثروة، كل حياة فيها ثروات، يمكن لشخص أن يعد أسرته ثروته أو صديقه، أو أي شيء يشكل قيمة غالية بالنسبة له. أتحدث عن الفقد وكيف أن الإنسان الصح هو من يتمكن من أن يقوم مرة أخرى، ويبني ما فقده" .

ضحكت وقلت: "ياكذاب أنت تقصد "الثروات"، "الفلوس"، أنت ولدت في هذا الجو" . لكنه قال بجدية: "اسمع كل الثروات بما فيها الثروات المعنوية، تحتاج إلى جدية أفضل ما ورثته من تقاليد عائلتي، هو الحساسية ضد الإسراف والاعوجاج. الجد الأول علمهم الأمر وحملته جدتي وحملتني العهد بعدها. الاعوجاج يمكن أن يقود إلى الخراب، لذا فإن بعض الأخلاقية الخاصة بعائلتي آتية من صيانة العمل. التهاون وعدم الحسم والهلس والجري وراء النساء والمخدرات، يمكن أن يضيع كل شيء. العمل يتطلب النشاط والجدية والالتزام، سمات لا بد أن تتوافر في الشخص الذي يود أن يبني ثروة" . ثم ضحك قائلاً: "تعرف؟ صادفت تلك الفكرة لأول مرة في قصيدة "إذا"، لكيبلنج، هل تعرفها؟ مدرس إنجليزي ولا تعرف قصيدة "إذا"!! قرأتها ذات يوم وأنا في مدرسة الأحمدية ولم تفارقني، يمكنني أن أرى الثروة تنتهي وعليّ أن أوطن نفسي على بنائها مرة أخرى" .

لم يتركني أرجع في نفس الليلة إلى الطور. انتقلنا إلى الفيلا الصغيرة التي يسكنها في قرية سياحية. منطقة بها مبان لا تتعدى طابقين ومساحة من النجيل الأخضر والشجر. قضينا الليل في الشرفة. تحدثنا عن كل شيء. حكينا عن أيام الجامعة، وطنطا، وكل شيء، وطلب مني أن أحكي له عما حدث لي، وقال إنه عرف الأمر من الأستاذ "نعيم صبحي". قلت ضاحكًا: "هو السبب في وجودي هنا". حدثته عن علاقتي بسناء. شعرت بأنها لم تكن تستحق تلك العتمة والجدية، فبعد أشهر قليلة من إقامتي في الطور، أدركت أنني لم أكن أحب "سناء"، وتساءلت طويلاً لماذا كانت عاطفتي بها ثقيلة على هذا النحو في طنطا، وتبددت هنا في الطور، بسرعة. أخبرته بجدية أنني لا أفهم الأمر فعلاً ولا أفهم لمَ تسلطت عليّ مشاعر الحب على هذا النحو.

ما زلت حتى الآن غير قادر على فهم ما حدث، لكنني على يقين بأن حكاية "سناء" أخذت أكبر من حجمها ومشاعري بها كانت متضخمة بشكل ما. كثيرًا ما أتساءل: هل لجو التسعينيات المعتم علاقة بالأمر؟ هل يمكن أن يكون للمناخ العام قدرة على منح سمة مأساوية لقصة عادية؟ لا أعرف، ولكني أثناء حكي الحكاية لرضا، كنت أكتشف أن فراغ الحياة، والطاقة الحيوية التي لا تجد سبيلاً إلى التحقق هما السبب في تعلقي بسناء كانت إنسانة رائعة، تبحث لنفسها عن حياة خاصة في بلاد لا تسمح بالفردية، وتضطهد من يخرج عن السياق، يومها أدركت أن أفضل ما حدث لي هو نقلي إلى الطور، ففي التحليل النهائي، لم تكن "سناء" غايتي ولم

أكن غايتها، وتعلقها بي كان تعلقًا بالرموز أكثر منه تعلقًا بشخص. لقد بدا الأمر الآن واضحًا.

ضحكت وقلت: "تعرف أطرف ما حدث في تلك الحكاية؟" وحكيت له عن زيارة قبر البابا كيرلس وطلبي منه أن أتزوج "سناء"، وسخرت من المعجزات قائلاً: "البابا لم ينفذ إلا ما قلته لجانيت في العلن، ونقلت من المدرسة، أما ما وضعته في الرسالة فلم يهتم به. إنه مهتم بالحفاظ على أبناء شعبه ولا يهتم بالقلوب الجريحة". لاحظت أن وجه رضا قد تغير، وقال غاضبًا: "لماذا تتحدث بهذه السخرية عن الأب المعظم، إنه منحك الحل الثاني أيضًا، ألم تعرض عليك البنت أن تسافر معها وتتزوجها، أنت لا ترى؟ حاجة غريبة جداً".

لأول مرة أرى الجانب العصبي من "رضا" كان ينتصر للبابا. تركني جالسًا في الشرفة، ونزل إلى الحديقة وتجول حول البيت وحيداً، بعد قليل عاد وقال بهدوء: "البابا له فضل عليّ، ابني مرض مرضًا غريبًا حار فيه الأطباء، ذهبت به إلى البابا، وقلت له إنني أثق فيه وإنه سوف يساعده على الشفاء، بعد أسبوع واحد شفي الولد. البابا له فضل على لا تزعل مني، لا أحب أن تسخر من إيماننا، بصراحة هذا هو الحائط الذي أسند عليه حياتي".

اندهشت من الأمر برمته، كيف يمكن أن تكون تلك الثروات والمباني والشركات مستندة على قبر البابا كيرلس كان الأمر حقيقيًا وغارسًا في

الأعماق، أما أنا فكنت وحدي تمامًا. غبطت رضا على إيمانه، على يقينه في الأب المعظم، كان يسند حياته وكنت متشككًا تائهًا بلا سند.

في الصباح قال لي. "سأوصلك قبل أن أبدأ الشغل"، وظل صامتًا طول الطريق، وعندما نزلت من السيارة، قال: "كنت زعلان منك لأنني لم أجدك يوم موت جدتي، لكن منذ الآن أرجوك يا يوسف إذا احتجت أي شيء افتكر أن لك أخًا، ليس هذا كلامًا، أنت تعرف". أعرف أن رضا ليس له في أمور العاطفة، ويبدو أن لمح التيه الذي أعيش فيه، كما لمحت الحائط الذي يسند عليه حياته، وشعر بأنني مرتبك وخالٍ من اليقين مثل صدفة ملقاة على الشاطئ. الغريب أن هذه هي المرة الوحيدة التي تقابلنا فيها ولم يحدثني عن الرسم.

منحني لقاء "رضا بولس" حسًا بالونس، وجوده قريبًا في شرم التسيخ، نفي حس النفي. لم أعد وحيداً تمامًا، كان لي أخ هناك في الجهة الأخرى، وقضيت الأيام التالية بمزاج معتدل. تقابلنا عدة مرات، كان يتصل بي في المدرسة، ويبلغني بميعاد حضوره، وكنا نقضي الوقت في الخارج نتمشى على البحر أو نجلس في مكان منعزل. تحدثنا تقريبًا عن كل شيء، وجاء أوان الحديث عن الرسم. كان رأي "رضا" أنه لم يبقَ لي غير الرسم، وإلا فإن العزلة سوف تفسد روحي، سوف تحطمني. قال: "إنك إن أهملت الرسم فقد أهملت أهم شيء في حياتك". كان يؤمن بموهبتي أكثر مني. بصيرته أكثر نفاذًا

قضيت العام التالي في الطور. لم أسافر إلى طنطا إلا عدة مرات في الأعياد وفي منتصف العام، وفي المرة الأخيرة، اتصلت "جانيت" وقالت إن "ميشيل" هرب من المدرسة وبات خارج البيت. قررت أن أطلب إجازة وأنزل لأعرف ماذا حدث للولد، رغم أنها في اليوم التالي أخبرتني أنه رجع واعتذر وأن المشكلة خلصت، إلا أنني رغبت أن أرى "ميشيل" وأعرف بنفسي ما يحدث له. نزلت إلى طنطا. اتفقت معه أن نقضي اليوم بالكامل معًا. تمشينا في البلد، وأفطرنا ساندوتشات طعمية، وأخذته إلى الزقاق وحدثته عن الحياة هنا منذ عشر سنوات، وزرنا عمته فُتنة، ودخلنا السينما، ثم جلسنا في القهوة في ميدان الساعة ولعبنا دور شطرنج. حكى لي ما حدث، قال إنه لم يكن يقصد ترك البيت، ولكنه زهقان، مخنوق، بلا سبب، كانت أمه قد ضربته لأنه قطع كراسة الحساب الخاصة بأخيه "فادي"، وشعر بأنها تكرهه، وفي الصباح نزل عادي إلى المدرسة، لكنه شعر بكراهية تجاه البيت ولم يرغب في العودة.

أدركت ما حدث للولد، لا بد أن "جانيت" وهي تضربه بانت كراهيتها لي. لا بد أنها انتقمت مني في الولد دون أن تدري. ربما يكون ذلك وهما، لكني كنت أفكر على هذا النحو و"ميشيل" يحكي لي الحكاية ظل يتمشى في الشوارع حتى المساء، وعندما أظلمت الدنيا طلع إلى رصيف المحطة وجلس على الرصيف يتفرج على الناس، ثم نام في قطار مجرش في رصيف شبين، وقام في الفجر عندما صرخ شخص بجانبه، وظل يجري حتى رجع إلى البيت.

يومها كلمته بصراحة، واعتذرت لأنه لا يمكنني العيش في البيت هذه الفترة، وأن عليه أن يتحمل قليلاً وأنه سوف يكبر وينفذ كل ما يرغب. قال إنه يريد أن يسافر من هنا، يسافر بعيداً ولا يعود هنا أبداً. عرفت ما يتعرض الولد في المدرسة، وتذكرت بحزن الأجواء الصعبة التي يعيشها طفل صغير في فصل ينظر إليه كل من فيه نظرة غريبة بسبب اسمه. رغم حزني فقد ضحكت معه وهونت الأمر، وقلت إنه سوف يعتاد وينضج ويحل مشاكله. قلت له:

"تحمل إذن حتى تنهي تعليمك ثم تسافر مطرح ما تحب".

عدت إلى الطور مرهق الروح، لا أعرف أين أضع قدمي، كنت ضائعًا، لا بيت، لا شيء، كيف يعيش المرء بهذا الحس. أندهش صدقني من أن هذا التيه كان يسكنني كالظل ومع ذلك أقوم من النوم أذهب إلى المدرسة، أدرس في الفصول، وأقرأ في كتب المكتبة، وأسمع حكايات زملائي، وأنصت إلى صوت البحر في الليل، وأحزن من أنني لن أعود إلى الرسم أبدًا. رضا بولس عنده حق، أصبح الرسم بعيدًا جدًا كأنه حدث مرة في حياتي وانتهى، ربما كان يمكنه الآن أن يسند حياتي. وطنت نفسي على أنني سأعيش هكذا إلى الأبد، وأنني لست منفيًا، بل سجينًا، وسوف أبقى هنا، لكنني حلمت بحلم البعث مرة أخرى، هذه المرة كان له حس مختلف. كان يوم جمعة والشقة خالية. حلم البعث يأتي ويروح بمزاجه يأتي بالتفاصيل التي حكيتها لك، كأنه نبوءة.

***

يقول يوسف تادرس:

في نهاية العام انتدبنا لكي نراقب الامتحانات في الإسماعيلية. كان معنا مدرسات. أول مرة أرى نساء يراقبن في الامتحانات العامة. قالوا إن بعض المدرسات يطلبن المراقبة، وهو حق لهن مثل المدرسين. في اليوم الأول رأيت امرأة حياتي. طاقة الحب حرة، غير مرتبطة بشخص محدد، لا تهدأ حتى تجد طريقًا تحقق به نفسها، تحط على هدف وتنشغل به، تزخرفه وتحيطه بهالة من البريق. عندما رأيت "تهاني" لأول مرة بدت لي كأنها خارجة من فيلم من أفلام الستينيات، ترتدي جيب كاروهات أزرق في رمادي، يتخطى الركبة بقليل، وبلوزة سمني تكشف الذراعين، لا يحيطها الصخب الذي يحيط بالجميلات. شعرها مفروق من المنتصف بالضبط، ينزل حتى يحط على كتفها. وجهها مستدير وجبهتها عريضة، ذقنها مدبب قليلاً، لا تضع روج ولا مساحيق، ويطل من عينيها، وميض، فتشعر بنار الشهوة الراكدة هناك، خلف المظهر البسيط.

على فكرة، الصورة المطبوعة في أذهاننا عن النساء المثيرات، آتية من التقاليد، ربما من الأفلام، نموذجها ممثلة الإغراء، ونتصور أن أي امرأة تشبهها هي "المرأة". هذا موضوع أتمنى أن أتحدث فيه كثيراً "ممثلات الإغراء ونموذج

المرأة المشتهاة" . ليس هذا وقته. صدقني، أنا أعرف النساء من عيونهن، من طريقة النظر، وأحب النساء الميالات للجنس، بهن طيبة وقدرة على العطاء وطبيعتهن سمحة، لا تجدها في المرأة الأنانية التي تظن نفسها جميلة.

في أول أيام الامتحانات جاءت "تهاني" وقالت بهدوء: "أنت يوسف تادرس؟" ابتسمت لها وأبديت دهشتي، قالت: "بصراحة قرأت اسمك في كشوف الملاحظين وفرحت أن فيه حد مسيحي غيري في اللجنة". ضحكت وقالت كأنما تريد أن تتخطى الوجل الأولي، وتترك من أول لحظة رسالة مفتوحة: "حسيت بالونس". قلت ضاحكًا: "كلنا إخوة". قالت بود، وبلهجة شخص يعرفني من زمان: "لكن شكلك غريب. أنت من الطور صحيح؟" قلت لها: "أنا منفي في الطور"، وسألتها: "ما هو الغريب في شكلي؟" قالت ضاحكة: "لا أعرف بالضبط". بدأت أنتبه إلى ملامحها. أكملت: "فيك حاجة غريبة سأعرفها وأقول لك". أخبرتها أنني من طنطا، وأنني متزوج ولي طفلان، وأنني هنا لأسباب خاصة، وربما أقضي عمري في الطور، يعني يمكن اعتباري من الطور. قالت إنها زارت طنطا وهي صغيرة، وما زالت تذكر رائحة الطعمية. عمتها متزوجة هناك. وسافرت مع أبيها وأمها وهي طفلة صغيرة، لكي تحضر زفافًا، في الكنيسة في شارع واسع، بالقرب من شونة غلال

طول فترة الامتحانات ما إن تدخل "تهاني" من باب المدرسة، حتى تبحث عني، وتبتسم عندما تراني وتقبل عليّ. نفترق وقت اللجان ونلتقي

في فترة الراحة. تجلس بجواري وتحرج الساندويشتات وتصر أن آكل من أكلها. هي صحيح تقيم عند أقارب لها هنا، لكنها تعمل الأكل بنفسها وتصر على أن آكل معها عيش وملح، وتبقى معي حتى نهاية اليوم. كنت الوحيد الذي انتدب إلى تلك اللجنة من الطور، وهذا من حسن حظي، فلم أكنْ سأقدر على التعامل بحرية مع "تهاني" في وجود زملائي. قالت إنها رفضت أن تقيم في سكن المعلمات لأنه وسخ جداً، وفضلت أن تقيم عند أقاربها رغم القيود. قلت لها إنني مضطر أن أقيم في هذا السكن، فليس لي أقارب هنا. الطور بعيدة وطنطا بعيدة. قالت ضاحكة: "لو بيدي كنت عملت لك سكن وجيبتك تسكن معايا". قالت ذلك بطريقة عادية كأنها لم تقل شيئًا غريبًا، ولم أندهش من حديثها بعدما حكت لي قصتها واقتربت مني كأنثى بطريقة لا مراوغة فيها.

كانت من الزقازيق، متزوجة من تاجر خردة، وتعيش في بيت العائلة مع حماتها وزوجات أخوات زوجها. قالت: "وما أدراك ما عيشة السلايف، غم بعيد عنك". المشكلة أن زوجها لا ينجب، ولا يصدق أنه لا ينجب. يحملها السبب وهي فحصت نفسها دون عمله ووجدت أنها سليمة. هو لا يعترف بأنه السبب ولا يمكنها أن تواجهه بالأمر. تخاف منه، يمكنه أن يفتح رأسها. أبوها كان موظفًا بسيطًا في البوسطة، لم يستطع أن يرفض طلب يدها من رجل من عائلة كبيرة وهي في السنة النهائية من معهد الخدمة الاجتماعية. أنهت دراستها بالعافية بعد محايلة على زوجها، وجاءت المعركة الأساسية عندما طلبت أن تعمل. ثارت مشكلة كبيرة، وأرادت أن تنهي الأمر، بعدما عرفت خلاص

أنها دخلت السجن ولن تخرج منه. قالت لنفسها أعمل مشاكل، إما أن أحصل على حقي في الوظيفة، أو أرجع إلى بيت أبي. زوجها أصرّ أن تبقي في البيت وهي أصرت أن تعمل. تدخل الأقارب وسمحوا لها بالعمل، فعدم الإنجاب كان في صفها. عُينت أخصائية اجتماعية في مدرسة الصنايع القريبة من البيت. أحسن ما في يومها هي الفترة التي تقضيها في المدرسة، على الأقل ترى الناس وتتحدث معهم، وكل سنة تراقب في الامتحانات عن طريق قريب لها في الإدارة. تريد أن تبتعد عن البيت قليلاً.

التصقت بي "تهاني" كأنها زوجتي. أحببت الفتنة التي تسيل منها خفية؛ طريقتها الناعمة في الكلام، بساطتها، وحسها الأنثوي الرفيع، وبمرور الوقت أثارني ميها إليّ. أخوك يوسف إنسان أيضًا، من لحم ودم، له متطلبات، وأنا منفي من زمان، وفي المرات القليلة التي سمحت "جانيت" أن ننام معًا، بحكم الشهوة، كان جنسًا ماسخًا، يشبه الحياة اليومية. صعب أن أرى المرأة مقبلة عليّ، تطلب أن أحتضنها ولا أشتعل. أرى ذلك كل يوم، يومض في عينيها.

غمرتني الإثارة التي حرمت منها فترة طويلة، ابتهج الجسد، وفرحت بالحياة مرة أخرى. الحياة هناك، في تلك الجاذبية المتبادلة بين رجل وامرأة. لم يكن الأمر يحتاج إلى كلام، فتهاني كانت تسير معي وتتحدث وتتصرف كأنها امرأتي، ما إن ألمس يدها حتى أشعر بالوهج ينتقل إلى جسدي. تترك يدها في يدي طويلاً وقت السلام. شعرت بنعومة جسدها ودفئه من خلال الكف،

من خلال اللسمات غير المتعمدة التي غدت قليلاً فقليلاً متعمدة. قالت ذات يوم:

"تعرف ما هي الحاجة الغريبة فيك؟".

قلت مندهشاً مثل الطفل: "عرفتي؟".

طوحت رأسها:

"يظهر عليك إنك تائه، موجود وغير موجود، وتنظر إلى الناس من فوق، كأنك تراهم من بعيد. صح؟".

قلت لها: "يخرب عقلك كيف عرفتِ؟".

انتبهت إلى فطنتها منذ تلك اللحظة وطلبت منها أن نلتقي في المساء. قالت بصدق: "كان على عيني، لكن أقاربي لا يسمحون لي بالخروج إلا برفقة ابنتهم، يعتبرونني غريبة ويخافون عليّ". وقرصتني في ذراعي معتذرة عن إحباطي.

أربكتني سرعة انقضاء تلك الأيام، حتى أفقت على أنه لم يبقَ لنا غير يومين وتنتهي الامتحانات. شعرت بصدمة، كأنه كان من الطبيعي أن يتوقف الزمن ولا يكر بهذه السرعة. استيقظت في الصباح غير مصدق أنه لم يبقَ لي مع "تهاني" غير يومين. أصبحت عصبيًا، أحاول أن أجهز نفسي لفترة من المتاعب. حاولت أن أبتعد عنها، لكنها كانت تجدني دائمًا. تأتي مبتسمة مطمئنة وتسأل بدلع: لماذا تهرب؟ أنا عملت حاجة زعلتك؟

بصراحة خجلت أن أقول لها إنني خائف من نهاية العمل في اللجنة، حتى جاء آخر يوم. سألتني: "ماذا ستفعل غدًا؟"، قلت: "سوف أجهز حقيبتي، وأسافر". يبدو أن الحزن كان واضحًا على ملامحي، فقالت وهي تنظر إليّ مبتسمة: "مالك؟" قلت: "بصراحة لم أكن أصدق أن تنتهي الامتحانات بهذه السرعة". قالت بلطف: "هو ده اللي مزعلك؟"، قلت لها: "عشت أسبوعين مثل غمضة عين، والآن سوف أعود إلى الحياة الكئيبة". قالت بهدوء: "وإن قلت لك سأجيء معك، تفضل مبوز؟"، نظرت غير مصدق، وقلت من فوري. "صحيح يا تهاني، صحيح؟"، قالت: "رتبت نفسي. أبلغتهم في البلد أن الامتحانات سوف تنتهي يوم الاثنين، وسوف أجيء معك مطرح ما تروح". في تلك اللحظة كدت أرفعها من على الأرض وأطير بها. رأت ذلك في عيني، فابتعدت وهي تضحك، وراحت لتوقع على لجنتها. نادت من أمام مكتب الإدارة: "لجنتك في الدور الثاني، ولجنتي في الدور الأخير".

انتظرتها في محطة الأتوبيس، غير مصدق أنها سوف تجيء. لا بد أنه حلم. لا يمكن، "تهاني" سوف تأتي معي، تنام في سريري في الطور. لم أفكر فيما سيقوله زملائي في الشقة. لا يهم الآن، سوف أحل هذه المشاكل بعد ذلك. سأقول لهم زوجتي، وستقيم معي عدة أيام حتى أجد شقة. وبعد ذلك أقول لهم لم يعجبها الجو هنا ورجعت إلى طنطا. أي كذبة.

في الوقت الذي كنت فيه مستغرقًا أدبر أمر إقامتنا، رأيتها تقف أمامي. لو ترى وجهها في تلك اللحظة؟ جميل جدًا، بسمة خافتة، عينان واسعتان

مشعتان، شعر أسمر يصل إلى الكتف، جسد لين يفيض حيوية، ومقسم تقسيمًا مثاليًا. أمسكت يديها واحتضنتها بين كفي. ركبنا السيارة في المساء، عبرنا إلى الجهة الأخرى من القناة. في الطرق المظلمة كانت تهاني بجانبي، أشعر باطمئنان وحب، ناسيًا الدنيا، لم أفكر لحظة واحدة فيما يمكن أن يسببه وجودها من متاعب. نامت على كتفي. يبدو أنها لم تكن قد نامت طول الليل. لم أشعر بأي خجل، أو حس بأنها غريبة. شعرت بأنها فعلاً زوجتي وتصرفت بهذه الثقة.

وصلنا إلى الطور فجر الجمعة. الكل نائم، دخلنا غرفتي. تطلعت حولها، ووضعت حقيبتها على الأرض، ونظرت إليّ مبتسمة. لأول مرة أسمع تنفسها. عيناها غدتا أكثر لمعانًا، وجهها أصبح جادًا، مستغرقًا. شعرت بالتوتر، وأخذتها في حضني، بدأت جسدها يرتعش، وبكت بصمت. أجلستها على السرير، وقبلت كفيها ومسحت دموعها. اعتذرت وقالت إنها تشعر بالخوف والفرح ولا تستطيع أن تتحمل حياتها. أخذتها في حضني، ورحت أساعدها في خلع ملابسها. لم أرَ جسدًا أجمل من جسد تهاني. النسب معجزة. الجسد لدن وحي وملمسه غريب.

صدقني الجسد له شخصية. تهاني امرأة كاملة، لكن ظروفها كتبت عليها أن تعيش منسية مع زوج كرهته، ولا تملك غير تمني الموت، ومحاولات هنا أو هناك لنيل قدر من البهجة. كل منا يعرف أن الأمر لا يتعدي لحظة قصيرة نختلسها من الزمن، أقمناها على كذب وتمويه، واندفعنا إلى الحب بهذه الروح. قبّلت كل جزء في جسدها، صدرها ورقبتها وبطنها، وفمها

وعينيها، ممتنًا لها، أما هي فاحتضنتني كأنني فرصتها الأخيرة في تذوق بهجة الحب، قبل أن تغطيها عتمة حياتها. وصلت إلى ذروة النشوة وراحت تشدني إليها وتشهق. صدقني، لقد جربت متعة لم أجربها قبل ذلك. غمرت جسدي فيها وهي تفتح نفسها وتتلقى الفيض المحبوس. الغريب أنني عدت شابًا لم يحدث لي ارتخاء بعد الإنزال الأول، واحتضنتها مرة أخرى وقبّلت ظهرها، وسمعتها تقول. "انتظر حتى يهدأ جسمك حتى لا تتعب"، لكنني لم أعبأ بها، واستغرقت في الحب وسمعت شهقاتها الصغيرة وهي تحاول كتمانها في صدري، أسالت تقريبًا كل السوائل المحبوسة في بدني.

لن تصدق إن قلت لك إنني جربت في تلك الليلة الاتصال بالنور الذي اشتهيته طول حياتي. النور الذي كان حلمًا غامضًا منذ طفولتي، تحقق على هيئة فرح في تلك الليلة. لا يمكن أن أشرح لك الأمر. التجربة لا يمكن وصفها مثل تجارب المتصوفة، لا يعرفها إلا من يجربها. عرفت النور الحقيقي، الاتصال بالجوهر الخفي، حتى الرسم لم يكن له هذه الطاقة التي تفجرت في الوجدان. كان سحراً.

بعد ذلك بسنوات، عندما استعرت منك مذكرات كازنتزاكس: "تقرير إلى جريكو"، وقرأت فيها عن الراهب الذي هبط إلى إحدى القرى ليجمع هبات للدير ونام في بيت إحدى الفلاحات وعاشرها حتى الفجر، وهو مندهش من السحر، وظل وقتًا طويلاً يسأل هل يمكن معاينة نور الله من

خلال الخطيئة؟ حلت لي هذه الحكاية المعضلة التي أرقتني طويلاً، ووجدت إجابة لسؤالي. كنت أسأل طول الوقت هل يمكن الوصول إلى الروح عبر وسائل أخرى غير ما توارثته التقاليد الدينية؟ هل يمكن هذا؟ وهبتني "تهاني" لمحة من النور، وعرفتني كيف تكون الأنثى؛ روح العطاء، الخصب تحت سطح الحياة المقشف. ما زلت أشعر بامتنان لها، حتى وإن تعكرت الأجواء ولم أجرب تلك البهجة مرة أخرى.

رفضت أن تعود إلى الإسماعيلة يوم الأحد، وبقيت معي أسبوعًا كاملاً. هذه هي الجنة التي عاينتها وعشتها. لكن زملائي في الشقة شكوا في الأمر. شعروا بشكل ما أن "تهاني" ليست زوجتي. مدرس من طنطا يعرف أسرتي، أبلغهم أن هذه ليست زوجتي. شعرت بالتوتر في الشقة، طلبت من "تهاني" أن تجهز حقيبتها وأوصلتها إلى الموقف لتعود إلى الإسماعيلية وأتفرغ لمعالجة المشاكل التي أثارها وجودها معي.

أنت تعرف الحساسية والغيرة الذكورية في تلك الأمور. نسى زملائي كل ما بيننا من صداقة وحاكموني. زعقوا جميعًا في نفس واحد بأنهم ليسوا "قراطيس"، وأنني استغفلتهم. لم يكن عندي رد. قلت إنني مخطئ في حقهم وأنني مستعد لأي حكم يرضيهم. تخيل لم يأخذ جانبي أحد، كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث، حتى "نبيل" زميلي الذي كنت أفترض أنه أقرب شخص إليّ، بدا خائفًا ولم يستطع أن يقاوم التيار العام، ثم غدا ينظر إليّ بغضب أكبر من أي واحد فيهم، كأنني ورطته في أمر لا يقدر عليه. كأني بما فعلت كشفت

ضعفه. كان أعنفهم وقال بطريقة ساخرة: "من تظنه موسى يطلع فرعون".
قلت مرة أخرى محاولاً أن أهدئ الأمر، بأنني أخطأت وسوف أرضى بأي حكم، ودخلت غرفتي نمت من فوري، راضيًا غير متضايق من عدائهم. لقد خبرتهم طويلاً وأعرف طريقة تفكيرهم. تركتهم يتداولون بشأني، وفي المساء أخبرني أكبرهم سنًا بأنه لم يعد لي مكان في الشقة وأنهم يمهلونني ثلاثة أيام حتى أدبر مكانًا آخر لإقامتي.

أخبرت عاملاً في الإدارة من سوهاج، كان صديقي، بأنني لم أعد أستريح في الشقة وأريد مكانًا آخر أقيم فيه. نظر إليّ مبتسمًا: "أما تكون عاوز "تعكرت" قل لي أساعدك، أنت غشيم، تأخذ الست في شقة عزاب؟" اكتشفت أن الإدارة كلها قد عرفت. يا خبر؟ مكتوب عليك يا يوسف الفضيحة في كل مكان. بصراحة تعبت من العيون المحدقة في حياتي. تعبت من هذا الحصار وقلت متضايقًا: "عندك شقة تانية؟" قال: "أمهلني يومًا واحدًا".

في مساء اليوم التالي، قال لي: "حظك فل"، وقادني إلى شقة صغيرة يسكنها مهندس في شركة بترول، يطلع عمله في الصحراء فترة طويلة ولا يعود إلى الطور إلا أيامًا قليلة كل شهر. نقلت حوائجي إلى الشقة الجديدة واسترحت بعيدًا عن تلك الهموم. في المدرسة لم أعبأ بنظرات زميلي وعدت مرة أخرى وحيدًا لا أريد أن أعرف أحدًا.

في أول يوم لي في الشقة الجديدة، نمت حزينًا، وكشف سفر تهاني المفاجئ أنني لم أشبع منها. في تلك الليلة حلمت بأنها لا تزال في غرفتي، أحاول أن أنزاح قليلاً حتى أفسح لها مكانًا بجانبي على السرير. هناك أصوات معدنية في الفضاء، أصوات لم أتبينها في البداية، أصوات نحاسية. آلات نفخ بعيدة. جلست على طرف السرير، أتأمل تهاني، كانت نائمة على بطنها. جسد من المرمر، قلت لنفسي إن الرسم أكبر منحة من الرب، إنه الملكة التي يمكن أن تحمي المرء من فتنة الموجودات. لا أعرف كيف تصور لي المشهد على أنه واقع، ثم نمت بجانبها داخل الحلم وحلمت بها عارية، تجلس على صخرة في البحر، وتدلي ساقيها، جسدها فيه من اتزان النسب، وليونة الخطوط، ونعومة الملمس ما يجعل المرء يظن أنها المرأة الأولى، لكن "جانيت" ظهرت ومعها أخوها "نجيب" وعدد من أفراد العائلة، عبروا الطريق، ونادوا عليّ. بددوا بهاء اللحظة، استدرت مسرعًا أقابلهم حتى لا يروا تهاني. في نفس اللحظة سمعت صرختها، ورأيت ثعبانًا ضخمًا يخرج من تحت الصخرة ويتوجه إليها، طرت إليها، وأخذتها في حضني. رفعتها من فوق الصخرة وطرت بها. طار الثعبان وراءنا، كنا أسرع منه، وكنا سعداء بأننا نسبقة واثقين من أنه لن يحصلنا. هبطنا في منطقة من ضباب. صوت الآلات النفخ النحاسية أكثر بعدًا، لكنه موجود في الهواء. شممت رائحة الطين وشعرت بتموج النهر القريب. قلت لها: النهر قريب من هنا، طوحت رأسها وقالت: أعرف. كانت منطقة بها نخيل يمتد حتى الأفق، وأعشاب طويلة تنتهي بشواشي تشبه ذيل القط، وشجر كثيف، يحيط بكوخ

من القش، دخلت تهاني لترتدي ثيابها. سمعنا تغريد طيور غريبة، لكن خوفنا من وجود الثعبان ظل قائمًا كالظل بيننا، حتى قالت تهاني: إنها الخطيئة تطاردنا، سوف أعود إلى زوجي. وجدت نفسي في موقف الأقاليم أركبها سيارة فورد قديمة وأقف كما لو كنت في لقطة من فيلم بالأبيض والأسود.

بعد عدة أيام، كان الأستاذ نعيم، ومعه نجيب أخو "جانيت"، يطرق باب الشقة في الطور عندما رأيته واقفًا بقامته المديدة ووجه الجاد وشاربه الرفيع على حرف الشفة، وبدلته الكاملة المنشاة عرفت مصيرى. عرفت أنني لا يجب أن أقاوم وأن أقبل ما يعرضه. طريقته الناعمة في تصوير الأمر تجبرك أن تختار ما يختاره فتحت لهما غرفة الصالون، ولأنهما على سفر، عرضت أن نأكل لقمة وأن نتكلم على مهلنا؛ الليل طويل. كنت أحاول أن أحصل على فرصة للتركيز، لكنني كما قلت لك، بمجرد ظهور الأستاذ "نعيم" تصبح لا حيلة لك. كان الجو مشحونًا بالعصبية والتوتر، وبدا "نجيب" عدوانيًا وهو يتحدث عن تركي للأولاد وعيشي هنا براحتي. قلت له: "اسأل هذا الرجل الطيب، هو الذي عرض عليّ أن أنقل نفسي خارج المحافظة".

في الليل عرض الأستاذ نعيم الموضوع بنفس الطريقة الحكيمة. "جانيت" لم تعد تتحمل وحدها تربية الأولاد، المسئولية كبيرة عليها، والسبب الذي من أجله نقلت إلى الطور، انتهى. مدرّسة الرسم تركت التربية والتعليم وسافرت من زمان، والمخاوف لم تعد قائمة الآن، فقد نسي

الناس القصة بعد تلك السنين. انصب الحوار كله على الأولاد، وكيف أن وجودي أصبح الآن ضروريًا في البيت. أطلت "جانيت" من خلف الطلب، الذي حاول الأستاذ "نعيم" أن يزينه؛ طائرها، ملكيتها، لا يجب أن تتركه طليقًا، والقفص جاهز الآن، عليه أن يأتي حتى يتم قصقصة أجنحته، وجعله طائراً بيتيًا.

طلبت مهلة للتفكير. الإجازة طويلة، ويمكن أن يتم النقل في بداية الدراسة.

***

يقول يوسف تادرس:

أصبحت وحدي مرة أخرى، قضيت أيامًا خالية، مشيت في الشمس، ناقمًا على نفسي، أقوم في الصباح، أخرج إلى الشوارع، أبحث عن مكان أجد فيه السكينة، لا أقدر على البقاء في مكان واحد إلا فترة قصيرة. أذهب إلى المدرسة. في الإجازة لا يوجد بها غير العامل والسكرتير أمشي باتجاه الشاطئ، وبعد قليل أعود إلى المدينة، أجلس في مقهى يطن الذباب حولي، والجو شديد الحرارة، أعود مرهقًا إلى الشقة، أنام قليلاً وأصحو، مدركًا أن رحيل تهاني نزع البريق عن المدينة.

بمرور الوقت أصبحت حالتي أكثر سوءًا، وبعد أن كان يمكنني أن أجلس ساعات أمام البحر، لم أعد قادرًا على البقاء هناك غير لحظات، عشت وقتًا مظلمًا خاليًا، وغدت المدينة أكثر ضيقًا. كيف تحملتها كل تلك الفترة؟ بحر راكد وجبل قاسٍ بعيد، وناس تقضي هنا فترة مؤقتة مثل معسكرات الجيش. لا تفارقني صورة "تهاني". حدوث الأمر وانقضاؤه بهذه السرعة أذهلني. كنت غير قادر على تصديق أن الحكاية انتهت عند هذا الحد. طبعًا كانت تراودني أفكار أخرى: ماذا تريد بالضبط؟ الست تعيش في بلدها، صحيح حياة خانقة، لكنها لا يمكن أن تترك حياتها. وأنت أيضًا لك

أولاد. تتلاشى تلك الصحوة سريعًا وتعود الحيرة، حتى إنني فكرت لأول مرة أن أزور كنيسة الطور القديمة التي لم أزرها طول إقامتي هنا. تراجعت بسرعة، لم أعد ساذجًا، ألمي لا يخص غيري، وشقائي من صنعي، ورغبتي التي تزدهر على الحواف، هناك حيث الأمور المستحيلة، على تحمل آثارها.

في النهاية لم أقدر على تحمل أنه لم يعد بإمكاني أن أرى تهاني. الفكرة صعبة في حد ذاتها. قررت أن أسافر إلى الزقازيق مهما يكن الأمر. كانت تهاني قد تركت لي رقم تلفيون أختها، وكنت أعرف اسم مدرستها، ويمكنني أن أتحجج بأي شيء، أخترع أي كذبة لكي أراها خفت أن تكون الورقة قد ضاعت، فقد كتبت لي رقم التليفون قبل أن تركب السيارة في طريقها إلى الإسماعيلية، ووضعت بيدها قصاصة الورق في جيب القميص العلوي وقالت: "يمكن الظروف تسمح، من يعرف؟".

بحثت عن القميص، وجدته مكومًا مع الغسيل الذي أؤجله كل يوم. جلست أتأمل الأرقام المكتوبة بخط "تهاني" الركيك وأتخيلها.

هدأت قليلاً، وفكرت فيما يحدث لي. كنت مستغربًا نفسي، مدفوعًا، كأنني قد صحوت من حلم وعليّ أن أستعيده. كيف وصل بي الخبل إلى هذا الحد؟ أن أفكر في السفر إلى الزقازيق ولقاء "تهاني" مهما كان الأمر. لم يكن هناك ما يخفف عني، غير أن أراها وآخذها وأسافر إلى أي مكان. شفت!! المستحيل جذاب. المستحيل هناك حيث الموت، لكن تخيل؟ هذا الجنون هو الذي منح حياتي معنى. معرفتي أنه مستحيل، ومع ذلك

أجد في كياني ما يدفعني بقوة إليه، معرضًا حياتي وحياتها للخطر، كان جنونًا كاملاً؛ فقد وصفت لي ظروفها، وأنها محاطة بالأقارب والمعارف. كنت أخاطر بأن أتعرض لمشاكل لا يمكنني تحملها مثلما حدث في موضوع "سناء"، ومع ذلك لم أتعلم، واندفعت.

عادت المدينة مناخًا مثيراً مرة أخرى، نزلت إلى السنترال في المساء وطلبت الرقم. انتظرت، حتى رن صوت الترنك الطويل، ودخلت الكبينة. انتظرت خافق القلب أن أسمع صوت أخت تهاني حتى يمكنني أن أقول لها ما فكرت فيه طويلاً. أطلب منها باستعطاف أن تخبر "تهاني" أنني أموت وأنني أريد رؤيتها لمرة واحدة، لكني سمعت صوتًا رجاليًا خشنًا يقول بطريقة عدوانية: "ألو، ألو". أيقظتني نغمة الصوت من أحلام يقظتي، فأغلقت الخط بسرعة، ورأيت في لمحة، المخاطر التي أعرض نفسي وأعرض تهاني لها.

جلست في صالة السنترال، خائبًا، خائفًا، كأن الصوت سوف يطلع لي من عدة التليفون، كأنه قد عرفني. استفزني الخوف، فقلت سوف أتصل مرة أخرى، غير مصدق أن الأمل الذي لاح قد تبدد بهذه السرعة. قلت مصبراً نفسي، سوف أنتظر بعض الوقت. الرجال ينزلون من البيوت غالبًا في المساء. يمكن أن أتصل مرة أخرى في السابعة. خرجت من السنترال متعبًا. طالت المسافة إلى الشقة كأنها طريق بلا نهاية. جسدي ثقيل ونفسي خافت. فتحت الشقة وتمددت على كنبة في الصالة غير قادر على التنفس. لا يمكن أن ينطفئ الأمل بهذه السرعة.

عدت في المساء إلى السنترال، طلبت الرقم مرة أخرى، وانتظرت خائفًا، أن يتوقف رنين الجرس الطويل. رفعت السماعة رغم ذلك. سمعت صوتًا نسائيًا خافتًا. انتظرت حتى سمعت كلمة "ألو"، تتكرر عدة مرات. خفت أن تغلق الخط، فقلت بسرعة:

"أنا يوسف تادرس، زميل تهاني".

انتظرت قليلاً. الصمت ثقيل، لكن الكلمات اندفعت بسرعة:

"أرجوك أريد أن أكلم "تهاني، أرجوك".

تحدثت باستعطاف وغلبنة كأن طاقة من السماء قد فتحت وأخاف أن تنغلق. لا أعرف ماذا حدث لي. ألم أقل لك إنني أصبحت على مسافة من نفسي، أشاهدها تتحرك وتتصرف بمعزل عني. كنت مسلوبًا أسير وفق ما تمليه عليّ، غير قادر على إيقاف الأمر. سمعت الصوت النسائي يقول:

"تهاني مريضة جداً، ولن تنزل المدرسة هذه الأيام".

قلت:

"ألا يمكن أن أكلمها؟".

قالت بحسم:

"لا يمكن. قلت لك مريضة جداً".

صمت لا أعرف ماذا أفعل، وسمعتها تقول:

"اسمع، حياة تهاني صعبة وأنت تعرضها للخطر باتصالك، لو سمحت لو بتعزها صحيح، توقف عن الاتصال" .

لم أجد كلمة أرد بها. سمعتها تقول مصرة على أن تزيد الأمر وضوحاً.

" زوجها يمكن أن يقتلها" .

قلت:

" خلاص لن أتصل بها، لكن كيف أراها، سوف أراها من بعيد" .

تنهدت أختها وقالت:

" تهاني تذهب إلى المدرسة يومي الثلاثاء والخميس" .

وأغلقت الخط بسرعة.

جلست مرة أخرى في صالة السنترال، أكثر تعباً مما كنت في الصباح.

ضاقت المدينة حتى لم أعد قادراً على التنفس ثلاثة أيام مرت، وأنا راقد غير قادر على النوم. إحساسي بأنني لن أتمكن من رؤية تهاني يوجعني كأنه ألم جسدي. ذهبت إلى صيدلية قريبة وطلبت مهدئاً. كان الصيدلي يعرفني ونبهني ألا أستعمله باستمرار ولا بكميات كبيرة. قلت له لا تخف، أريد أن أنام عدة ساعات. فعل المهدئ فعله، وجدت نفسي دائخاً ونمت فترة طويلة، وإن قمت من السرير لكي أقضي حاجتي أعود بسرعة، متثائباً،

لأهرب في النوم. منحتني الأقراص المهدئة ارتحاء في الأعصاب، وشعرت بجسدي ثقيلاً وحركتي بطيئة، لكنه كان ضروريًا كي لا أنهار.

خلاص، انتهى الأمر، ذات صباح، ارتديت ملابسي ونظرت في المرآة. كنت مثل شبح، لا يهم. سرت حتى محطة الأتوبيسات. ركبت أتوبيس الإسماعيلية. ما إن جلست في المقعد حتى شعرت بالراحة، حتى لو كنت ذاهبًا لموتي كان أهون مما أعانيه. نمت طول الطريق، وعندما وصل الأتوبيس إلى الإسماعلية كنا في منتصف الليل. قضيت الوقت في مقهى في المحطة، حتى بدأت أتوبيسات الأقاليم. أشعر بنفسي منعزلة عني تتحرك بالريموت كنترول من مكان مجهول. وصلت إلى الزقازيق أثناء صخب الصباح. ميدان المحطة صاخب مثل ميادين طنطا، هنا الشوارع أكثر اتساعًا، وبقايا ترعة أو ريّاح ما زالت تقطع المدينة. سألت عن المدرسة ووقفت هناك بعيدًا على الرصيف، لا أعرف إن كنت سوف أرى "تهاني" أم لا، لكن هذا المشوار كان لا بد منه.

بقيت ساعتين في شمس الصيف. أدور حول أسوار المدرسة المدهونة بالجير والمشبعة بإعلانات علاج العقم وقاعات الجيم، ومحلات النظارات الحديثة وعيادات الأطباء، ثم أعود لأقف بعيدًا في الجهة الأخرى من الطريق. كل امرأة يخيل إليّ أنها تهاني، ولكن ما إن تقترب حتى يتبدد الأمل. أثقل ساعتين عشتهما. التوتر حطم أعصابي، وأملي أخذ يتبدد كل لحظة، لكنه كان يولد أيضًا كل لحظة. فكرت أن أتصل بأختها، لكني خفت، وعدت إلى مكاني.

كانت الساعة قد أصبحت الحادية عشرة، والشمس ألهبت الجو بالحرارة. لمحت تهاني. كانت نحيلة. أكثر من ثلاثة أسابيع مرت على فراقنا لا يمكن أن تتبدل بهذا الشكل. كدت ألا أعرفها، كانت شاحبة ترتدي ملابس سوداء، وجدت نفسي مندفعًا تجاهها، لم أفكر فيما يمكن أن يحدث، وعندما رأتني فتحت عينيها وفمها؛ في البداية اكتست ملامحها بالدهشة ثم الصدمة ثم الخوف ثم الغضب. استقر الغضب كتعبير أخير للوجه، وقالت بنفور أوقفني مكاني. "سوف تتسبب في موتي، امشِ من هنا" ثم واصلت السير بجدية تحاول السيطرة على ارتباك خطواتها في طريقها إلى باب المدرسة. لهجتها العدوانية وطريقتها في النظر سمرتني مكاني. لم تكن هي "تهاني"، رغم أنها هي. امرأة أخرى. كيف يخفي الإنسان آلاف الأشخاص في داخله؟ وجهها المفزوع، العدواني، النافر، حفر هوة وجع امتدت وشملتني. كنت أفكر بلا توقف: لم تكن تهاني. كانت امرأة أخرى يمكنها أن تقتلني لو اقتربت منها أكثر، حتى تحافظ على حياة تعسة. وقفتي في الطريق بدت بلا نهاية، الأرض تهتز حقيقة أم ترتعش خطوتي؟ لم أهتم بالتمييز. صعب ما رأيته في وجه تهاني كيف يتبدل المرء على هذا النحو؟ بصراحة لم أعرف إلى أين أذهب، لم أعد أرى أي شيء، كنت قد ضعت.

هذا يوم آخر من أيامي السوداء، حُبِست في مكاني، في لحظتي، ليس لي مكان آخر أو زمن آخر، لا يمكنني أن أعود إلى الطور بجهامتها وضيقها وجوها الخانق ولا يمكن أن أعود إلى طنطا، حيث "جانيت" تنتظرني

بهمومها وكراهيتها. لا مكان لك، مرة أخرى. هذه المرة الأمر أقسى، فوجه "تهاني" النافر شق الروح بالسكين. جاءت النجدة عندما شعرت أنني يمكن أن أسقط، وأموت مثل أمي في الشارع. في تلك اللحظة هلت صورة "نادية" أختي. تماسكت قليلاً. أحمد الرب أنني استطعت، في ظل هذا التشوش، أن أوقف تاكسي ليقلني إلى موقف القاهرة، وأن أتمكن من الوصول قبل الليل إلى بيت أختي في العباسية.

شهقت "نادية" عندما رأتني وقالت: "مالك يا خويا مالك يا يوسف"، وأخذتني في حضنها. لم أتمكن من منع نفسي من بكاء طويل مثل طفل؛ بكاء حار كثيف، فيه كل ما كان محبوسًا في قلبي لمدة طويلة. لأول مرة أفهم خبرة قصة الابن الضال. كان كل شيء حولي له قيمة؛ الشقة الضيقة ونظرة نادية إلى وجهي، وشفقتها الأمومية تطل من عينيها كما كانت تطل من عيني أمي، وحسي أنني في بيت..

كانت نادية مصدومة من منظري، ومن بكائي الثقيل، وكلما حاولت التوقف عن البكاء، يعيدني إليه لمحة أو رائحة. كل شيء حولي كان يعيدني إلى البكاء: أثاث الصالة الضخم، ونور النهار المتلاشي من البلكونة، وكراسي الصالون، وشخطها في أولادها أن يذهبوا إلى غرفتهم: "خالكم تعبان"، ورائحة الطبيخ التي تملأ البيت. كأنني اشتقت إلى البيوت، إلى المائدة وأوقات الغذاء وشعرت برغبة قوية أن أرى "فادي" و"ميشيل"، أن أنام في سريري، وأسمع وشيش الوابور في أيام الشتاء.

أغمضت عيني، فخطفني النوم. لمست "نادية" كتفي. فتحت عيني على وجهها الباسم، وشعرها الكثيف الأصفر قالت: جهزت لك الحمام. سرت كالمنوم. أخذت حمامًا ونمت حتى الصباح. كاد يعيدني إلى البكاء ترحاب زوجها ولومه الودي أنني لم أزرهم من فترة طويلة. منحني النوم بعض القدرة فأغلقت باب البكاء.

تناولنا الإفطار معًا، ونزل إلى عمله وبقيت مع أختي.. حاولت "نادية" أن تفتح الموضوع لكني أسكتها، وقلت مازحًا: "أنت السبب، لو لم أتزوج صاحبتك ما عشت هذه الحياة التعسة". قالت: "صدقني يا يوسف لو لفيت الدنيا لن تجد أحسن من "جانيت". "تحبك وتريدك، لكنك شارد تريد أن تعيش على هواك". عرفت أنها تزور "جانيت" باستمرار، طمأنتني على الأحوال واحترمت رغبتي في الصمت ولم تتطرق مرة أخرى إلى الفضائح التي أثيرها في كل مكان.

تركت بيت أختي وعدت إلى الطور، جهزت حقيبتي، ورجعت إلى طنطا.

***

يقول يوسف تادرس:

خرجت من طنطا بفضيحة وعدت إليها بفضيحة. تلاحقني الفضائح أينما حللت حتى تمنيت أن أختفي. تعبت فعلاً، وشعرت أن الحياة متاهة، وصببت غضبي على نفسي، ومنذ الأيام الأولى في طنطا أدركت المتاعب التي عليّ حملها. كنت في نعمة في الطور؛ فقد جاء دور "جانيت" لكي تعذبني. حاولت أن ألتمس لها الأعذار، وأن أفكر أنني جرحتها جرحًا لا تتحمله امرأة، لكني كنت مضطربًا، غاضبًا، أرى أنها السبب في مشاكل حياتي. لو لم أتزوجها لما حدث لي هذا، وهي ترى أنها يجب أن تقضي عليّ، لأنه لا أمل في أن أكون ملكها. فوق هذه المعادلة السامة قامت حياتي بعد عودتي من الطور.

في صباح كل يوم أنزل إلى العمل، أعبر شارع الحكمة. كما ترى، أصبح يغص بالبشر. لا تجد مكانًا تمشي فيه، كأن الدنيا عقد وانفرط. يركبون شبكات المجاري والكهرباء والتليفونات، يردمون ثم يحفرون مرة أخرى. تقابلك كل أنواع السيارات؛ تاكسيات وعربيات كارو، ميكروباصات، عربيات نصف نقل، أتوبيسات المدينة. لم تكن المنطقة على هذا النحو الصاخب عندما سافرت إلى الطور، أم أن الذاكرة تخونني. يخيل إلى أن الفضاء كان أوسع.

تخيل؟ كنا نشكو في الثمانينيات مما فعله الانفتاح، لم نكن ندري أن القادم أسوأ. المدهش أن الناس لا تشعر بغلالة التراب التي تحيطنا. تجلس

الفلاحات على جوانب الطريق أمام مشنات الخضار، يتراكم التراب على وجوههن، دون انتباه. أكوام الزبالة على النواصي تتدكس والقطط تمرح عليها. كل هذا يحدث حولنا، جزء منا، نحن من نصنعه. كل صباح، يستدعي هذا الصخب أيام الزقاق. يشب حنين شفاف مثل غبار الطريق، تجاه تلك الفترة ويظهر الزمن البعيد نقيًا كحلم.

أقضي أغلب الوقت جالسًا في البلكونة، فكرت أن أدخن السجائر. كرهتها منذ النفس الأول طول الوقت أسأل نفسي: ماذا تريد بالضبط، يابن تادرس؟ من أين جاءت هذا الهوة المفتوحة في الداخل؟ ما معناها؟ ماذا تريد؟ تهاني لا أمل لك فيها، خلاص انتهت، حلم وراح ماذا تريد بالضبط؟ فكر قبل أن تضيع.

تعرفت في تلك الفترة على سماع الموسيقى. تابعت النغمات بذهني، وتسللت إلى قلبي، لكنها أحيانًا تطن في عظامي وتزيدني توتراً. سمعت موسيقى بيتهوفن وموتسارت، من شرائط وفرها لي "رضا بولس" الذي كنت ألتقيه يوم الجمعة في زيارته لطنطا. في المرة الأخيرة قال: "لا تقلق يا يوسف، فترة صعبة وسوف تمر".

كنا نلتقي في مقهى وسط المدينة، وإن كان وقته ضيقًا يطلب أن أزوره في بيت جدته. في الغالب كان يكرر: "الرسم هو الطريق يا يوسف"، وكنت أعتبر تلك العبارة مجاملة أو عادة من عادات الكلام. في المرة الأخيرة نظرت إليه مندهشًا كأنه يتكلم عن شخص آخر. لم أتمكن من فهمه في

أوانها، كان بصيراً بي أكثر من نفسي، مؤمنًا بقدراتي عني، فاهمًا للحياة، أما أنا فكنت أعيش في ماء ثخين لا أتمكن من الخروج منه.

البيت كان الجحيم. "جانيت" لا تكف عن التحرك في الشقة منفعلة غاضبة. تطلب طول الوقت أن أساعدها في شيء، أركب قلب حنفية، أسلك بلاعة، أدق مسماراً في الحائط، تكرر طلباتها بلاتوقف، تريد أن تلخمني وتغرسني في حياتها بأي شكل. لا يجب أن تتركني هكذا. لا بد أن تنغص حياتي والسلام تتحدث عن مصاريف البيت التي لا تكفي، رغم أننا نعيش عيشة معقولة، و"تلقح" كلاما حول جلوسي في البلكونة أسمع الموسيقى والناس تعمل بعد الظهر لكي توفر لأبنائها حياة أحسن. الغريب أنني لو فكرت أن أعمل لاعترضت وطلبت أن أظل هكذا حتى تمارس انتقامها.

لا تعرفني "جانيت"، لم تعرفني إلا عندما رضيَت بوضعها، وأيقنت أنها لن تتمكن من خطفي، لأنني مخطوف من قوى أكبر منها؛ خيالات وصور وانتباه داخلي مختلف تمامًا. لم تتوقف عن تلك الحيل إلا عندما تعبت، وزهقت، وأخيراً بدأت تتعاطف مع هذا الرجل المتعب. في الأشهر التي تلت عودتي من الطور، كانت شهوة الانتقام قوية. تقبلت الأمر، كجزء من الغبار الذي يلف حياتنا، مدركًا مقدار جرحها. حكاية "سناء" كانت أخف، أما حكاية "تهاني" فهي جرح غائر، جعلتها عازمة على تدميري؛ لم أقدّر أنها تحبني وأنها أنثى.

بدأت متاعبي النفسية، سافرت مرات إلى الزقازيق ووقفت كالمتشرد أمام مدرسة "تهاني" ودرت حولها، وتجولت في الشوارع. هناك خلف تلك الجدران، تومض بهجة لا يمكن استعادتها. كنت أجد نفسي في فراغ أثناء عودتي من المدرسة، ضائعًا لا أمل لي، كارهًا كل ما يحيط بي، البيت والمدرسة والشوراع والناس، فأتوجه إلى المحطة، وأركب قطار الزقازيق، وأشعر بنسمة حية في روحي، بأمل أدرك منذ البداية أنه فارغ، لكنه شبح أمل. هناك أتجول في الشوارع. أجلس في المقاهي. وأبقى حتى الليل.

عند عودتي، تسألني "جانيت" عن غيابي. أجلس صامتًا. تصيبني حالة من البكم لعدة أيام. كأنني مذهول من نفسي. أين ذهب النور الذي عاينته لحظات في حضن "تهاني"؟ كيف يمكن أن أستعيد الفردوس؟ لم أتمكن من رؤية "تهاني" مرة واحدة، ولكني كنت أعود إلى مدينتها كأنني أقترب منها، وأعيش مرة أخرى تفاصيل ذلك الأسبوع الذي أعتبرته أثمن ما عشت. الغريب أنني محوت وجهها النافر كأنه لم يكن، كأنه وجه شخص آخر، وتوقفت عند لحظة ركوبها السيارة من موقف الطور.

أنقذني من الضياع حاجة "ميشيل" إلى دروس في اللغة الإنجليزية. لا يمكن أن يكون أبوه مدرس إنجليزي ويأخذ درسًا، وبدأت أنظم للولد جلسات للدرس، وأجبر نفسي عليها. قليلاً فقليلا بدأت أسأله عن حياته وبدأنا نتحدث عن أصحابه ومتاعبه. كانت حكايته إعادة لسيرة الاضطهاد جيلاً بعد جيل. هذا يحزن القلب ربما ينتهي هذا الأسى في يوم من الأيام،

لكنه حتى الآن صليب يحمله جيل آخر وآخر حتى يأتي ذلك الوقت، إن جاء.

كانت معاناة "ميشيل" عكس معاناة أخيه. "فادي" كان حيوانًا من يوم مولده، طاقة فظة، كائن جسدي بشكل كامل، منذ سنواته الأولى في المدرسة الابتدائية، وهو يعود مخربش الوجه، لا يمر يوم دون أن يتعارك. من أين جاء بالحيوية؟ ربما من جده تادرس، ربما من روح "جانيت" المتمردة كنت أراقبه بتعجب، خاصة أنه في الإجازة الصيفية بدل أن يجلس في البيت، يذهب إلى الصاغة ليعمل في طلاء المعادن بماء الذهب في ورشة خاله نجيب. كان ساخرًا ومهزارًا، لا يكف عن مناكفة أمه، ربما صرف عني قدرًا من عدوانيتها. أما ميشيل فقد كان حزينًا، مركزًا منذ ذلك الوقت المبكر على أنه "يريد أن يمشي من هنا". تلك هي الجملة التي دارت حولها حياته وهو يكبر، حتى نفذها بعد تخرجه في كلية السياحة والفنادق.

متاعبي النفسية زادت، والمخاوف التي حدثتك عنها وجدت بيئة خصبة في تلك الفترة. توهمت أن "جانيت" تريد أن تتخلص مني. بدأت هواجسي تستبد بي. من أين جئت بهذه الصور؟ وهل صحوت ذات يوم ووجدتها واقفة بجانب السرير وهي تمسك السكين أم أن ذلك كان حلمًا؟ ظل يروادني هاجس غريب أنها يمكن أن تضع لي السم. أقول لنفسي أصبحت مجنونًا يا يوسف، نحن نأكل جميعًا من نفس الطعام، ولا يمكن أن تسمم أولادها. كنت متأكدًا أن "جانيت" لا يمكن أن تفعل ذلك، فرغم كل الغل، أشعر بحبها معكوسًا، على شكل رغبة في التدمير، لكن كيف

يمكن أن تقنع الوساوس بالحجج؟ أقول لنفسي مازحًا: "جانيت" لا يمكن أن تفعل ذلك، لأنها لو تخلصت مني لن تجد من تصب عليه نقمتها؟ كل ذلك لم ينفع مع الهواجس الغريب أنني عرفت، بعد ذلك بفترة قصيرة، أن من كان يريد أن يتخلص من يوسف تادرس كان يوسف تادرس نفسه.

ازداد الطين ابتلالاً، عندما ظهر الأستاذ "نعيم" مرة أخرى، يريد أن يصلح ما أفسدته بطيشي في علاقتي بالكنيسة. مر عليّ ذات يوم في المدرسة وطلب أن نتقابل في كنيسة ماري جرجس مساء الأحد. كنت أعرف أنه يشكل راعيًا مدنيًا لأبناء الكنيسة من الموظفين، أو شيئًا من هذا القبيل. عمل تطوعي. دور يجد فيه نفسه وفي النهاية يساعد الناس. بمرور الوقت تراكمت داخلي كراهية له وللدور الذي يقوم به. رأيت أنه بشكل خفي يساهم في العزلة، يساعد في الفصل بيننا وبين من نعيش معهم. قابلت "رضا بولس" يوم الجمعة وقلت له: "قريبك يريد أن يراني"، قال: "يا يوسف لا تكن عصبيًا واسمع، الرجل طيب فعلاً، ويريد لك الخير"

ذهبت لمقابلة الأستاذ "نعيم" يوم الأحد. كان رواد قلائل في طريقهم إلى الخروج من الكنيسة. أحب ساحات الكنائس؛ فيها نوع من الصفاء بعد الصلاة خصوصًا، هناك بِشْر وإقبال على الحياة، ملمح طيب يلوح في وجوه الناس؛ سكينة وتفاؤل. كنت ألبس قميص نصف كم، والهواء البارد يقشعر جسدي، وزني قد نقص كثيراً، أكن آكل جيداً، أعصابي متوترة، وألمح غضبًا مثل الأبخرة يتراكم في الداخل، وجاء الأستاذ "نعيم" ليعلمني كيف أعيش.

وقفت على باب الكنيسة أتطلع إلى وجوه البنات والصبيان الصغار، وأفكر فيما كنت أفعله عندما كنت أجيء هنا بصحبة أمي. سمعت صوت الأستاذ "نعيم" يناديني. كان يجلس على مقعد خشبي في الساحة الخارجية، وقال لي: "تعالَ اجلس بجانبي".

بعد قليل من الصمت، سمعته يتنحنح ويبدأ حديثه. ككل مرة بدأ الكلام من بعيد، من مغريات الحياة، ومن نزوات الشباب، والإنسان الحائر الذي لا يجد خلاصه إلا بين أحضان الرب. ثم تحدث عني، من بعيد أيضًا، من عند والدتي وكيف أن سيرتها نقية، في كل مكان يقدرها الناس ويذكرون تضحياتها وعملها الدؤوب في الجمعية، واقترب من الموضوع قائلاً. "لا بد أن المرء يجد نفسه وقد تعب من النزوات، ويحن إلى الاستقامة والتوبة". ثم قال بشكل عابر إنه طلب اللقاء هنا، لكي نتحدث بشأن حياتي.

كنت متوجسًا من حديثه، وعندما نطق بسهولة، كلمة "حياتي"، توترت أعصابي. كدت أقف وأغادر المكان، لكني تذكرت "رضا" وهو يقول: "اسمع وتعلم"، فجلست مضطرًا، متضايقًا، من طريقته في الكلام، ومن الحق الذي أعطاه لنفسه بالتدخل في حياة الناس.

لم أستوعب الأمر أبدًا، رغم أن معارفي وأقاربي يتسامحون في هذا ويعتبرون الأستاذ "نعيم" شخصًا طيبًا يساعد الناس محبة في الرب. لم أكن أرغب في استكمال الحوار. أعرف نفسي، أعرف أنني سوف أتعصب عليه. صبرت وأنصت. كان مجمل حديثه يشير من بعيد إلى كوني ابنًا ضالاً، وأن

أوان الرجوع قد آن. لم يكن ذلك موقفي الداخلي لم يفهم الأمر، ولم أكن راغبًا في مناقشة قصة الابن الضال، ولم يكن أب اعترافي، وباستمراره في الكلام، لم أعد أطيق هذا التدخل والحديث عني كأني غائب، وعندما سألني مباشرة عن الاعتراف ومتى كانت آخر مرة اعترفت فيها. نظرت إليه بغضب، وحدثته بما في قلبي. لا أعرف لم حملت الكراهية لهذا الرجل، رغم أنه لم يؤذني، بل عمل ما في وسعه كي ينجيني ويجنبني المشاكل.

تركت لعصبتي المجال، وأخبرته أنني لست ابنًا ضالاً، وأنني متصالح مع الرب وأعرف من قلبي أنه يسامحني، لكني لم أعد متصالحًا مع يوسف، وسألته ساخراً.

"عندك وسيله للتصالح معه؟".

قال الرجل بوود.

"أنت إذن لست متصالحًا مع الرب".

قلت: "يوسف تادرس ليس الرب حتى إن التصالح معه يعني تصالحًا مع الرب". وأكلمت غير عابئ بشيء: "أنت لا تدرك الأمر. العلاقة بيني وبين الرب خاصة جداً، هنا في قلبي، لماذ تتدخل فيها وأنت لست أب اعترافي. أشعر بالرب في قلبي، وعندما يكون غاضبًا مني أعرف هذا، وأعرف أيضًا عندما يكون راضيًا عني. هو من أدخلني هذه المتاهة ويشاهدني من هناك، ليرى كيف سأخرج أم سأتعفن وأضل وأهوى. كل يوم أشعر بالغموض والحيرة، ولا أعرف متى ينير بصيرتي ويرشدني إلى

الطريق. هذه الوصفات الجاهزة للطريق لا تصلح لروح فاسدة مثل روح شخص مثلي، صدقني يا سيد نعيم، صدق ابنك الصغير، لا تتعب نفسك معي".

تركته جالسًا ومشيت حائرًا في الشوارع، لا أعرف إلى أين أذهب؟ كلما أفكر أن أعود إلى البيت وأنا في حالة شديدة من الغضب أخاف، فيمكن أن أتهور وأفقد أعصابي على "جانيت" أو على الأولاد، كنت مسكينًا وحائرًا، ورغبت مرة أخرى في البكاء.

يوم الجمعة قابلت "رضا بولس". قلت له: "كلم قريبك أن يتركني في حالي، لست عاصيًا حتى يظن أنه يمكن أن يجني ثوابًا لقاء إرجاعي إلى الحظيرة، لست الابن الضال، أنا شخص تائه، لا أعرف طريقي، هذا هو الأمر، ولا أعرف إن كنت سأصل، أم أن الأمر سوف يستمر على هذا النحو". ابتسم رضا. كان قد انتهى من حلاقة ذقنه، ولبس الجاكيت، وقال بهدوء: "الرجل يقدرك، ولا يريدك أن تضيع". قلت ضاحكًا: "وصيه عليّ، وأخبره ألا يعاملني على النحو، أصبحت أخاف منه، لا يظهر في حياتي إلا في لحظات الكوارث".

كرت السنوات على هذا النحو. الأولاد يكبرون ويأخذون انتباهًا أكبر كما قلت لك، ربما علاقتي بالأولاد هي التي فتحت الثقب في سجني، وبمرور الوقت أيضًا بدأت أنتبه إلى أحزان "جانيت"، فقد لاحظت أن ضغطها يرتفع، وأنها أحيانًا تدخل غرفتها، تغلقها عليها وتبكي.

في أعياد الميلاد زارتني أختي "نادية" وأولادها، وقضت عندنا عدة أيام. استرحت قليلاً من تعب "جانيت" لأنها عادت تضحك مع "نادية" وتتذكران أيام المدرسة، وسنوات المرح. خرجتا معًا لشراء حاجات العيد. زرنا بعض الأقارب. بدأت أشعر بحاجتي إلى الأعياد والصحبة. تعبت من النفي. في تلك الفترة رأيت "جانيت" مرة أخرى. بدأت ألاحظ ضحكتها الجميلة وغمازات الخدين، وفي آخر يوم خرجت أوصل "نادية" وأولادها إلى المحطة قالت بحزن: "حرام عليك يا يوسف، ظلمت جانيت، وهي لم تحب غيرك، وطول عمرها تتمنى رضاك".

ربما عاد الهدوء إلى حياتي بعد ذلك. لا أذكر كيف تم الأمر. بمرور الوقت استقرت الأمور في البيت. قبل عيد القيامة اتصلت "نادية" وأجبرتني أن أوافق على اصطحاب "جانيت" والأولاد لنقضي العيد في القاهرة لم أكن قد سافرت منذ فترة طويلة مع أسرتي، وأنت تعرف أن تفاصيل الحياة العائلية توترني. قلت لنادية أخوكِ مريض وأعصابه مرهقة، ولا يتحمل هذا. قالت: "سنتركك في حالك". "انزل وسط البلد وقابل أصحابك، تفرج على المتاحف ومعارض الرسم. شفت!! لا أحد ينسى يوسف الرسام غير يوسف نفسه، كلهم انتظروا في الباطن أن يرسم يوسف لوحات لم يرسمها أحد.

سافرنا يوم الخميس. وصلنا إلى بيت أختي في الليل، خرج الشباب معًا، وجلسنا سهرة أسرية. مرة أخرى اقتربت من "جانيت"، استعدت

حسي بجمالها، صحيح أن جسدها امتلأ، ولكن روحها المرحة ظهرت، كأنها قد تعبت من النكد. يوم الجمعة تركتهم ورحت أتجول في منطقة شارع المعز. في اليوم التالي ذهبت إلى كنائس مصر القديمة، ويوم شم النسيم لم أتمكن من "الفلفصة"، وذهبت معهم إلى جنينة الحيوانات، جلست ساكنًا. لقد خيل لهم جميعًا أن الأمور استقرت، ولكن بصراحة كان هناك شيء ناقص.

لن أخفي عليك أنني في كل عام أطلب مراقبة الامتحانات في مكان بعيد، ربما أقابل "تهاني" وعندما يأتي ميعاد الامتحانات يرتجف قلبي، ويضطرب. خليط من القلق والترقب، ثم بمرور الأعوام بدأت أخاف، أن أجد "تهاني" وأن أهدم البناء الهش الذي أقمته مرة أخرى. بعد الأربعين لم أعد راغبًا في هدم البناء. لم أعد قادرًا على تلك الأجواء الهوائية وتمنيت أن يتوقف قلبي عن طلب النزوات. خيل إلى أنني تعبت، وخلاص لم يعد هناك شيء، ابني الكبير بلغ وطلعت له تفاحة آدم وروحي أصبحت داكنة، راكدة مثل ماء آسن.

في تلك الفترة بدأت التفكير في الترهبن، وترك كل شيء، كأن حلم البعث يحقق نفسه رغمًا عني. طول عمري الفكرة بعيدة عن خيالي، لكن تعب هذه الفترة وركودها أقنعني بوجاهتها. لا شيء يمكنه أن يملأ الفراغ في الداخل غير الله. بدأت أحلم كثيرًا بطقس البعث، بأشكال مختلفة، واستقر معناه القديم على أنه نبوءة، وأخذ في تلك الفترة معنى النداء، لكن كلما

اقتربت من الفكرة تراجعت، وفي لحظات أخرى يبدو أنه لا حل لي غير هذا. كل الطرق مغلقة ولن أتمكن من الشفاء.

***

يقول يوسف تادرس:

في كل مرة تشعر بأن حياتك قد رست مكانها، تأتي لحظة تنقلك نقلة أخرى، وتعرف أنها لا تتوقف، طول ما فيك نفس، تظل الطاقة تبحث عن التحقق. كنت قد سكنت وقلت خلاص، ما تبقى سيكون أيامًا متشابهة، سوف أعيشها كما النائم، وموضوع الدير سيحسم نفسه على مهل. لكن هناك طاقة تحت الجلد لا نعرفها إلا عندما تهب علينا تطلب الوجود. هذا ماعرفته، في تلك السنوات، التي مرت بسرعة. أيام شديدة التشابه حتى أنني لا أجد ما أحكيه عنها، غير انتقال الأولاد من صف إلى صف، حتى وصل "ميشيل" إلى الثانوية العامة وأصبح "فادي" في الإعدادية، لا شيء غير تفاصيل صغيرة، صغيرة، تحتاج إلى مجهر حتى تراها. حياة فارغة أهم ما فيها كان العلاقة المتوترة بنفسي.

كنت قد توقفت عن النظر في المرآة منذ فترة كأني أريد أن أمحو صورتي من ذاكرتي، ربما هنا منبع الرغبة في الترهبن. كنت أريد أن أنسي وجهي، لكنه، أبدًا، لم يكن ينساني، على الأقل يذكرني به ميل النساء وحديثهن معي. بدأت أشعر بأن هذا الوجه لا يخصني، وعندما جاءت مدرسة إنجليزي إلى المدرسة؛ شابة متخرجة حديثًا، واقتربت مني، نفرت بسرعة،

فلم يعد عندي جهد لهده المغامرات، وبدأ يقيني يترسخ بأن هذا الوجه، قد أصبح قناعًا، صورة من الخارج لا تخص الشخص الذي أكونه.

هل جربت هذا؟ هل جربت أن تنظر إلى المرآة وتسأل نفسك من هذا؟ هل جربت أن يتناقض حسك بنفسك مع حسك بوجهك، خاصة أن وجهك ليس مجرد ملامح، لكنه مفتاح لأحداث في الحياة. تجد نفسك تقف في طابور دفع فاتورة التليفونات وتبتسم لك الموظفة وتقودك كي تساعدك في دفع الفاتورة بسرعة بدل الوقوف في الطابور ولا تملك ما تقدمه غير بسمة ووعد برد الجميل ذات يوم. شكلك ليس مجرد ملامح ملصوقة على وجههك، إنه كائن حي مؤثر في حياتك، ويمثل صورة عنك، تعرفها من خلال انطباع الناس الذي يظهر في تصرفاتهم تجاهك، وعندما تتناقض الصورتان تقع في حيرة شديدة، لماذا يتصرفون معي هكذا؟ لماذا يخصونني بالعداوة أو الحب من أول نظرة؟ إنني لست هذا الشخص الذي يتطلعون في صفحة وجهه، وتستمر الحيرة: من أنا؟ السؤال الصعب الذي ظل مشكلة الإنسان منذ بزوغ الوعي. صعب هذا الحاجز بينك وبين الكائن الذي يعيش في بدنك.

لا تنظر إليّ هكذا كأنني من كوكب آخر. أنا من هنا من هذا المناخ الذي جئت أنت منه، وأراهنك أنك مررت بلحظات مشابهة، ربما لم تنتبه لها، ربما هناك غيرك انتبه لها بطريقة أكثر عمقًا مما أتحدث. لا يغرك الانشغال بأمور الحياة، إنه انشغال يشبه الهروب من العين المحدقة في الداخل. العين التي تراقب المرء من ولادته حتى مماته. كل واحد يريد أن

يعميها، أن يتخلص من ذلك الحس المزعج بالمراقبة الداخلية لكني وقعت في الفخ، وحدقت في العين أو هي حدقت في، وهذا ما حدث.

على العموم، الشرور ليست خالصة الشر، حتى الرغبة في التخلص من الذات، خطوة في اتجاه تحررك. كما قلت لك، في تلك الفترة وصل ركود حياتي إلى أقصاه، واقتربت فكرة الدير جدًا، وبدأت سرًا إعداد نفسي للأمر. ذهبت إلى الكنيسة وسألت الأب بولا عمن يرشحه ليكون مرشدًا لي، وكيف يمكن أن أعد نفسي. بدأت بقراءة الكتاب المقدس بنظام قاسٍ، حتى حدثت التغير الذي لم أعمل حسابه؛ قابلت "بلال الشيخ" في المدرسة وتغير الاتجاه تمامًا. كيف تم هذا؟ ما هو تفسيره؟ لا تسألني. الآن أعرف أن الصدفة هي التي قادتني إلى النجاة، ربما هي دعوات أمي. لا أعرف، ولكن إجراءات الذهاب إلى الدير توقفت في ثانية وتلاشت.

ذات يوم كنت في المدرسة. سمعت صوتًا ينادي: "يوسف تادرس، يوسف!!"، النبرة واضحة، أعرف صاحبها، لكني لا أستطيع تذكره. نظرت خلفي في غرفة مدير المدرسة. رأيت رجلا أصلع تخينًا جدًا حتي إن لغده غطى رقبته، ينظر إليّ بمعرفة، بعد لحظة عرفت فيه "بلال الشيخ". لم أكن قد رأيته منذ أن مزقت رسومي بعد أن خرجت من بيته. فترة طويلة. عمر.

نزلت الدرجات التي صعدتها على السلم وعدت مندهشًا أن يكون ذلك الرجل هو نفس الشخص الذي كتب بيان ٣٠ مايو. "أن تكون العين

شمسًا والقلب شمسًا والروح شمسًا" . اقتربت مرحبًا وسألت بمرح وحس بالأخوة القديمة عن الأحوال. كان قد أصبح موجهًا للرسم بعد عودته من إعارة الإمارات. جلسنا نتحدث فترة، وسألته عن "حازم الشربيني" قال إنه عاد من الجزائر ويعمل في قصر الثقافة، و"حسين" يعيش الآن في القاهرة ويكتب في جريدة مسائية مقالات في الفنون ونقد المسلسلات التليفزيونية. رافقته خارج المدرسة، وأوصلته إلى سيارته، وأنصت بدهشة إلى حديثه. لا شيء تغير، يتحدث بنفس الطريقة القديمة. محفوظات أخرجها من علبتها القديمة وراح يتلوها مرة أخرى كأنني لا أعرفها.

عدت إلى المدرسة متوترًا. لم أكن أتوقع أن أرى مرة أخرى واحدًا من جماعة عنخ، حتى زملاي "محمد" و"كريم" كانت علاقتنا هامشية جدًا. قابلت "محمد" ذات مرة نازلاً من محطة القطار متعجلاً، أتي بسرعة إلى المدينة، ليزور أمه، كان يعمل بالتدريس في كلية الآداب في القاهرة ويعد رسالة الدكتوراه ويكتب أحيانًا في أهرام الجمعة. أما "كريم" فلم يعد له أي علاقة بالرسم. تخرج في كلية التجارة وعمل مع والده في تجارة قطع غيار السيارات، واستغرق في حياته تمامًا. أراه أحيانًا عندما يحتاج "رضا بولس" إلى قطع غيار. نتذكر أيام مرسم قصر الثقافة ونضحك من سذاجتنا، لكن "كريم" يقول بنبرة حنين: "والله يا يوسف كانت أحلى أيام" .

شكل "كريم" وطريقته في الكلام وصورته وسط محل قطع الغيار، محت من ذاكرتي صورته في مرسم قصر الثقافة، ولم أعتبره يخص الماضي،

ولذا لم تترك رؤيته أثراً، لكن ظهور "بلال الشيخ" بهذا الشكل المباغت كان مربكًا، وغامضًا وبه لمسة من الغضب؛ أن ينبعث الماضي فجأة، كأنما ليخرج لي لسانه، ويكشف أنني ما زلت متعلقًا بتلك القيم التي تشبعت بها في صباي، وأنها اختبأت، طوال الوقت، خلف حياتي الراكدة. يكشف حلم اليقظة الساذج الذي عشته، ويشير، أيضًا، إلى أنني ما زلت متعلقًا بالرسم، رغم صمتي وبعدي، وانغماري في حياتي.

تحيل؟ دون أن أعرف كنت منتبهًا بشدة إلى الرسم، أنتظر أن يطل عليّ، ويلاقيني، مستنداً على ما ترسب في الداخل من جلسات جماعة عنخ من براءة ونور، والآن يأتي شيخ الجماعة ليسخر من هذا التعلق السري. كما قلت لك كنت على علاقة سيئة بنفسي وجاء لقاء "بلال" ليدفعني إلى مدى لا أتوقعه من نقمتي، ومن سذاجة تعلقي بأمور خائبة.

صعدت إلى حصتي، أعطيت الأولاد تمرينًا طلبت منهم نقله في الكراسة. كنت متوتراً جداً، أمرّ في طرقات الفصل، بعد أن فرضت صمتًا نهائيًا على الأولاد، أفكر: إذن الأمر هكذا، هذه هي الشموس، العودة من الإمارات وشراء شقة في برج في شارع النادي، وركوب سيارة وإدخال الولد الكلية الحربية والبحث عن زوج مثالي للبنت، الحياة الطيبة التي كان يسخر منها، كل هذه الشموس كانت عجزاً عن عيش الحياة الطيبة وعندما يعيشها المرء، تنطفئ الشموس، لكنها تظل حلية وزينة في الكلام. هذا هو الأمر، صح؟

رجعت إلى البيت في هذا اليوم أشعر بالحيانة الحس بالخذلان بعيد غائر لا يظهر بوضوح، لأنه يكشف تعلقي السري بالرسم، ويكشف هشاشة ما عشته في تلك الفترة على أنه الحياة. الحياة لا بد أن تكون صلبة وأنت مقتنع بها وتعيشها على أنها واقع، أما أن تظهر لك فجأة على أنها مجرد غطاء لرغبة سرية في الرسم، فيمكن لهذا أن يؤدي بك إلى الجحيم.

كنت حانقًا على نفسي. هل كانت تلك التصورات التي برقت في صبانا كذبة؟ أمرًا ساذجًا لا يمكن تحقيقه؟ كنت حانقًا على كون "بلال" لم يكن على قدر الكلام القديم، وهذا يجعل من الآمال القديمة مجرد أحلام يقظة. ربما كنت أنتظر هذا اللقاء حتى يفتح وعيي على الغضب الكامن في داخلي، هلس كل شيء، هلس كل حياتي، خيبة كبيرة وأنا لا شيء، وما ورطني في الحياة بهذه الطريقة وهم في وهم. وصل عدائي لنفسي إلى حافته، كنت أريد أن أفتح الجرح وأدسّ فيه الملح.

الغريب أن هذا اللقاء أعادني إلى الرسم مرة أخرى. وجدت نفسي في نهاية اليوم وقد جهزت ألوان الزيت ووضعت مرآة على الحائط في مستوى وجهي ورحت أرسم، هذا "الوهم" الذي اسمه يوسف تادرس. قلت لنفسي ساخرًا، سأرسم وجوه يوسف تادرس التسعة، ثم قررت أن أرسم تسعًا وتسعين صورة شخصية. بدأت الأمر بغضب، وبرغبة في شيء لم أكن أعرفه. رسم تسع وتسعين صورة شخصية عمل هائل يمكن أن يستغرق سنوات بعد عدة أيام تعلقت بالتجربة.

كشفت أول صورة أن اليد متخشبة والنسب مهتزة والرسم بعيد. الرسم مثل عزف البيانو، لا بد له من تمرين مستمر للأصابع. أثارت عودتي للرسم بهجة "ميشيل" الذي لم يتعرف على هذا الجانب مني، غير رؤية بعض الصور القديمة التي "جانيت" وراء الدولاب، وعندما جاء "فادي" من الدرس، نظر بسخرية وقال: "انت بترسم؟" ولكن بعد أيام بدأ انتباههما ينجذب إلى الصور التي راحت تتحسن، وأخذ حس آخر بأبيهما ينطبع على وجهيهما؛ نظرة تعجب من هذا الكائن الذي يعيش معهما.

الحياة نفسها جنون، والشيء الذي حدث بطريقة عادية وتقبله من حولك على أنه أمر عادي، عندما تنظر إليه بعد فترة، تجده جنونًا كاملاً، لماذا تبدأ عودتي للرسم برسم صورتي؟ فسر لي الأمر، ساعدني على الفهم، حقيقة لا أفهم، لمذا شننت تلك الحرب ضد ملامحي؟ هل كان وجهي هو المشكلة؟ لماذا خضت هذا الصراع الطويل مع نفسي؟

الصور الأولى كانت ساذجة، يرسمها شخص لا يفهم طبيعة الخطوط، فيها أخطاء بشعة في النسب، وباستمرار العمل لم يظهر مني غير الوجه الموجود في صورة البطاقة الشخصية. بعد ذلك بدأت الصور تأتي متعثرة تعبر عن جوانب أعمق من كياني. أحيانًا يقود الصورة انطباع لشيء واحد مثل يوم رسم الوناسة، أو يوم حبسي في ورشة جمعية الكتاب المقدس، أو يوم انتظاري على باب المشرحة في مستشفى المنشاوي.

استغرقت في الموضوع وبدأ يفرض سطوته، يمنحني حسًا مغايراً بحياتي. قلت أعمل استكشات، بالقلم الفحم، وقضيت وقتًا طويلاً أبحث في خطوط الوجه وتبدلاته. كنت لا أعرف نفسي. كنت طافيًا على السطح، والآن بدأت أتأمل الكائن الذي أعيشه. العين فيها نوع غائر من الحزن وفي انطباق الشفاة امتعاض طفولي، وتكبر وغرور، وفي غلظتهما حس شهواني. كان القلب مفتوحًا هناك. هل يمكن الوصول إلى شيء من خلال رسم تلك الصور؟ ولماذ أغرمت برسم صوري إلى هذه الدرجة؟ أجمل ما في تلك التجربة هو ارتباط الأولاد بي، وسؤالهم كل يوم وصلت إلى الصورة رقم كام؟ كانوا ينتظرون الصورة التاسعة والتسعين. تبدلت الحياة، قليلاً، و"جانيت" بعيدة تنظر بصمت وتربص. كانت الأمور قد هدأت، لكن هبّة الرسم وتّرتها وجعلتها تنظر بتشكك إلى جهودي.

تطور الأمر، ورسمت الوجه بطرق غريبة. بدأت اللعب في الملامح. رسمت الحواجب أطول، والشفاة غليظة منفرجة، ومضمومة، ومسترخية، والعيون جاحظة، مارست السخرية من الملامح في عدة لوحات، ثم انتقلت إلى رسم الوجه كما يظهر في الانطباع الداخلي. أنزلت المرآة، وبدأت أرسم من الذهن، قادتني الوجوه التي رسمتها والتي كانت تشبهني إلى حد ما، إلى أنواع خيالية من التشويه. "صور مرعبة" كما قال "ميشيل" ذات يوم. رعب الداخل تحرك في صورتي وجاءت كائنات مثل المسوخ، ووجوه الحيوانات، لم يكن التشويه يشبه الإعاقة البدنية الموجود في لوحات "إيجون شيللي الفنان النمساوي، بل كان تشويهًا فلكلوريًا مثل صور الجان

والعفاريت، لكن ذلك انتهى بسرعة، عندما رسمت وجهًا يطل من نافذة قطار، حزينًا ومعذبًا، التشويه كان آتيًا من الألم الباطني.

هنا بدأت أفهم الأمر، إلى حد ما. على أن أرسم انطباعات صفحة الوجه المعكوس في المرآة. أحضرت المرآة مرة أخرى. تركت للانطباعات حرية التحول، خليط بين صورة المرآة وصورة من خلال زجاج مغبش، أو طاله الضباب، وجوه بعيدة داكنة غير محددة الملامح. نسي الأولاد عدد الصور عندما بدأت هذه المرحلة من الغموض.

كنت أنفصل عن حياتي ببطء، وأؤدي عملي كأنني طيف، أبتعد دون أن أدري، وأصبحت الوجوه التي أراها في الشارع تتبدل لتحل مكانها ملامحي كنت ألصق ملامحي على كل وجه أراه، وأندهش؛ الصورة واحدة. الإنسان كائن واحد مع تغير في الملامح. استعدت في هذه الفترة مهارتي في رسم الوجوه، وأصبحت أخاف من التحديق في وجوه الناس، فقد شعرت مرة أخرى بقدرة النظرة على الاختراق، كنت ألهث وراء طيف لا أعرفه.

هل كانت تلك التجربة طقسًا للتخلص من الذات؟ ما هي الذات التي تطل من وراء الوجه؟ ماذا تريد؟ من هو الكائن الذي يطل عليّ؟ هل يمكن معرفته؟ هل يوجد فعلاً شيء منفصل عن الوجه اسمه الذات؟ كان الوجه يحاورني ويلعب معي، يطل عليّ مبتسمًا، ويغير من نفسه، فعندما أترك اللوحة لحظات، وأذهب إلى الحمام أو أدخل المطبخ لأعد فنجان قهوة ثم

أعود، فأجده وقد تبدل، والملامح أخذت تعبيراً آخر، والذات أصبح لها سؤال آخر، ربما شهوة أو حس بالفقد، أو دهشة من هذا الجنون.

تراءت الصور أحيانًا على أنها تأمل في لحظات قديمة، العين عين الطفل الذي يمسك بيد أمه أو ينظر مندهشًا إلى النور، ثم حضرت أمي وبدأت تتسلل إلى الصور وتطبع ملامحها على ملامحي. حاولت التخلص من الأمر، وقلت أرسم الوجه الظاهر في المرآة بطريقة واقعية، لكن أمي ظلت تلوح في الملامح، لم أكتشف أن وجهي يشبهها إلى هذا الحد إلا عندما رسمته. عقدة أوديب كاملة، أصحابك بتوع التحليل النفسي سوف يرون الأمر أوضح مني ومنك. أمي تسكن العين والشفاة، وربما التوق إلى الله. خفت قليلاً من هذا التشابه، ثم استسلمت وتقبلت عقدة أوديب، وبدأت أرسم ملامحي بغرض أن أبرز فيها صورتها، فراوغتني وظهرت صورة خالي مراد، ثم خالي نسيم، وعائلة أمي بالكامل، وبدأت الملامح توغل في صور بعيدة، حتى إنها لم تعد تشبهني. كنت ألعب وأطور شيئًا لم أكن أراه في ذلك الوقت. كان أمرًا عجيبًا أن أرى الأسلاف يطلون من صورتي، يتجمعون في ملامحي، وفي النهاية كنت أجلس متعجبًا من اكتشافي أنني لم أكن إلا حكاية امرأة تحب الله.

أنا إنسان شقي، هذا ما تقوله الصورة العامة، لكن الحقيقة أنني جربت لحظات من السحر والبهجة الصافية، وأنا أرى القناع يسقط وراء القناع. قناع يوسف الطيب، الشرير، النرجسي، البوهيمي، الشبق، النذل، المتهاون، السيئ الحظ، الغلبان، الذي يحب النبات، الذي يخبئ الأشياء في

جحور في الحائط، الحزين، المشفق على نفسه، الذي يريد أن تعود أمه حتى تطبطب على كتفه وتقول له: "إنت ابني، وحيدي".

تجربة غريبة، يتسلل إليك حس بالتفهم وبتعقد الإنسان، الكشوفات الشخصية تساهم في تبصيرك بنفسك ووضعك في الحياة. كان أهم ما حدث لي هو مراقبة تبدل وتعدد "الأنا"، لكنه في نفس الوقت كان هو الأمر الموتر والمنغص. أتوقف عند انطباع معين وأقول خلاص أمسكت الإحساس الذي يمثلني، أستمر عدة أيام في رسم الصورة على أنها تحمل جماع الشخصية، لكنها بعد ذلك تتبدل، لا تمثل غير جانب متحول مني.

الصورة تمثل انطباعًا واحداً بحكم طبيعة البورتريه، لحظة واحدة من آلاف اللحظات التي تعبر الملامح. كنت في محاولة مستحيلة. هل كنت أبحث عن المستحيل؟ عن صورة تنقل الروح الخالصة، تحمل الثبات خلف التبدل، الروح الأساسية الساكنة خلف السور، المختبئة خلف التفاصيل، الحس الأصلي. وكان الأمر كله خيال في خيال، حتى جاءت الصورة التي أبحث عنها بالصدفة.

كنت قد تعبت، ومضت أشهر لا أعرف عددها، اقتطع لحظات خاطفة من الحياة لكي أذهب إلى عملي وأؤدي طلبات البيت وأتابع دورس "ميشيل". "فادي" كان يحاول أن يريحني قائلاً بسخرية: "لا تشغل نفسك بي، أنا أدبر شئوني". لكن شعور "جانيت" بدأ يصبح عدوانيًا. بصحيح قل لي، كيف يمكن لأي شخص أن يتحمل هذا الجنون؟ لقد فهمت الأمر

الآن. "جانيت" كانت الحد الذي منعني من الحنون. هي التي صانت لي ما تبقى من تماسكي. لو كنت وحدي كنت قد "شيّعت" من بدري، كما يقول الشباب.

كان قد بقي على امتحان الأولاد عدة أيام. ليلة صيفية، كنت حائراً مستنفد القوى، وقد جهزت لوحة لأرسم عليها. لوحة من اللوحات القديمة التي تحمل أثراً لصور فشلت في رسمها، دهنتها باللون الأسود وقلت أجرب. الرسم مكلف كما تعرف وأنا فقير، وعلى أن أستخدم الخامات بحكمة. جلست أحدق في اللون الأسود وقتًا طويلاً، ثم مددت يدي تجاه الفرشاة، وبدأت أرسم باللون الأبيض خطوط الوجه من الذاكرة الخطوط الأساسية التي أحفظها. كدت أضع لمسة خاطفة عند انتهاء عظم الجمجمة لكي أشير إلى العين، إلا أنني تراجعت. لون اللوحة الأسود لم يكن كامل السواد، فالرسوم السابقة على نفس اللوحة منحت اللون تباينًا في عدد من المناطق، ولاحت أطياف في حالة حركة هناك خلف اللون الأسود نظرت بدقة، كانت صورتي تطل من داخل اللون الأسود المؤطر بالخطوط البيضاء دون حاجة لرسم الملامح، قلت إنها هلاوسي، هل مجرد رسم خطوط الجمجمة بدقة يأتي بصورتي على هذا النحو؟ جلست على الكنبة أنظر بتعجب إلى الصورة. الأمر صعب في ظل التعب والتوتر، أغمضت عينيّ، وفتحتهما، كانت صورتي تلوح أكثر وضوحا داخل الخطوط التي رسمتها.

لحظة رعب. الصورة كاملة هناك تطل من قلب اللون الأسود دون حاجة لرسم الملامح.

هذه أعجب لحظة في رحلتي، لم يكن هناك غير الخط الأبيض الذي يؤطر الوجه ومع ذلك عبر أكمل تعبير عن شيء كنت غافلاً عنه. فراغ داكن، هذا هو يوسف تادرس، لا شيء غير هذا. جلست ساعتين أحدق في الإطار. صورتي هناك تتحول في كل مرة ولكنها تبقى ملامح يوسف تاردس، اللوحات التسع والتسعون كلها هنا في هذا الإطار الفارغ لوجه إنساني. هذه الهوة تعبر عن الروح في بلاغة وهبتها الصدفة، والفقر وقلة الأدوات. أخرج إلى الشرفة وأغمض عينيّ، وأذهب إلى الحمام، وأقول إنها أوهامي، وأعود إلى الصورة، لأجدها تعبر عن صورتي بالضبط، الإستدارة غير الكاملة للجمجمة والذقن المدبب، والميل للأمام قليلاً.

بدأ ضوء الفجر الخافت يأتي من الشرفة. لاحظت حركة في الصالة، رأيت "فادي" في طريقه إلى الحمام. لم أتمالك نفسي، وناديته. أوقفته أمام الصورة وسألت. ماذا ترى؟ قال ببساطة:

"صورتك يا بابا".

ونظر إليّ مندهشًا وقال:

"يا عم سيبني أنام".

أمسكته من ذراعه خائفًا أن يمشي دون أن أفهم الأمر، وسألت.

"كيف عرفت؟".

نظر إليّ مندهشاً :

" صورتك وخلاص " .

هذا هو ما سعيت إليه إذن طول الوقت دون أن أدري. كل الشهور الماضية أكافح من أجل خلق هذه الصورة وأنت تقول ماذا يعني هذا؟ قد لا يعني أي شيء. إنني أتحدث معك كي أفهم المعنى وأنت تسألني؟ اسمع لا أنوى عرض هذه الصورة. لقد أصرّ "رضا بولس" أن يشتريها لكني رفضت. لن أفرط فيها، ليس فيها قيمة تخص أحداً، إنها تحمل رسالة لي.

لم أستطع أن أفارق غرفة الجلوس، لم أذهب إلى العمل، ظللت راقداً على الكنبة والصورة أمامي. في اليوم التالي نزلت إلى الشغل، وحالما أدخل البيت أتوجه إلى غرفة الجلوس وأقف أمام الصورة، لا يختل حضورها القوي يومًا بعد يوم، بل كان أثرها يزداد تقلاً. في يوم عدت من المدرسة ودخلت غرفة الجلوس ونظرت إليها، وجدت شفتيها تبتسم لي من داخلها، نظرة سخرية من وضعي ومن وجودي الهش الفارغ، الصورة تحاورني، وتتكلم معي. عرفت أنها يمكن أن تسكنني بالعفاريت وتطير عقلي.

العقائد الشعبية التي تحذر الأطفال من أن يحدقوا طويلاً في المرآة حتى لا يجنوا، صحيحة، المرايا يمكن أن تجننك، تحديقك في ذاتك طول الوقت يمكنه أن يقتل حسك بالعالم من حولك. هذا الهوس بصورة الذات كأنني كنت أبحث عن شيء لا أعرفه أدي بي إلى المرض، وأصبحت أكلم نفسي، حتى عادت بي "جانيت" من غياهب البحث الممض عن شيء عبثي، أوقفتني

وأنا عائد من الخارج ودبت خناقة لأنني نسيت أن أشتري الحاجات التي أوصتني بها.

الأساس الذي قامت عليه الخنافة أن البيت بلا خبز. كان يمكن أن ينزل "ميشيل" أو "فادي" وينتهي الأمر، لكن الأوان قد فات. أثارت تجربة الرسم ضغائنها ضدي مرة أخرى. كانت تقول وهي تلم ملابسها بأنها تزوجت من رجل مجنون وأنا سوف تعيش في بيت أخيها حتى لا تجن هي الأخرى. وتركت البيت في الليل. أول ليلة تنام فيها "جانيت" خارج بيتها. جاءت اليقظة. جلست في الصالة. التليفزيون يعرض برامجه لنفسه، وأنا أفيق على حالي: اصحَ يا عم يوسف. ميشيل وفادي في غرفتهما صامتان، ولا يتردد في الشقة إلا صوت التليفزيون كأنما في بيت مهجور، بقيت في مكاني ساعات أشعر بفراغ يحيطني، يمتد بلا نهاية.

في المساء التالي حضر نجيب، هذه المرة لم يرافقه الأستاذ نعيم، رافقه الأب بولا. تحدثنا بهدوء. قال الأب بولا، إن الحياة مشقة، ويجب أن نساعد أنفسنا في اجتيازها. ميشيل سوف يدخل الثانوية العامة والبيت له مصاريف والدروس الخصوصية مكلفة، لا بد أن أبحث عن عمل آخر بجانب الوظيفة، فقد تعبت "جانيت" من التدبير والتوفير والجمعيات. على أن أحمل معها بعض الحمل. لا يجب أن أتركها تحمل الهم وأنا جالس أرسم وجهي بلا انقطاع.

رأيت كيف أوغلت بعيدًا، مدفوعًا في تتبع ملامحي ناسيًا كل شيء عداها، كأنني أريد أن أصل إلى جذر الملامح حتى أتخلص منه، كانت تجربة عبثية بلا شك أعادتني منها هذه الأزمة، كنت مجنونًا على نحو ما.

اقترح الأب بولا أن أعطي دروس للطلبة في الكنيسة وأن أعمل مع "ناجي فهيم" في المكتبة فهو يحتاج إلى رسام، وبدأت رحلة أخرى.

ياه، أمر مدوخ، كان يمكن أن ينكسر المرء في الطريق أو يتوه ولا يصل إلى شيء.

***

يقول يوسف تادرس:

في لحظة تشبه الجنون، حيث يفقد الزمن والمكان وجودهما. لحظة صافية يمكن للمتصوفة أن يسموها "الجذب" أو أي اسم آخر، لا يعود وعيك العادي يعمل، بل نوع آخر من وعي صوري، هناك يحل الفهم كأنه كثافة شعورية، ليس مجرد خاطر عابر، مناخ مصحوب بشحنة عاطفية، ظهر لي ما كان خافيًا خلف حوادث حياتي، ظهر تعلقي السري بصورتي، كأنني أعشقها. كنت أنفذ حب أمي لي، دون أن أعرف. غريب أمر الإنسان. إنه يعيد إنتاج العلاقات التي كونته منذ البداية، يشعر تجاه نفسه بما يشعر به الناس تجاهه. علاقته بنفسه هي إعادة صياغة لشعور من حوله خاصة في مراحل تكوينه المبكرة. كان يوسف تادرس ظلاً، تخيل أنه حطم أسطورته الشخصية عندما كان مسافرًا إلى الطور عندما اكتشف أنه لم يكن منذوراً لشيء، لكن ذلك لم يكن إلا لمحة بسيطة من الوهم الكبير الذي يعيشه والذي تكشف أثناء الرسم. رسم صورتي الشخصية تجربة مركزية في فهم أسطورتي، وفي فهم أن كل إنسان يكوّن لنفسه أسطورة .

اسمع؟ سأقول لك ما تبقى في ذهني الآن من تلك التجربة. أرجوك لا تسخر مني، فأنا شخص وحيد لم أعتد مثلك النقاشات الفكرية، وهذه

خواطري، التي قد تكون بلا قيمة. دعني أحك لك ما حدث داخلي في تلك الفترة. خطر لي أن كل إنسان يظن نفسه إلهًا، وإن لم أكن متأكدًا من ذلك فعلى الأقل كنت أعيش وأنا أظن نفسي إلهًا. في تلك التجربة أدركت أسطورتي، ثم حضر تجارت عديدة لناس عرفتهم شكلوا أساطير شخصية عن أنفسهم، أوضحهم جماعة عنخ على سبيل المثال، ثم فكرت أن حياة كثير من الناس تقوم على فكرة وهمية يغرسها في ذاته أو تتكون له خفية، يستند عليها بقية حياته؛ نوع من الوهم تكون عبر علاقته بأمه أو أبيه أو أصحابه، أو مكانته الاجتماعية، مثل الرؤساء والملوك والضباط والقضاة والأطباء، وأيضًا زعماء التيارات الدينية، كلهم في أعماقهم ينفذون كلمة الله على الأرض، أي أنهم متصلون بالإله، اللمسة الإلهية في كيانهم تجعلهم مرتفعين عن بقية البشر، وعندما يقابلك واحد منهم، يعاملك على أنك الابن الضال، وأنه يملك الحقيقة المطلقة. من يملك السلطة المطلقة والحقيقة المطلقة مشارك في الألوهية، هذه كارثة.

على كل الأحوال هناك نوع من النظام في حياة كل إنسان، دعه يتأمل على مهل حياته، سوف يرى في البداية أن مسارها خاضع بالكامل للصدف، اسمه وديانته وملامحه، وميوله الوراثية، تكوينة لا يمكن الفكاك منها، ولكنه تصرف أيضًا، صنع أمورًا وترك أخرى، مشي في هذا الشارع وترك الآخر، تعارك مع فلان وأحب فلانًا، يمكنه أن يلاحظ الروابط في تلك الشخبطة التي تشكل حياته، ويرى ما أنتجته اختياراته ومادفعته إليه الصدف، هذه العجينة

التي كونت حياته فيها نوعًا من القانون الخاص، باكتشاف المرء لهذا القانون سوف يكتشف معنى ما، ويرى أسطورته تبرق خلف هذا، حتى الأشخاص الناقمون على حياتهم ويفكرون في الانتحار، ما يفعل ذلك بهم هو اكتشافهم لقانون حياتهم: "حياتي لا تستحق العيش"، أليس هذا قانونًا، ومعنى؟

رأيت قانون حياتي يبرق خلف تصرفاتي، رأيت الحس الباطني بأنني شخص فريد، ملموس بسمة إلهية، غرس الست أم يوسف، هذا جنون عظمة أعرف، وهذه كانت مصيبتي. صدقني لم أرَ النور إلا عندما رأيت نفسي هذا الكائن الصغير العابر. رأيت الحياة بلا أوهام، بلا أساطير، عندها بدأت أعيش. هذه النزعة الشديدة الوهم حول قيمة الذات، تضرب بجذورها في الخوف من العدم، والرغبة في الحياة المطلقة عند الناس جميعا؛ يريد البشر أن يشاركوا الله في صفة الخلود.

لن أتحدث عن الآخرين، سوف أتحدث عن نفسي، حتى تتأكد من مركب جنون العظمة ـ الاضطهاد. لا يهم، يخيل إلي أنني لم أرَ الأرض إلا عندما أدركت بهلع أنني كنت أريد أن أكون إلهًا. يا خبر؟ إنه أمر مروع، كان يعمل تحت جلدي دون أن أشعر، وكان أصل فكرة الذهاب إلى الدير، وربما أصل حلم البعث. يا خبر؟ كانت ستصبح كارثة لو ذهبت إلى الدير. الأمر مخيف حقًا، عندما أتأمله الآن. لو ذهبت إلى الدير لرسخت الأسطورة، وجعلتها واقعًا، وعندها كنت سأعيش في شقاء مطلق، متوهمًا

أنني أصفي نفسي من الإنسان الصغير الضيق، واستبدله باتساع الكون، بالروح المطلق.

لا يمكن، لو تم هذا، لكنت انتهيت. كنت فعلاً على وشك العبور إلى الضفة الأخرى، وكان هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي. سوف أكون إلهًا في صورة إنسان، وهذا أصلاً ما يجب التخلص منه، حتى يمكنني أن أعيش، أن أشم النسمة الحية للأيام التي تبقت لي على سطح الأرض. لو تم ذلك وذهبت إلى الدير، كنت سأبقى عائشًا في الوهم، متخيلاً أنني أمضي بعيدًا في طريق الله، وأطارد النور بلا جدوى، أما الآن فأشعر بأن التخلص من هذا كان شرط الحياة. أن يعيش المرء مثل فلاح، يعرف أنه مخلوق مثل كل المخلوقات من حوله، ويعرف أنه عابر، ورغم ذلك يزرع شجرة لأنه يقدس الحياة ولا يقدس ذاته، إنه يفهم الحياة أحسن مما يفهمها الرهبان والمتصوفة، بهذا الفهم يمكنك أن تتذوق طعم الحياة الطيبة، يمكنك أن تشعر بطعم كوب الشاي الذي نشربه الآن ونحن نسمع أم كلثوم.

لقد تذوقت بطريقة أخرى مشاويرنا في المدينة والمقاهي التي جلسنا فيها، وأحاديثنا التي لا تنتهي. أتذكر المقهى الصغير في الممر بالقرب من السيد البدوي، الذي جلسنا فيه أمس؟ لقد عرفته بالصدفة، كنت أسير شاردًا بعد رسم لوحة ثقيلة لم أتحمل كثافتها حتى رأيته مختبأً خلف شجرة التوت هناك. أتذكر المقهي المجاور لجامع الشيخة صباح؟ والمقهى القديم في الحارة الصغيرة المطلة على شارع سعيد؟ كل تلك المقاهي لها قمية أكبر من

كل شيء، كل أكواب الشاي في تلك المقاهي فيها سر مثل سر الصلاة، هذه الأحاديث واللغو والتأمل والحكايات، لا يمكن للمرء أن يفهمه ويتذوقه ويعيشه وهو تحت سحر الوهم. لا بد أن يقوم المرء من السحر حتى يمكنه أن يعيش حقيقة وجوده، طول ما أنت مأسور في السحر الخفي فلا يمكنك أن تعاين شيئًا، وأنت وحظك قد تحملك ظروفك أن ترى النور وقد لا تراه أبدًا.

انظر إلى "عم سعودي" هناك، يحمل الصينية ويتوجه إلى الورشة المقابلة. أراقبه كل يوم، رسمته عشرات المرات. لم أتمكن من صوغ أغنيته وخلق مناخه. سوف أصوغها ذات يوم، سوف أرسمه هناك بالصينية على كفه، طويلاً جدًا، يصل الأرض بالسماء، وحوله البيوت صغيرة وسأرسمه باللون الأبيض والبيوت والحواري بالألوان الداكنة كأنها في فترة الليل، وهو هناك رغم امتدادة من الأرض إلى السماء سوف يظهر بأنه هو نفسه "عم سعودي"، وخلفه صوت أم كلثوم تغني: "عودت عيني على رؤياك".

***

يقول يوسف تادرس:

عدت من الجنون، لكن الجنون ظل كامنًا، منتظرًا أن يتحول إلى صور. لن أخفيك أن هذه التجربة بداية الخلاص، بداية الوصول إلى الشاطئ. التعب صحيح موجود، لكن بهجة الوصول أيضًا تخفف المتاعب. كنت مثل تائه في البحر بدأ يلمح طيور الشط، ويشم رائحة المدن. فهمت وتعلمت، وتقبلت. التقبل أساسي هنا؛ إنه فهم وتبصر بمكانك وقدرك، وما تحمل من معنى. أهم ما في الموضوع أن الخطوة قد قطعت. هذه هي الحياة، وعليّ أن أتحمل نصيبي من متاعبها، من تعليم الأولاد في الكنيسة، ومساعدة "جانيت" في رعاية البيت. لا بد من تحمل هذا النصيب وإلا سيصبح الأمر ناقصًا. لم يكن قد اتضح حتى ذلك الوقت ما إن كنت سأرسم صورًا أم لا، لكن المهم أنني عدت إلى الرسم، عدت إلى النشاط الوحيد الذي أصلح له. استعدته مرة أخرى، كنافذة أطل منها على الجانب الذي أحبه. هذه بداية الطريق. هل نقول نهاية الطريق؟ لا تأخذ في بالك، البداية والنهاية كلمات من أجل أن نحيط بما لا يمكننا فهمه.

ذات يوم سمعت طرقًا عنيفًا على الباب، فتحت، وجدت "رضا بولس". مرة أخرى، كنت قد انقطعت عنه فترة طويلة، وبدل أن يتصل

جاء بنفسه. دخل غرفة الجلوس غاضبًا، لإنني لا أسأل عنه، وقال وهو يجلس على المقعد المواجه للشرفة: "أنت هوبلس كيس".

بعض الصور كانت لا تزال وراء الكراسي، وعدد منها مكوم في الركن. لمحها رضا، فقطع حديثه، وفردها حوله على كراسي الصالون، وصمت تمامًا. رأى ما تبقى من رسم الوجوه. صورة من كل مرحلة، من بداية صورة البطاقة الشخصية حتى صور أمي وجدودي، لكن الصورة النهائية كنت قد رفعتها فوق الدولاب في غرفة الأولاد. نادي على "جانيت" وطلب كوبًا كبيراً من الشاي، وظل فترة طويلة يتفحص الصور، يبدل أماكنها، ويعيد ترتيب بعضها. تركته يفعل مابدا له دون أن أتدخل، قال وهو ينظر إلى:

"يخرب عقلك كل دي صور، تقدر تخرجها من شكل واحد؟".

صمت وأعاد الترتيب مرة أخرى، وأكمل:

"قلت لك من زمان، وأنت لا تصدقني".

بدت لي الوجوه المتنوعة على الكراسي شخصيات قديمة عرفتها ذات يوم، أصدقاء قدامى، أو أقارب، عائلة تسكنني، جاءت الآن لتجتمع في حضور "رضا بولس". كنت فرحًا لأن الصور أعجبته، وشعرت ببعضها على درجة من الجودة. قلت له:

"الأمر ليس كما تظن، كانت تصفية حسابات تقريبًا".

قال بحماسة رجال الأعمال :

" وماله، أكمل " .

ثم قال وهو يسند ظهره على المقعد :

" صعبة هذة الصور " .

قلت :

" كدت أجن " .

" والآن "

" ماشي الحال " .

أدرك "رضا" ما في التجربة من تعقيد، أدرك الحالة التي رسمت بها الصور. هذه نعمة لن أكف عن شكر الرب عليها. وهبني صديقًا قادرًا على فهمي كما أنا، قادرًا على فهم ما عجز كل من حولي عن فهمه. تحدثنا طويلاً عن التجربة وما حدث لي في الأشهر الماضية، وعن جماعة عنخ ولقاء "بلال الشيخ"، لكنني لم أرغب في الحديث عن فكرة الألوهية حتى لا أجرح حساسيته الدينية. أخيرًا نظر في ساعته وقال: "الوقت سرقني". ثم راح يرتب بعض اللوحات، وطلب من "جانيت" جرنال قديم، لف فيه اللوحات وقال بحسم: "ستأخذ الثمن الذي أحدده". كان يتكلم بجدية وأراد أن يجنبني الإحراج، وأكمل حديثه: "هذه أعمال فنية وأنا اشتريتها. توقف عن نزعة الترفع الخائبة". ثم أخرج من جيبه مبلغًا من المال ووضعه على المنضدة الصغيرة، وقال مرة أخرى: "إن رفضته سوف أرسله لك في حوالة بريدية، هذا جزء بسيط من حقك وأنا هاوي فن، ولي حق في أعمال صديقي".

حتى تلك اللحظة لم يكن قد رأى صورة الوجه الخالي من الملامح، قلت له: "انتظر لحظة واحدة"، ثم دخلت غرفة الأولاد وعدت بها، نظر إليها وقال من فوره: "هذه لي" قلت مازحًا: "إلا هذه، اتركها فترة، إنها تشغلني وفي يوم ستجدني أطرق بابك واتركها لك".

قال بجدية: "وعد؟".

قلت: "وعد".

كان فرحًا باللوحات. قال وهو يتوجه إلى باب الشقة: "قلت لك دائمًا ليس لك غير الرسم، فات وقت طويل، لكن لا يهم، بدأت أول خطوة". قلت ضاحكًا: "يا رضا أنا هاو. قد تكون آخر خطوة، وهذه الصورة تكفيني". وقف في قلب الصالة وقال. "أمرك عجيب يا أخي، يا عم ارسم واشتغل. أنت لا تنفع في شيء غير الرسم، حتى لو رسمت صور باهتة وليس لها معنى، ستقضي وقتًا طيبًا". كان مؤمنًا بي أكثر من إيماني بنفسي. عند باب الشقة توقف مرة أخرى وقال: "اسمع، إن رسمت، يجب أن أرى الرسوم، وسوف أعمل لك أول معرض على حسابي"، ثم قال وهو ينزل:

"من يعرف، ربما تصبح هذه الصور بمبالغ كبيرة في يوم من الأيام".

قلت ساخرًا:

"ستأخذ مقلبًا. هذه بلاد لا تروج فيها هذه السلع".

عدت إلى غرفة الجلوس. رأيت النقود على المنضدة الصغيرة. كان من الصعب رفضها، سواء من ناحية حاجتي إليها ومن ناحية جدية "رضا" وإصراره. نظرت إليها بتعجب. لم أجد في قلبي أي فرح بها. كم يكون هذا المبلغ؟ ألفًا، ألفين؟ لا أعرف، ربما لم أخلق من النوع المحب للنقود. إنني أفرح بها فقط عندما أشتري أدوات الرسم، لا أدخن ورغباتي في الطعام والملبس محدودة، فلا أفكر في النقود إلا على أنها مرادف لجانيت، ولمصاريف البيت، وهذا جانب غريب من طبيعتي، لم أتعرض له، تركته كما هو. رغم الفقر، لم أكن محتاجًا إلى شيء. يمكنني أن أعيش بأي مبلغ، وبأي طعام وبأي ملبس، أخذت النقود أهمية في نظري عندما كنت أفكر في السفر، عندها فكرت أن أقتطع مبلغًا حتى أمتع نفسي بالسفر إلى البحر الأحمر أو أقضي وقتًا بعيدًا في مطروح، لكن بعد عيشي في الطور لم أعد راغبًا حتى في ذلك، وتوقف الأمر عند أن النقود هي وقود لحياة البيت، ورضا "جانيت"، وفرح الأولاد.

دخلت غرفة النوم، كانت "جانيت" ممدة على السرير تشاهد المسلسل. تركت لها النقود على المخدة. نظرت إلى، ولمحت لمعان الدموع في عينيها. فضلت أن أخرج بسرعة قبل أن ينفجر الوضع، وجلست في غرفتي أتابع العمل على لوحات مكتبة فنون.

***

يقول يوسف تادرس:

"ناجي فهيم" صاحب مكتبة فنون، متعهد مشاريع كليات التربية النوعية والفنون التطبيقية، يبيعها للطلبة، عرض عليّ مجموعة كبيرة من المشاريع من بينها اخترت مشاريع الزخرفة. هذه أول مرة أجرب العمل بألوان الجواش. وجدت راحتي فيها، بصراحة هذه الخامة تناسب فنانًا فقيرًا، يعمل موظفًا، ولا يملك النقود الكافية لشراء الخامات الأخرى. الخامة هي التي اختارتني، والسكينة التي تسربت إلى الروح، بعد أن هدأت عاصفة رسم صورتي، ساعدتني على العمل لفترات طويلة في هذه الرسوم المملة.

الأمور ليست سيئة إلى النهاية، بعض الزخارف الفرعونية أثارت حسًا جديدًا بالرسم وتوترًا باطنيًا. أن تجلس لرسم إطارات لا تنتهي من النقوش النباتية، وتعيد رسم زهرة اللوتس بكل تنويعاتها عشرات المرات، يطلعك هذا على الجوانب التي لا تحد من عنصر واحد من عناصر الطبيعة. تجربة تمنحك حسًا بالتأمل مثل النُساخ القدامى في الأديرة. كنت أعيش هذه الصور، بصبر وبحس أنني قد أُنقذت من الذهاب إلى الدير وأراقب الوجوه التي لا تنتهي للعناصر.

العناصر الزخرفية ومشروعات التخرج منحتني أيضًا فرصة لرسم كائنات لم أكن أظن أنني سأرسمها؛ الغزلان والطيور والثيران المجنحة. الغزال خطوطه بسيطة، لكن رسمه عشرات المرات، بأحجام صغيرة، له مذاق آخر، يُحضر معه مناخه وعالمه، وديان الصحراء والتلال في الفجر، يحضر طبيعته الرشيقة المتفردة، يعطيك حسًا بأنك هناك تقف على تبة في الصحراء. الثيران المجنحة في الرسوم الآشورية والأسود ذات الوجوه البشرية، والصقور والأفاعي، كل تلك المخلوقات واصلت رسمها ساعات طويلة، فراحت تخصب صوري القديمة، وتجلي حسي بالكائنات التي صاحبتها فترة من حياتي. أيقظت حسًا عميقًا بالصور التي تشكلت بعيدًا دون معرفتي. في صمت العمل الطويل المرهق، كانت "جانيت" تتحرك كأنها قد حصلت على ما تريد وأدخلتني القفص، مادمت أعمل شيئًا "مفيدًا" للبيت، ما دمت أحصل من هذا العمل على نقود، تساعد في مصاريف الدروس الخصوصية، وأعطاها هذا حسًا بأنني قد أصبحت جزءًا من نسيج البيت ولم أعد ذلك الشخص الغريب الذي يقف على الحافة. أظن أن هذا كان أعظم نصر لها.

حصل "ميشيل" على مجموع صغير في الثانوية، لكنه يكفي لدخول كلية السياحة والفنادق كما خطط. كان هدفه واضحًا، سينهي بسرعة السنوات الأربع ويسافر. لا يعرف إلى أين، لكنه كلما كبر، كبرت الفكرة معه. لن يتمكن من العيش هنا. هذه بلاد فيها أبخرة عفنه وهو يريد أن يعيش في جو نظيف. طبيعته الصامتة وذكاؤه العملي لم يتركاه فريسة للأوهام مثلي، كان يرى جيدًا ما يريد.

جاء الخريف وسافر إلى الفيوم ليسكن هناك بجانب الكلية وبدأ مذاق الحياة يتغير؛ إيقاعها وطقوسها. أن يغيب واحد عن البيت يترك الباقين في حالة من الحيرة من أن الحياة تسير، وليست ثابتة كما ظنوا. كان "فادي" في الصف الأول الثانوي وقد بدأت متاعبه. ينظر بحيوية حيوان صغير إلى البنات، ومن أول البلوغ، أصبح سعيداً بجسده، وراح يعمل في الصاغة مع خاله ويعاكس البنات. أدركت أن طريقه معروف، إن لم يقتل في خناقة من أجل فتاة كما يحدث كثيراً هذه الأيام، فسوف يكون تاجراً في الصاغة يدير محل الذهب. كنت في منتصف الأربعينيات، وبدأت ألمح بوادر استقرار في حياتي ومشاعري.

كان عليّ أن أجتهد في الدروس الخصوصية في الكنيسة وفي الرسم من أجل مصاريف كلية "ميشيل" وسكنه في الفيوم. في بداية العام الدراسي لم يكن هناك مشاريع تخرج، فكان "ناجي فهيم" يستغل حاجتي للنقود ويعطيني رسومًا فرعونية على ورق بردي لكي أنسخها، وصوراً لفلاحات بملابسهن التقليدية، تقفن بطريقة مثيرة، على رؤوسهن الجرار. كان يطبع هذه الصور بوسترات ويبيعها. بدأ الأمر يعكر مزاجي، وبدأت أشعر بالوطأة، عندما استنفدت تلك التجارب غايتها.

أصبح النسخ شديد الملل. ساعات طويلة أقضيها في ملء فراغات النقوش الفرعونية بالألوان. أتخيل الفنان القديم، لا بد أنه كان يترك تلك الأعمال التكميلية لمساعديه، حاولت قدر ما أستطيع تحمل العبء من أجل

النقود التي يحتاجها تعليم "ميشيل". لا يمكنك، حقيقة، فصل الجوانب الطيبة عن الجوانب السيئة في نفس العمل، إنه كتلة واحدة مثل الحياة. تحملت النسخ بصعوبة، لكنه ساعدني على التعرف على مزاجي وغايتي، أثناء نسخ الصور، كنت أكتشف أنني لم أخلق لغير الرسم، ما كان يجب ترك كلية الفنون بأي شكل. اكتشفت خطئي، لكن الحياة لا ترجع إلى الوراء، إنها فرصة واحدة إما أن تأخذها أو تتركها، وأنت وتوفيقك.

ليالي طويلة أجلس في غرفة الصالون أمامي الترابيزة الصغيرة، أرسم نفس الكائنات، نفس الطيور، نفس الريش، وزهور اللوتس اللانهائية، حتى أشعر بأن بصري قد راغ، وأن الأشكال دخلت في بعضها. تحت هذا التكرار الذي لا ينتهي، كان الرسام الذي طمرته ظروف الحياة يُبعث، دون وعي مني. أتمدد على سجادة غرفة الجلوس، التي تشبعت برائحة الرطوبة والجدران وأشعر بأنني أقرب ما يكون إلى نفسي. أتعب وأقوم للنوم. ما إن أغمض عيني حتى تنبعث الصور في الخيال، وتقوم الكائنات من رقدتها بأحجام مهولة معجونة في بعضها. لم أكن أعبأ بها. أتركها تلعب كما تريد، لكنها تستدير وتملأ أحلامي. أقوم من النوم شاعراً بأنني قد عشت في مكان آخر، كأن لي روحًا أخرى تزور أماكن لا أعرفها، بعد ذلك عرفت أن تلك الصور كانت تبحث عن منفذ للوجود، حتى جاء اليوم الذي رسمت فيه أول صوري

***

يقول يوسف تادرس:

كان يومًا شتويًا قضيته في البيت، في الصباح نزلت "جانيت" إلى العمل، وفادي إلى المدرسة وأصبحت وحدي. الشمس غائمة وهناك في البلكونة المقابلة شال منشور على حبل غسيل، تحركه الريح، تشكل به أشكالاً متموجة، عابرة. في كل لحظة يأخذ شكلاً جديداً. فكرت في حيوية إنتاج الأشكال الجديدة الكامنة في كل شيء حولي، حتى الملامح الثابتة للوجه البشري لا يمكن الإحاطة بتحولاتها. شعرت بالشال حيًا كأنه يخاطبي، ورحت أسأل، ما الذي يجعل هذا الشال كائنًا جامدًا والإنسان كائنًا حيًا؟ فكرة عابرة، لكنها استبدت بي، ورحت أفكر فيها بعمق، والشال يلوح من خلف أفكاري كأنه يشير لي أن أستمر، هذا جنوني الذي استسلم له أحيانًا، في لحظات الصمت، مثل طفل يلهو.

سأحكي لك الأمر بالتفصيل لأنني أظن أن كل تفصيلة في هذا اليوم مهمة أعرف أنها أوهامي. اتركني قليلاً أكمل حكايتي. فكرت أن ما يصنع الفارق هو الظن بأن الإنسان له روح، والشال لا روح له. مانطلق عليه الروح هو الشعور والوعي، تلك القوى التي أوهمت الإنسان بكونه متعاليًا على الطبيعة. جرد الروح عن الأشياء وأضافها إلى نفسه، الوعي

والشعور سمات خاصة بالإنسان ككائن ولا تجعله أعلى من أحد، مثل خشونة النسيج ونعومته في الشال، قابليته للغزل أو الاحتراق، أو غيرها من السمات، التي تجعله متميزاً عن غيره من الموجودات. الشعور والوعي مجرد سمات طبيعية لأحد الموجودات، مثلها مثل سمات الصخور والنباتات والكائنات البحرية، ما الذي يجعلني أسمي هذه روحًا، وأرفع من شأن الإنسان، وأنظر إلى الشال في الشرفة المقابلة على أنه يفتقد الروح.

كنت مغموراً في حالة من السكينة ومستغرقًا في أفكاري، أقول لنفسي بحسم إن شالاً تحركه الريح في يوم شتوي بنسيجه وزخارفه وحركته المتبدلة، له روح مثل الإنسان، فهو مثله تتحكم فيه الطبيعية بغض النظر، عن تميز سمات الإنسان بالفاعلية وسمات الشال بالسلبية. الفاعلية والسلبية مثل الجمود والحركة ألفاظ تم حشوها بمدلول متحيز، مبني على تفضيلات تخص الناس، وربما يرجع الأمر إلى نوع من النظر إلى الوجود؛ فحضارات تتسم بالرغبة في السيطرة على الطبيعة أو إعادة تصنيع الطبيعة، لا بد أن تنحاز إلى ألفاظ الفاعلية والحركة والحيوية، أما حضارة تأملية يرى الإنسان فيها أنه جزء من الطبيعة ويبحث عن العيش في انسجام مع الكون، سوف تنحاز إلى ألفاظ السكون والتأمل واللافعل، هذه الألفاظ خاصة بنا ولا تخص موجودات الطبعية، تعكس حقيقتنا نحن لا حقيقة الموجودات. الروح عمومًا هي شكل للحركة، شكل للوجود الذي يكون عليه الإنسان، وكذلك الشال. كل كائن له شكل وجود، له روح؛ إذا عرفنا الروح على أنها شكل الوجود.

أرجوك لا تسخر مني، هذه الأفكار كانت ممتعة جداً، كأنني أول مرة أجرب التفكير، شربت كوبين من الشاي أثناء تأمل حركة الشال ومحاولة تخمين كيف سيكون شكله في المرة القادمة. لم تصدق توقعاتي، دائماً يتموج بطريقة مختلفة، ويرسم شكلاً آخر، كأنه ينبهني إلى الطاقة المبدعة في كل شيء، حتى في تلك الحارة الصغيرة. نظرت من الشرفة. عم فرج النجار لم يفتح ورشته اليوم، ومحل الكوافير على الناصية مغلق، الهواء له صوت مسموع وهو يحف بالجدارن، والسماء قريبة ومعتمة، تخيل رأيت كل شيء مفتوحاً على إمكانية جديدة دائماً، على شكل لم يوجد من قبل، كل شكل يتوارى يخلف شكلاً غيره، هذه الحركة من المتابعة والتفكير تركتني متعجباً من حيوية الحياة وقدرتها على الخلق.

في الظهيرة جاءت "جانيت" و"فادي"، تغدينا ونمت قليلاً، تم صحوت، لم يكن لي أي رغبة في العمل على رسومات "ناجي فهيم"، قضيت الوقت صامتاً قرأت شيئاً في مجلة قديمة، تابعت إعلانات التليفزيون، وفيلماً أجنبياً عن ترحيل الأفارقة إلى أمريكا في القرن السادس عشر. الترحيل أمر مرعب، نزع الرجل من بلده يشبه خلع شجرة من جذرها، صعب جداً. كان الأفارقة تائهين على السفينة كأنهم في العالم الآخر، لوعة في العيون والرعب لا يحتمل. غمرتني هذه المشاعر بالحزن وبدا لي أنها بددت تأملات الصباح.

بعد نوم جانيت وفادي بقيت جالسًا في غرفة الجلوس، أخربش على الورق بأقلام الفحم. سمعت الصوت خافتًا، قطرات المطر لها إيقاع كأنها خرز ينزل فوق المشمع الذي تركته "جانيت" على الغسيل في البلكونة، تابعت الإيقاع وحاولت الإمساك بنغمته، جملة موسيقية خافتة تتبدد، ثم تعيد خلق نفسها بطريقة أخرى، زاد المطر، وتبدلت النغمة، خف المطر وعادت النغمة الأولى، مثيرة وجذابة، جعتلني أشعر بأن هذا لا بد أن يكون عزفًا. في تلك اللحظة جاءت رغبة حسية في الرسم، رغبة مثل النداء الجسدي، إشراق بحد، معنى الحياة يحل في تلك اللحظة.

لن أناقشك في الأمر، اتركني فقط أحكي لك ما حدث ثم نتحدث بعد ذلك. كان عندي عدة ورقات سوداء لم تستعمل في مشاريع الطلبة، وعلب الألوان على منضدة صغيرة في الركن، أمسكت الفرشاة وبدأت العمل دون معرفة ما أريد أن أرسمه. ملمس الفرشاة على سطح الورقة هو الذي أحضر الصورة، ربما كنت أفكر في رسم سفينة الأفارقة المتجهة إلى أمريكا، واستدعى الأمر المراكب التي تعبر النيل في المكان الذي غرق فيه أخي ميشيل، كل شيء مترابط بقانونه الخاص. تمايلت الخطوط، وشكلت النهر، تعوم فيه الأسماك واضحة مثل رسوم الفنانين القدماء. ثم رسمت حفلاً، عيد تتويج لا أعرف بالضبط، كأنه مولد السيدة العذراء، لكن السيدة نفسها كانت ملكة تجلس على مقعد بعيد هناك في أعلى اللوحة. تم خلق المنظور بطريقة مغايرة لما ترسم به اللوحات الغربية، خُلق من القرب

والبعد والخفة والثقل، والبارد والساخن، خلق بطريقة لم أدرسها، كأنها استبطان داخلي. رسمت صخبًا يشبه صخب الأعياد، رسمت مشاعل وشموع وضجيج. كنت أبعث عالمًا أول مرة أراه. يدي تعمل وحدها، حس خالص بالرحيل، كأنني أبعث العوالم التي سعيت إليها، لكنها لم تكن جاهزة، تلك العوالم التي تعوم في ذهني دون أن ألمحها.

ذات مرة سخرت من "رضا بولس" عندما قال: "ارسم أحلامك يا يوسف"، اعتبرته يمزح، لكنه كان بصيراً. في تلك اللحظة كنت أستمد الصور من الخزان الذي تأتي منه الأحلام. تخيل؟ في ليلة واحدة، رسمت سبع لوحات، شديدة التشابه وشديدة الاختلاف في نفس الوقت. رسمت وجه الغول؛ عربية النقل التي دهستني بطريقة ساخرة كأنها تحوي في بطنها ورشة النسيج، تطير فيها العصافير، وشارع غياث في صباح الجمعة عندما تميل فروع شجرة النبق على سياج بيت الدكتور طه الألفي. وجدت يدي تنسج الطيور التي رسمتها في مشاريع الطلبة، تعيد خلق الصور بشكل مازح له سمة الأحلام. السر الذي لم أتمكن منه في شبابي غداً الآن يسيل تحت ضربات الفرشاة. لقد بدا لي العالم قريبًا جداً، يمكن رسم كل شيء، عليّ فقط أن أثبت الصورة في ذهني وأدعها تنتج نفسها كما تشاء. في تلك الليلة ظللت جالساً حتى الصباح، والصور السبع مرصوصة أمامي على كراسي الصالون. عندما قام "فادي" وقامت أمه لم أتحرك من مكاني، كانوا ينظرون بتعجب لهذا المخلوق والصور التي تحيطه مفرودة على كراسي الصالون.

في تلك اللحظة لا أصلح أن أعود أبًا أو زوجًا أو موظفًا، كنت كائنًا آخر، لفترة قصيرة سامحت نفسي وسامحتني "جانيت"، وتركتني. جهزت لي فطوري ونزلت إلى عملها. شعرت بكثافة العزلة التي تحيطني. لحظة تجلي لا تتكرر كثيراً. كلما نظرت إلى اللوحات ازدادت دهشتي. من رسم تلك اللوحات؟ من أين جاءت؟

لا يمكن أن أذهب في هذا اليوم إلى المدرسة، ولا يمكن أن أمسك الطباشير وأشرح للأولاد. لا يمكن. ارتديت ملابسي وغادرت البيت. ضوء الشمس فيه نقاء وسطوع نادر. السوق غارق في الوحل، والفلاحات تجلسن على أطراف الطريق بعد أن فرشن القش فوق الوحل، ومشنات الخضار مفتوحة ولونها مغسول. الناس تعبر في طوابير فوق مدق صغير باتجاه نفق المحطة.

تجولت دون هدف تقريبًا. لا شيء يعوقني. حرية مطلقة في أن يختار مزاجي الأماكن التي يحبها. جلست على رصيف المحطة، أتابع الناس تنزل وتصعد من قطارات الأقاليم، ثم نزلت أكلت فول وطعمية في شارع القنطرة، وجلست أشرب الشاي في مقهى في زقاق، ثم تجولت في المنطقة التي أحبها؛ منطقة طفولتي شارع عزيز فهمي وشارع غياث. دخلت الحارات الصغيرة المتعامدة وتطلعت بشغف إلى الأبواب والنوافذ، زينات رمضان ورق يتحرك مع الهواء في الشوارع، المطر يجعل الحارات غريبة وبها حس كأنها منقوعة في الماء، نوافذ تفتح، باب خشبي باهت اللون، تقشر

طلاؤه، قديم، عليه مطرقة من الحديد على شكل كف مضموم، حتى وصلت إلى الزقاق.

قادتني قدماي إلى المنبع. كان الزقاق قد تحول إلى مخازن كما بدأ. وقفت أمام المدخل، أرى أقفالاً صدئة تلمع على الأبواب، بعض النوافذ لم تكن مغلقة تمامًا، رأيت النافذة ذات الأعمدة الحديدية التي كنت أتأرجح فيها في طفولتي. ترك المطر بركة كبيرة وسط الزقاق. في أصباح كهذه، كنت أصحب أمي إلى منشرة الخشب نأتي بنشارة الخشب وننثرها بجانب الجدار، أحببت رائحة نشارة الخشب، وتمنيت أن أسمع صوت الراديو خافتًا في الصالة. الشمس تطول طرف نافذة على اليسار مفتوحة قليلاً، رأيت قطة لونها رمادي تقفز إلى سياج النافذة ثم تجلس هناك تتأمل المكان الخالي ثم تعبر فرجة الشباك إلى الداخل، مرق فأر بجانب الحائط، تابعته حتى عبر الباب مستعيداً خوف الخواجة تادرس. سمعت صوت عصفور يطل على المشهد من أعلى يقف على قطعة خشب تبرز من السقف.

تذكرت أثناء مروري في الشوارع أن الغرفة التي دخلتها القطة، غرفة "أم بيسة". كانت مدهونة بالكامل باللون الأحمر. كانوا يقولون إنها تخاوي الجان. جاءت هي وزوجها سائق العربية النقل من منطقة الخلفاوي في القاهرة. عاشت بيننا كأنها واحدة من الزقاق. أحيانًا كنت أسمعهم يقولون إنها تطرد زوجها لينام في كبينة العربية لأن رجل الجان يزورها في الليل. كانت غريبة يأتي إليها ناس من أرجاء المدينة لتقرأ لهم الكف والفنجان. رأتها أمي

تدفن تحت الشباك لفة صغيرة من القماش، قالوا إنه ابنها من رجل الجان، هناك تحت الأرض سوف يتربى حتى يكبر. ابتسمت عندما تذكرت غضبها، لا أحد يتحمل غضبها، البشاعة بعينها، وجه مشوه تمامًا.

في هذا الصباح أصبحت كل تفصيلة مهمة، كل ذكرى طائرة تحيي انطباعًا، كنت أتصل بنفسي الغائبة التي رحلت بعيدًا، ومنظر القطة وهي تعبر إلى الداخل لم يفارقني. تجولت في المنطقة المحيطة بالجامع الأحمدي، الشوارع موحلة لكن ضوء الشمس ذهبي خالص، هناك شيء رائع في هذا اليوم، الفن يمنحك هذه الوحدة بين العضوي والروحي والماضي والحاضر، إنه اللحظة التي يتجمع فيها الزمن ويطل عليك خاليًا من تفتته داخل حياتنا اليومية. كنت هادئًا كأنني وجدت نفسي، وحصلت على ما أبغي، ساعدتني كل لمحة من طفولتي ومنحتني النور.

ألم تجرب لحظة كثيفة على هذا النحو، لحظة ثقيلة كأنك كنت طينًا وتحولت إلى كائن له روح، كنت جذعًا ناشفًا ودبت فيك الحياة فبدأت تشعر بالبراعم تجهز نفسها للطلوع؟ سامحني على هذه النبرة العاطفية، لكنها الحقيقة، لقد تعبت في حياتي، وكانت مكافأتي قد جهزت لي في هذا الصباح، كثيفة وحية كأنها وجه الرب.

يومها فهمت أن العمل الفني لا يأتي من محاكاة شكل الكائنات، مثلما علمونا، بل من محاكاة عمليات الخلق في الطبيعة. تريد أن تعرف الأمر؟ شاهد تمثالاً رديئًا من تماثيل الميادين، ثم تأمل تماثيل رودان أو محمود مختار أو

هنري مور، سوف تعرف الفارق، هذه أعمال لم تخلقها مهارة الفنان وحدها، بل إدراكه العميق بكيفة الخلق. تأمل تماثيل مور، هي مخلوقات أخذت مسار الخلق في الطبيعة من تشكل وكمون ومحاولات فاشلة في الخلق حتى تجيء لحظة تلتقط الحيوية الخالقة، الشرارة وتعمل، وفي الأدب ألم تحدثني كثيراً عن الجهود التي كان يقوم بها دستوفسكي في تحضير مسوداته، ومتابعتة للأحداث الجارية، وحضور تنفيذ حكم الإعدام وغيره من التجهيزات التي لا يعرف متى وكيف يمكن استخدامها. لقد فهمت الأمر، كان عليّ أن أتابع الصور، لا أحاكي شكل الطبيعة، بل أترك الطبيعة تعمل.

***

يقول يوسف تادرس:

لا تظن أن تلك اللحظات تدوم. لا يمكن. يحترق المرء لو ظل في حالة انفعال بهذا الشكل. الطبيعة رحيمة بنا، ومن جهة أخرى خبيثة، فانسحاب هذه اللحظة فرصة للاختبار؛ كيف ستصنع طريقك؟ ماذا ستفعل بعد أن يكف النبع عن الفيض؟ الاختيار متروك لك. أول مرة تكون منحة. بعد ذلك تأتي المعاناة، محاولة تكرار التجربة عبثي، فأنت تحاول أن تكرر ما لا يتكرر. لقد وُهبت لك مرة لكي تشير إلى الطريق، أما الباقي فأنت وجهدك، هل ستتمكن من خلقها مرة أخرى بالصبر والجهد، أم سوف تزيف على نفسك حياتك، وتعيش حالة هشة من حياة فارغة، الأمر يعود إليك.

عرفت هذا خلال عام كامل، من العمل، مطارداً تلك اللحظة المشرقة. في بعض الأحيان أمسك لمحات منها، عندما أنغمر في الرسم، لكنها تتلاشى بسرعة. لحظات صغيرة لم تزد على كونها لمحة. أفرح بها وأعدها ونسًا في الطريق. علمتني التجربة ألا أتوقف وأعيش. لا يجب التخلي عن الرسم مهما حدث. لقد عرفت طريقي.

رحت أرسم بلا توقف، حتى في الأيام الصعبة التي يعاندني فيها، أرسم اسكتشات. أستعيد حس الوناسة ورسم الأشياء أقرب الأشياء مني وأقترب منها. في تلك الفترة عرفت أن تعليمي ناقص، ورحت أدرس أساليب الأساتذة. نسخت صوراً كثيرة، من كل الاتجاهات، من رسوم الحضارات القديمة ومن الفنون الأوروبية في مختلف العصور، وتوقفت طويلاً عند براعة الأساتذة. أريد أن أقول لك أمراً. الأساتذة أساتذة في كل العصور، وبالأخص مع الحداثة الأوربية. ظهرت براعتهم وحسهم الإنساني الرفيع. الحداثة هي جهد أساتذة كبار، ولم تكن، كما هي عندنا، هروبًا من أحكام الفن، ستاراً يخفي به الرسام ضعف مهاراته. كان لا بد أن أنسخ تلك الصور، لكي أتعرف على البناء الداخلي، وحركة الفكر وهو يشكل الصورة. لا يمكنك فهم صورة بالكامل إلا عندما تنسخها، أو تتأملها لفترات طويلة. كثير من التقاليد العبيطة ترى أن النسخ قد يضيع شخصيتك. لا، إنه يصقل شخصيتك. الشخصية بصمة لا تُكتسب ولا تضيع.

في قلب كل ذلك، كان لا بد أن أواصل رعايتي للبيت. تخيل؟ عندما عرفت الطريق لم تعد شئون الحياة عبئًا. أصبحت لحظة إفاقة، حداً بيني وبين التلاشي في خيالاتي. هذه الحدود مهمة، إنها تحافظ عليك في قلب الحياة دون الإيغال في الوهم. وقبل كل ذلك، أصبح لكل فعل مذاق، حتى رفض "فادي" أن ينزل الصبح ليأتي بالفول، وقراري أن أنزل كل يوم بالبيجامة لأشتريه بنفسي. عرفت عذوبة المشوار الصغير لشراء الفول في

الصباح وصاحبت عم علي وأصبحنا نتحدث كثيراً، وعرفت شيئًا عن المدمسة القديمة عند السيد البدوي. إن كنت في حالة انسجام مع الحوادث فسوف يكون لكل شيء مذاق. لو حرنت فسوف تنفرط الوحدة وتعود مرة أخرى إلى الفراغ.

توقفت عن رسم مشاريع الطلبة، لمكتبة "ناجي فهيم". كانت مرهقة وبلا عائد تقريبًا. عرض "رضا بولس" أن أعمل مع مكتب للترجمة. في تلك الفترة ترجمت مقالات عن كل شيء، ابتداء من أعشاش الطيور، وآليات التعليم النشط، والاقتصاد الخدمي، حتى معنى الجمال في الفن. فرحت بالموضوع، كنت أريد أن أستريح قليلاً من أصابعي التي لا تكف عن النبش. كنت أريد أن أشغل مخي. يزورني "رضا" أحيانًا، ويشاهد الرسوم، ويشجعني قائلا إنني أنجزت شيئًا جيداً، وإن التجربة خليط من الروح الشعبية وكائنات الأحلام، فيها مسحة من كراهية الفراغ في الفنون الإسلامية.

وقع في يدي كتاب عن وجوه الفيوم، فرحت به كأنني قد وجدت ضالتي. رحت أرسم الوجوه بلا توقف، نسختها بالكامل. غرقت فيها، وعشت أجواءها، كأنما مكتوب عليّ أن أعايش الوجوه، وأن أتعب معها، وأحبها. عندي صلة أصيلة بالوجه الإنساني. استغرقت في عالم وجوه الفيوم حتى وقعت في حب "إيريني"؛ شعرت بأنني رأيتها قبل ذلك، هناك صلة بيني وبينها. هل يمكنك أن تقع في غرام صورة إنسانة ميتة منذ ما يقرب

من ألفي عام. هذا حب خفيف طائر به لمسة من حزن أن الجمال يمكن أن يموت، كل شيء يمكن أن يبيد.

الفن مصدر الحزن ومصدر الفرح، يظل هناك كأنه مرفأ، أو أعتبره وهمًا لا بد منه لمواجهة الخوف من العدم الذي يطل من صورة إيريني بعيونها الواسعة السوداء، وتحديقها المستقر في شيء خارج الصورة. حالة رسم الوجوه دارمية بشكل لا يحتمل. ماذا حدث للوجوه التي رسمتها عندما كنت شابًا؟ ماذا حدث للناس؟ تمنيت أن أرى صوري المعلقة في غرف الصالون وأعرف ماذا حدث للأشخاص الذين رسمتهم.

شيء محزن وجذاب كان يطل من صورة إيريني. أقمت لها حياة خاصة. تخيلت بيتها ووالدها الموظف الكبير في الولاية، وتجهيزها للعرس. جسدها النقي بكل ما فيه من ملاسة ولدانة، وحبها السري لأحد القسس، واقتراب يوم زفافها لأحد الفرسان، وهي لا تحبه، وحزنها الذي راح ينحر جسدها ويجففها. قبل موتها جلست أمام الفنان ليرسمها. "إيريني" الحزن العميق والوحدة والحياة الصامتة. رسمتها عدة مرات، وفهمت العلاقة بين رسم الوجوه والأيقونات، كنت أعرفها كمعلومة، لكني فهمت السر. هذه الوجوه تطل علينا من خارج الزمن، من العدم الذي تشكلنا منه وسنرحل إليه. هذه الوجوه فيها حكمة تتسل إليك ببطء، والسكينة والحزن اللذان يطلان منها آسرًا، إنها تحمل المعادلة الصعبة، تحدق فينا، لكنها لم تعد

موجودة. الحياة والموت يتعايشان في نظرة العين، وفي الحزن من أنني غير موجود، ورغم ذلك أطل على الحياة وأعرف أنها أجمل من أي شيء.

لا تأخذ في بالك، لقد رسمت وتعلمت، ولم أعد أبحث عن لحظة الإشراق. تعرف؟ لو وقعت في أسر لحظة الإشراق، كان كل شيء قد تبدد، لكنه لُطف الرب، كان يمكن أن أقع في الأسر وأظن نفسي مُلهمًا، وأعيد خلق الأسطورة التي حطمتها. اليقظة التي اكتسبتها في تجربة رسم وجهي ساعدتني، وأنت تعرف، حياتي جافة، وإغواء الأساطير كبير.

واصلت الرسم مدركًا أن كل شيء يعتمد على الصبر والعمل، وعلى الإنصات إلى الداخل، هناك حيث تتشكل الصور. عليك الاقتراب منها بحذر؛ أن تصبر طويلاً حتى تتمكن من خلق انطباع. لم أكن أضيب كثيرًا، لكن في لحظات معينة تأتي صورة كأنها تجميع لكل الخيبات السابقة. تعلمت ألا أتضايق من الفشل مرات متوالية من الفشل، هي الطريقة الوحيدة لإنجاز صورة جيدة الصورة تشكل نفسها وتأخذ ثقلها بعدد مرات الفشل في رسمها.

انقضت الأيام على هذا النحو. كان "رضا بولس" يتابع التجربة. فرض عليّ أن ألقاه كل أسبوع، وإن تغيبت يمر عليّ بسرعة قبل أن يعود إلى الإسكندرية. كان يصمت كثيرًا أمام الصور، لأنه كما قال، أراد أن يرى كيف ستتطور الأمور. في الصيف، قال وهو يستعرض الأعمال كلها: "آن الأوان يا يوسف، لا بد أن نفكر في وسيلة نعرض بها هذه الصور. اتركني أدبر الأمر".

اتصل من الإسكندرية وقال إنه تحدث مع أحد زملائه القدامى في كلية الفنون، وأطلعه على البورتريهات، وأعجبته وقال إنها ستكون معرضًا هائلاً، وجه واحد مرسوم عشرات المرات، سيكون معرضًا كبيراً، لكني رفضت عرض الوجوه، لم تكن تجربة في الرسم كانت تجربة في الشفاء. اتفقنا أن نعرض الصور الجديدة في نوفمبر في أتيليه الإسكندرية، تكفل رضا بكل المصاريف: البراويز والزجاج وأرسل إحدى سيارات الشركة لتحمل الصور إلى الإسكندرية.

بهجة أول معرض لا يضاهيها شيء. أول مرة أرى "جانيت" فرحة، كأن حياتها أثمرت، وراحت تفكر في تقديم تحية خاصة لرواد المعرض. أخيراً وجدت الفكرة. اشترت حمصًا وحب العزيز من عند السيد البدوي لكي تقدمه إلى الرواد. كان يومًا رائعًا، لم يكن هناك غير أصدقائنا ورواد الأتيلية. قضينا الوقت في شقة "رضا" في سيدي بشر.

كان وقتًا طيبًا، بصراحة، كنت آمل أن أبيع بعض اللوحات. خذ بالك، هذه أول مرة أتعرف على ما يقولون عليه "الحركة الفنية"، لذلك لا تندهش من سذاجتي. المهم مرت الأيام ولا شيء يحدث. كلمات مشجعة في الكراسة التي وضعتها بجانب باب الدخول، و"رضا" حياني واشترى لوحتين وتوقف الأمر. بصراحة على نهاية المعرض، كنت قد أصبحت حزينًا وكدت أفقد ثقتي فيما حدث لي في الفترة الماضية، لكن الرب لا ينسى أخاك يوسف.

ذات يوم دخل المعرض شاب صيني وزوجته، كان يرتدي بدلة كاملة ويبدو كأنه موظف في إحدى الشركات أو السفارات، لا أعرف. تجول طويلاً في المعرض، وتوقف أمام اللوحات واحدة واحدة، وراح يعلق ويشرح شيئًا لزوجته، ثم في النهاية جاء وسألني عن صاحب تلك اللوحات. أشرت إلى نفسي. نظر إليّ كأني كائن من الفضاء، وقال بعربية مكسرة: "اللوحات جميلة"، وكرر الكلمة، وشحذ طاقته لكي يتحدث بعربيته الصعبة عن تكوين اللوحات المعقد، وعن الحس الأسطوري والحلمي، وعن غني اللون وطزاجته، وقال وهو ينظر إليّ بدهشة: "إنها لوحات أصيلة".

احتفظت تلك الكلمة برنينها في خيالي، "إنها لوحات أصيلة" هذا كاف، صدقني، هذا كاف، إنها لوحات أصيلة. اشترى ثلاث لوحات وأخذ تليفوني، وقال إنه يمكن أن يزورني. صارت صداقة حتى الآن، كلما جاء واحد من أصدقائه مهتم بالفن، يصحبه إلى بيتي في الشارع الضيق في طنطا.

لم أعد إلى طنطا بلوحة واحدة. أصرّ "رضا بولس" أن تبقى اللوحات عنده في الإسنكدرية، وكلما أراد شخص شراء لوحة يرسل إليّ لكي أسافر أقضي معه اليوم. كان "رضا" أسعد مني بما حدث، رغم متاعبه والأمراض التي بدأت تطارده. اقتنت سيدة من السويد خمس لوحات، وأخرى من روسيا تلاث لوحات، وشاب إيطالي أعجبته صورة، ورجل ياباني عجوز اشترى واحدة.

لم أعد في حاجة إلى عمل إضافي، هذا أهم شيء، وعدت مرة أخرى ألتقي "حازم الشربيني" في قصر الثقافة وبمجموعة من الفنانين الشباب. كان "حازم" يدرّس الرسم في كلية التربية النوعية. لم أرتح للجو الذي يحيط بالشباب، كانوا ينظرون إلى الموضة، وإلى مسابقات وزارة الثقافة. كل شيء مسابقات وجوائز. مرات قليلة قابلت فنانين من القاهرة جاءوا لزيارة "حازم"، ونافشني أحدهم ذات مرة في إغفالي للمشهد البصري، يعني أرسم المقاهي والشوراع ومحطات الميكروباص ورصيف السكة الحديد. هذا يمكن أن يقوم به هواة التأريخ والتوثيق، أو شخص يجد هوى في رسم الواقع، يرى معنى خلف تفاصيل المشهد البصري وعندها يمكن أن يخرج لنا صوراً تشبه المقهي الليلي لفان جوخ، أو صالة البلياردو التي ترقد فيها الطاولة كأنها تابوب. العباقرة من الفنانين الذين يكون موضوعهم المشهد البصري، يطبعون روحهم عليه ويعيدون خلقه، فأنت لا ترى حقولاً في رسوم فان جوخ، بل ترى اتساعًا ورغبة متوهجة، أنت لا ترى عائلة تأكل البطاطا حقيقة، بل ترى حلمًا بعائلة تأكل البطاطا، هذا نوع فريد من الفنانين، والفنان حقيقة لا يختار موضوعه، بل يختاره الموضوع.

كانت هذه هي الحماسة الأولى، وظننت أنني أصبحت فنانًا، وأنه يمكن أن أذهب بلوحاتي إلى معارض الدولة وأطلب أن تكون لي مقتنيات مثل الفنانين، وهنا واجهت الجانب الآخر من هذه "الحركة". لقد وقفوا لي في كل شيء، عرضوا لي في المعرض القومي لوحة واحدة، وبعد ذلك عاملوني

بإهمال. عرفت أن هذا المناخ لا يتوافق مع حياتي. لقد كبرت، ابني "ميشيل" تخرج في كلية السياحة وأعد نفسه للسفر إلى أمريكا، هناك سوف يعيش عدة سنوات ويعود بصحبة فتاة نحيلة طيبة، يتزوج بها هنا في كنيسة الملاك. كتر خيره كان يريد أن يفرح أمه الغالية، ولكنه أفرحني معها.

حياتي تغيرت، ومهما حدث، لن أدعَ أي شيء يعكر صفوها. حتى لو كانت رسومي عادية، سأواصل الرسم، مادام فيه شيء يربطني بأعماقي. كان هذا أهم قرار في تلك الفترة، لولاه لما استمرت الأمور: لن أتوقف عن الرسم. وعملت بجهد أكبر، وأخرجت لوحات أكثر، وأقمت ثلاثة معارض أخرى، ولم أعد أعبأ بشيء، وهكذا أصبح أخوك يوسف تاردس عجوزًا ولم يعد قادرًا على مزاحمة أحد، والدخول في صراعات على المعارض والمناصب والأمور التي يشغل بها الفنانون أنفسهم تعبت من هذا وكرهته. عليّ أن أعيش بعيدًا في هدوء، أرسم ما تبقى لي من صور.

***

يقول يوسف تادرس:

الآن أعرف أن المرأة الوحيدة التي كان يمكن أن تتحملني هي "جانيت" ، هي التي غامرت ودخلت الجحيم. تحملت وصنعت كل شيء، ورغم حياتنا العاصفة، فقد ظلت الرفيق والأم والحبيب والعدو، يعني الحياة. الآن هدأت غيرتها، هدأت مشاعرها تجاهي، وبدأت تشعر بالرفقة.

اكتشفت الحكمة في الزواج القبطي، وفهمته. طريقة زواجنا مناسبة لروح ديانة الصليب. حتى لو لم تحب زوجتك، حتى لو كانت الحياة تعيسة فلا بد أن تحمل صليبك، ففيه الخلاص. التحمل سوف يمنحك صفات تحبها. بمرور الوقت سوف تنجلي روح الوئام، سوف ينبت شيء طيب من العتمة والبؤس، وفي النهاية سوف تجد الراحة في الرفقة. ترى الكثير من العجائز في طريقهم إلى الكنيسة يستندون على بعضهم. لا تعرف كيف كانت بداية حياتهم، ربما بدأت بالحب ثم الحياة الماسخة ثم العنف، ثم الكراهية ثم السكون والتقبل والموافقة، وفي النهاية الراحة والسلام، إنها الرحلة نفسها لنمو الإنسان واكتشاف نفسه من خلال رحلة طويلة.

أعرف أنني أصحبت محافظًا، لأنني أرى أن الرجل لن ينضج إن غدا ينتقل من ثدي إلى ثدي، إلى ما لانهاية، سوف يزداد طفولة، ولهذا لم أعد

من أنصار الطلاق. أنت تذكر زمان عندما حكيت لك عن الكاتدرائية وعن البنات الحلوين والشباب الأصحاء والحياة المخربة وكيف كنت غاضبًا من أن التقاليد الدينية تحرم هؤلاء من الحياة بمنعهم من الطلاق. الآن أعتقد في عكس ذلك. سوف تقول إنني ضد الحريات وإن الكنيسة يجب أن تجد وسيلة لحل المشكلة. لا، لم أعد مقتنعًا بأن ذلك سيحل المشكلة. كل علاقة، في فترة من الفترات، تتحول إلى خيبة. إذا فتحنا المجال للانفصال، سوف تنتهي أغلب العلاقات بالانفصال، ولن يكون بمقدور أحد أن يفهم نفسه ويصل إلى النضج ويعرف ماذا يعني أن يعيش.

الآن أصبحت "جانيت" رفيقتي، عندما تراني هامدًا جالسًا أمام اللوحات، تقول لي: "مالك يا يوسف؟ ما لك يا خويا؟" نوع آخر من الأم، الأمر تم على هذا الشكل. لا تسخر مني. صدقني كل شيء تم من أجل أن أرسم تلك اللوحات وأخرج تلك القطط والأسماك والعائلات الفقيرة والاحتفالات التي لا تنتهي.

"ميشيل" يعيش في أمريكا منذ عامين. أنجب طفله الأول، اسمه "مينا"، أخوك يوسف تادرس أصبح عجوزًا وله أحفاد. تخيل؟ أصبحت جدًا. جاء ميشيل فى أعياد الميلاد، وترك زوجته الأمريكية هنا هي وابنها، ورجع لكي ينهي إجراءات الحصول على الجنسية. لم يعد لي عمل، أقضي الصباح بصحبة "مينا".

شيء رائع أن ترى أحفادك. فعلاً كما يقولون، حب الأحفاد أقوى من حب الأبناء. أرجوك لا تقل لي إنني لم أحب أحداً. الولد الصغير هو حياتي الآن، أناديه "ميمي" ونضحك أنا وأمه، ونتحدث عن الحياة، وتقلباتها. شعره أصفر ناعم ليس مثل شعري الأصفر الخشن. شعره ناعم يطير عن جبهته، ووجهه مستدير، وليس مثل الوجه البيضاوي الحاد الخطوط لأخيك يوسف، له فقط هذا الأنف المدبب، وهذا ما يخيفني عليه.

أقضي معه أعلب الوقت وأعلمه الأشياء: بلكونة، شباك، أم محمد، أم مريم، النجار، الحلاق، ونضحك. يبدو أن الرب قد رضي عني أخيراً، كان يخبئ لي البهجة في نهاية الحياة، لكن الخوف يظل في قلبي كما هو، ليل داكن. خوف أخاف منه ومن أزليته، ما زال يطاردني. هل تظن أنه سوف يتلاشى عندما أعبر المحيط، وأرقد هناك في الشمس على الشاطئ؟ لعل الأمر على هذا النحو، لعل المخاوف هي سمة من سمات هذا المكان، لعلها تتوقف هناك.

لا تندهش هكذا. سوف أسافر في يونيو المقبل. سوف أطير عابراً المحيط، إلى الجهة الأخرى، حيث تغرب الشمس. هناك سوف أعيش قليلاً، مرتاح البال بعيداً عنكم، بعيداً عن الظلام الذي عشت فيه طول الوقت، هناك يمكنني أن أنام قليلاً في الشمس، سأتركك وحدك هنا تمشي في تلك الشوارع الكالحة، وأتذكرك وأنت ترعى صورك وقصصك مثل راعٍ في الجبل ينتظر النعمة بلا جدوى.

اسمع؟ إن سمحت لي الظروف سوف أرسل لك دعوة لزيارتي، لكن يجب أن تكف عن الخيابة، وعن كلامك الساذج حول حياتك التي تخربت هنا، وستكون خرابًا أينما رحلت. صدقني هذا كلام ساذج، طول ما فيك نفس، هناك إمكانية للحركة، هناك مجال آخر يمكنك أن تندفع إليه. بالنسبة لي، ما زال أمامي وقت أسافر إلى هناك وألعب مع "مينا" على شاطيء المحيط، وأستريح قليلاً من الخوف، ومن هذا الظلام.

بربك، قل لي، متى سيطول النور هذه البلاد؟

الثلاثاء ١٠ ديسمبر ٢٠١٣

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ – دجلة – المعادى – القاهرة.

تليفون:٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد اليكتروني info@kotobkhan com

موقع اليكتروني www kotobkhan.com

«هناك حيث تتشكّل الصور، عليك الاقتراب منها بحذر، أن تصبر طويلاً حتى تتمكّن من خلق انطباع. لم أكن أصيب كثيراً، لكن في لحظات معينة تأتي صورة كأنها تجميع لكل الخيبات السابقة».

«تركت هذه القصة أرقاً غامضاً، حساً غير مريح بأن وجودي على الأرض كان حدثاً كبيراً. كأن تلك الأحداث والأقدار التي سبقت وجودي، أعدت بغرض ما، لكي تحدث هذه الولادة. في تلك القصة عبء لم يكن الطفل اللاهي براغب في تحمله، فيها شيء ثقيل على الروح، حاولت التملّص منه طول الوقت، لكنه ظل يطاردني. شبح سكن وجداني واستقر هناك. عقدت هذه القصة إحساسي بنفسي وتركت لي حساً باطنياً كأنني منذور لشيء على الوفاء به، كأنما علي التضحية بشكل ما، كأنما وجودي ليس من حقي. كانت حكاية أمي كئيبة لم أحبها، وكنت أتلهى بمراقبة الضوء والظلال، وغا حبي للضوء هرباً من القصة المرهقة لميلادي».

«لقد فهمت الأمر، كان عليّ أن أتابع الصور، لا أحاكي شكل الطبيعة، بل أترك الطبيعة تعمل».

يقطع يوسف تادرس رحلة طويلة، ابتداء من مشاوير توزيع كوبونات التبرع لجمعية الكتاب المقدس، برفقة أمه. رحلة طويلة يقطعها يوسف تادرس من أجل تجسيد النور ومن أجل التخلص من أسطورة الذات.

نور يتوهج على العشب وعلى الأرصفة. نور مثل حرير سائل، يتعلق به يوسف تادرس، يراه تجسيداً لحنينه، لون حياة يرغبها. من هذه اللمسة البسيطة يبدأ رحلته، لكي يصل إلى فهم مختلف لحياته ويتعرف على أن الفن لا يأتي من محاكاة شكل الكائنات، بل من محاكاة عمليات الخلق في الطبيعة.

الناشر

عادل عصمت من مواليد أبشواي الملق محافظة الغربية. حصل على ليسانس فلسفة ١٩٨٤ وليسانس مكتبات ١٩٩٦.

من أعماله: «هاجس موت» - رواية، «الرجل العاري» - رواية، «حياة مستقرة» - رواية، «أيام النوافذ الزرقاء» - رواية.

ISBN 978-977-6306-45-5

9 789776 306455 >